
الكتاب الماسي
قصص عربية
العشاق الخمسة
مجموعة قصص قصيرة
تأليف
يوسف الشاروني

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ثروت اباظة

القاهرة

الكتاب الماسى
قصص عربية

العشاق الخمسة

يوسف الشاروني



العشاق الخمسة

فى احدى الاماسى جلس يتلو عليهم من شعره الغنائى الحلو ، فلما انتهى منه قال :

ـ انه لا يمكنك أن تعرف قلب المراة ، فواحدة قد تكون مدلهة بحبك ثم تنصرف الى صديقى تحدثه كلما رأتك مقبلا ، واخرى لا تبادلك عاطفة ولا عطفا ثم تظهر اهتمامها بك كلما هممت منصرفا ، وثالثة قد تكون ذهبية الشعر ناعسة الطرف هشة الاعضاء ولها قلب ظامىء الى الحب والتحطيم والندم ..

ثم سعل سعالا يوشك أن يكون مرضا ، وستأذن فى الانصراف وابتلعه الصمت والظلام .. ولم يعد أليهم من يومها منذ عشرة شهور، منذ اخبروهم أن العلة اشتدت عليه ..

ولقد ابلغوهم منذ اسبوع واحد أن حامدا قد مات ..

ذلك انه فى منتصف القرن العشرين بعد الميلاد ، كان يعيش فى مصر جيل من الشباب ، شاهدوا الماضى ينطفىء وراءهم،وشاهدوا المستقبل لغيرهم ، ولم تستطع أقدامهم أن تثبت فى الحاضر .. وكان هذاالجيل يقرا الادب على ضوء مصابيح بترولية ، ويتابع دراساته وهو يستمع الى ضجيج المذياع فى اقرب مقهى .. وكانوا يبحثون عبثا عن الفرح ، فمن حولهم تنتشر الاوبئة و الاوجاع ، كما كان يشقيهم قلق وحرمان ، وهم يكافحون فى بطولة حتى تتحطم أعصابهم وتمزق الوحدة احشاءهم، فيفقدوا الثقة فى انفسهم وفى العالم .. ومن هذا الجيل كانت مصر تتطلع الى القادة الذين سينقذونها من الانحلال والتأخر ومن كل ضروب الشقاء الذى تعانيه ..

ولقد رايتهم تلك الليلة ، رأيتهم بنفسى بعد أن عبرت مع صديق منهم ذلك الزقاق القصير الرطب المؤدى أليهم وهو يشير الى الدكاكين التى يجدون فيها وسائل معيشتهم ، فهناك «مكوجى الامراء» يتعهد ثيابهم بالغسيل والكى ، وهناك «صالون السعادة» يتعهد شعورهم بالقص ولحاهم بالحلق ، وهناك «مطعم الحرية» يتناولون فيه طعامهم أحيانا ، و «بقالة الامانة» يجدون فيها حاجتهم من السجائر والبن والسكر والشاى ، ثم «مقهى الوطنية» يجلسون فيه لاسيما فى أيام الصيف .. وكان الزقاق ينتهى بباب خشبى كبير ، دفعناه فأحدث صريرا مسموعا ، ثم صعدنا درجات السلم الخشبى المرتفع الطويل وانا أتوكأ على عصاة ، وكأنما أشياء خفية تتكسر دائما تحت أقدامنا.. خمس طبقات صعدناها حتى وصلنا الى غرفة فى أعلا البناء .. وكانت القاهرة قد استنشقت فى ذلك اليوم عبير الشتاء المتفتح لاول مرة ، وخلفت الشمس بعد مغيبها نورا الهيا ناصعا غمر الافق الغربى زمناغير

قصير ، وبدا القمر في الشرق متدثرا يخطر بين سحبه الناعمة المترفة البيضاء ، واخذ النسيم البارد يلفح أسطح المنازل ، ويغمر في عنفوانه الشباب هذه الغرفة ذات السر الكبير ، ماضيا في رحلته الليلية خلال المدن والقرى والصحارى والبحار ..

ولقد رأيتهم جميعا والوجوم يختلط بروح التهكم في وجوههم وساعة الجامعة تدق قريبا منا تسع دقات . وهناك سرير وسط الغرفة، وأرفف متشبثة بجدرانها مرصوصة فوقها كتب في الفن و الفلسفة والادب ، ومنضدة ملطخة عليها أدوات مبعثرة للرسم ، ولوحات قلائل معلقة فوق الجدران .. وفي الركن الغربي مصباح بترولي يرتجف ، رأيت على ضوئه صورة رائعة كأنما تنبعث من حلم فرعوني قديم ، حيث ايزيس العذراء جالسة ترضع من ثديها الناضج البكر ابنها الصقر حورس ، وفي شعرها وعينيها لمحات من نور الله ، وكانوا يكادون ينتهون من طعام لم أتبين منه الا بقايا الخبز ثم رائحة الاذرة المشوية .

ويبدو أن روح الشاعر كانت قد تسربت في مطلع هذا الشتاء الى شمسه الغاربة وقمره المتدثر ، ثم اطمأنت الى هذه الغرفة في ذلك الهزيع من الليل ، وكانت الان قد تسللت الى قلوبهم وانتشرت على وجوههم وغمرت لوحة ايزيس الجاثمة تحت المصباح المرتجف ، وهم يتحادثون ويتناقشون ..

وفجأة لمحت في يد صديقي صورة لفتاة ربما كانت في العشرين من عمرها ، فرفعت بصري الى صورة العذراء التي قيل لي أن صاحبها اتم رسمها بالامس فقط ، محاولا أن أدرك أية صلة كامنة بينهما ..

وانتهى الطعام ، وساعة الجامعة تدق عشر دقات ، والبحث قد تشعب بحيث شمل نقاشا حول المذاهب والقيم .. وفي مصر كان بعض شباب الجيل يحاول ما استطاع أن يتعرف على زعماء الفن والفكر في العالم ، وأن يصل اليه ضجيج الحضارة التي تنهار .. وذلك في نفس الوقت الذي كانت فيه القنبلة الذرية قد اخترعت ، والادوية المهدئة للاعصاب قد انتشرت ، والبشرية كأنما تعاني المخاض ...

كانوا يحسون انه يجمعهم جيل واحد ورعب واحد وأمل واحد ، ويضمهم كذلك شخص واحد .. هو تلك المرآة التي اقبلت صورتها في هذا الهزيع من الليل تشيع بعض الطمأنينة في أرواحهم القلقة الاسيانة ..

وكانت سلوى فتاة من احدى محافظات الوجه البحري ، اقبلت الى القاهرة كي تنتظر في جامعتها ، وهي تحمل معها جسدا في التاسعة عشر

يزدحم خيالات وأوهاما ، وتتدفق منه روح بكر شاعرية .. وكانت قد جربت مواهبها المتفتحة فى بيئتها الصغيرة المحدودة ، فأدركت الى أى حد تستطيع برقتها وارادتها أن تشيع المرح والطموح فيمن حولها ..

وفى الجامعة تعرفت بحامد ، وما لبث أن قدمها لزملائه .. وكانوا فى ذلك الحين لايزالون يجربون امكانياتهم ويختبرون قواهم الكامنة ، فهم جميعا يرسمون وينحتون ويقرضون الشعر ويعزفون الموسيقى .. وكان لقاؤهم فى أكثر الاحايين عارضا تفرضه عليهم هذه المشاركة العامة فى السعى الحثيث الى اكتشاف ذواتهم .. فلما أقبلت سلوى ،بروحها المتوثبة الخلاقة وظرفها ولباقتها ، وجسدها النحيف المتيقظ ، اخذوا ينتظمون جميعهم ، ويجد كل واحد منهم نفسه فى يسر وسهولة،ويسرى فى جسده شىء خفى من الرعشة والسرور ، وهو يكشف شيئا فشيئا — وفيما بينه وبين نفسه — عن السر العظيم الدفين الذى لايبوح به لاحد حتى سلوى نفسها..ورغم أن كلامنهم أيقن أنها تحبه دون الباقين، الا أنه لايحب أن يفسد على الاخرين متعتهم ، ولا على نفسه هذه الرفقة التى يجد فيها السعادة والغبطة والرضى ، فيقنع أن يحبها وأن تحبه دون حاجة الى هذه الرعاية الخاصة التى قد تلفت الانظار وتفسد الامور ..

وهكذا وجد أحدهم أنه رسامها ، ووجد آخر أنه عازفها ،ووجد حامد أنه شاعرها ، وظن صديقى أنه مثالها ، وأخيرا اقبل خامسهم — وكان أصغرهم — ورأى أن يفلسف هذا جميعه . وتخصص كل فى دراسته واستقر فى معهده . وأصبح مجالهم الخاص لا يسمح لانسان أن يتنفس بينهم بلا موهبة ولو كانت مدعاة .. حتى هى مضت تجرب امكانياتها فاذا بها تقرض الشعر .. وكان هذا تشجيعا كافيا لان يكون الشاعر أول من ينقض هذه المعاهدة الصامتة فيذيع حبه على الاخرين، تساعده على ذلك وسيلته فى التعبير ، بينما الاخرون يحرصون على اخفاء مايعتلج فى صدورهم ، يتلمسونه فيما يبدعونه من فن فى رفق هو أقرب الى التلميح ، ويشيعونه فيما يعبرون عنه بغير أن يبرزوه ولا أن يفصحوا عنه ..

فى ذلك الوقت كان شباب الجيل ينتشرون فى مدن مصر ، ما بين المقاهى يقتلون الوقت وبين الطرقات الكبيرة يتسكعون وراء الفتيات ، وقد ربط بينهم احساس بالشقاء والفزع ، وتأرجح مابين اليأس الكبير والامل الاكبر ..

وكان الشيب يدب فى أفواههم والشيخوخة تشيع فى أرواحهم وهم لا يزالون فى شرخ الشباب .. وشباب الفلاحين فى قرى مصر

وريفها يذوون ويتساقطون فى الارض .. فى ارضهم .. بل فى ارضنا الخصبة السوداء ..

واحدهم ، ممن فيه شهوة الفكرة اقوى من شهوة الجسد ، مضى يقول :

ـ واعجبنا منها جرأتها فى وقت كانت فيه فتيات الشرق قد نزعن حجابهن ولم يتحررن منه بعد .

وآخر ممن فيه شهوة اللفظ اقوى من شهوتى الفكرة والجسد رفع رأسه قائلا :

ـ وأعجبنا منها قدرتها على الارادة والاختيار فى وقت كنا نرى فيه المرأة ما تزال تتقدم الى الرجل اذعانا واستسلاما لا ارادة واعطاء ..

وقاموا برحلات معا يشاهدون فيها آثار القاهرة وضواحيها وتلالها ، واشتركوا جميعهم فى ضروب من النشاط الثقافى والفنى والسياسى ، واخذ ماضيهم يزدحم بالذكريات .. وكثيرا ما كان يقوم بينهم خلاف أو شجار ، ثم تهل عليهم سلوى بقامتها النحيفة ورقبتها الطويلة ، فيتحول الصياح الى همس ، والهمس الى صمت ، وهى ـ كالغزال ـ تحنى لهم فى أدب جم رقبتها الرفيعة الملساء ، فيردون عليها تحيتها وهم يلمحون فى عينيها ذلك الوميض الدافىء ، فتنبعث فى قلوبهم رغبة خرساء لا تلمح هى منها الا رقة تنتشر على محياهم وحماسة تنتشر فى حركاتهم ، حتى اذا تفرق شملهم ، وخلوا الى ما يبدعون ، وجدوا فى طريقة ادائه ما يعطيه الجرأة على أن يعترفوا اليه قليلا وأن يصارحوا أنفسهم كثيرا بما يختلج فى أرواحهم ، فاذا مضوا قليلا فى ابداعهم ، توقفوا لحظة وخشوا الا يصل الافصاح أو التعبير الى نهايته ، وكثيرا ما كانوا يشكون فى قوة وصدق وقيمة ما يمارسون ، فلا يلبثون أن يدعوه أو يؤجلوه ..

أما حامد فما أذاع حبه عليهم حتى انتشر الارتياح بينهم ، وشاعت الغبطة فى صدورهم ، ووجدوا فى ذلك حجة ضد ما تتهمهم به أنفسهم من اشفاق وتهيب .. وانتابهم احساس نبيل سعيد وهم يشجعونه على أن يبوح لها بوسيلة ما عما يكنه من عاطفة نحوها ، ثم يدفعونه ويلحون عليه ، حتى استطاعوا فى احدى ليالى الشتاء الباردة وأمام جمرات المدفأة ان ينتزعوا منه قسما على أن يفصح لها ، وفى ليلة أخرى جلسوا يحتسون من الشاى ما غلوه للمرة الثالثة وهو يعاهدهم على ان يدرج خطوة نحوها .

ثم يصبح الصبح ويقبل الضحى ويوغل النهار وهو متهيب يرجو الافصاح ويخشاه ، مدركا ان الاعتراف امامهم — وفى شعره — هو التعبير ، وأن الاعتراف أمامها هو الفعل ، ومكتفيا بالتعبير دون الفعل وبالمعاناة الا معاناة الحصول — وتمضى الايام وما ادى بهم اعترافه لهم الا ان بلور أمامهم جانب الرغبة فيهم ، فأوهن كل سعى فى نفوسهم ، ووجدوا ما يبررون به عدولهم عما يحاولونه ويوجسون منه الا يبلغوه ..

— ومضت سنتان ونحن نحيا هذه الحياة ، ثم حدث شيء لم يكن فى الحسبان ..

وكان هذا الحديث شرحا ، موجها الى ، والغرفة قد امتلأت بدخان اللفائف حتى أخذت الاشياء والوجوه تبدو من خلال ضباب شفاف ، وساعة الجامعة تدق احدى عشرة دقة ، والمطر يهطل فى الخارج بغزارة ، ويتسرب بعضه من سقف الغرفة سائلا على الجدران فى تلكؤ ، والعذراء ايزيس لا تزال ترتجف ولا تحسب أن هذا تعبير شاعرى ، بل أرجوك أن تصدق انها كانت حقا ترتجف ، واللهب يرتجف ، وجميعنا يرتجف .. وصديقى — الذى يبدو أنه لم يمر بهم منذ زمن — يقول :

— سمعت أنها أنجبت طفلا ..

— بل طفلا وطفلا ..

— وكان زوجها مريضا ..

— والآن صحيح معافى ..

— وهل تراها أحرقت أشعارها ؟

— مثلما احرقها حامد ...

— وهل تراها أحبت حامدا حقا ؟

— بل هو أحبها حقا ..

— لكنه لم يبح لها بشيء فى غير شعره ؟

— مثلما لم تبح له بشيء حتى فى شعرها ..

وقال أحدهم يتم شرحه لى :

— فذات صباح اقبلت تخبرنا انها ستزف عما قريب الى أستاذ لها ، وتدعونا الى حضور يوم الزفاف ..

— ومن يومها سعل حامد وظل يسعل ثلاثة أعوام حتى مات ..

وكان صاحب هذه الجملة الاخيرة قد نطق بها فى انفصال وتأثر كأنما ليؤكد قيام هذه الصلة التى يشير اليها من طرف خفى بين رحيل سلوى عنهم وموت شاعرهم .. ثم صاح — كأنما تنبه أخيرا — وقال :

— لماذا تسردون هذه القصة ؟ لقد أعدتموها من قبل مئات المرات ، هيا نقدم شيئا خيرا من هذا لضيفنا حمدى ..

وإشار الى ، وأمسك عصاى يتأملها كأنما يدبر مؤامرة .. وعاد يقول :

— أين ماء الصودا ؟ لقد قبضت بالامس أجر احد الدروس . وعندى الليلة لكم زجاجتان ..

وكان جالسا على بساط فوق الارض . فانحنى قليلا متكئا على ذراعه اليمنى ، ثم مد يده اليسرى تحت أحد الرفوف وأخرج زجاجتين .. وطفح البشر على جميع الوجوه ، فمنذ رحل صديقهم عنهم الى المصحة وهم لم يقيموا احتفالا ..

وكان احدهم جالسا على منضدة الرسم يعبث ببعض الادوات التى أزاحها عنها ، وآخر جالسا فوق السرير يشاركه فيه صاحبى ، وانا جالس فوق مقعد كان من الخيزران يوما ما ..

.. وبدأ أحدهم قصة لم يتمها لانه نسى ما بدأ . وقام أكثرهم ثملا يخطب فوق المنضدة فقاطعه صديقى وأجلسه ، ثم أصبحت المشكلة الرئيسية هى كيف دخل السرير من الباب ، واستنتج أحدهم انه لا بد أن يكون السرير قد نشأ صغيرا فى هذه الغرفة ثم ظل ينمو حتى أصبح بهذا الحجم . لكنهم استسخفوا هذا الحل مما أغضب صاحبه غضبا شديدا ، وهنا تدخل صديقى وعرض حلا اخر ، ذلك أن تكون قطع السرير قد أدخلت من الباب مفككة ثم ركبت أجزاؤها داخل هذه الغرفة ، غير أن هذا الحل الجديد ضاع بين الضجيج لان أكثرهم ثملا وقف على المنضدة يريد أن يخطب من جديد ..

ولمحت وجها يصيح ضاحكا فى وجه اخر ويقول :

— وأنت متى تفسخ خطبتك التى عقدتها منذ ثلاثة أعوام ؟

— بل ستحتفلون معى بعد اسبوع بعقد الزواج ، ولولا وفاة صديقنا لربما كان الليلة احتفالنا هذا ..

— بل لعله لولا وفاة صديقنا لما انتويت ذلك أبدا .. ولولا زواج سلوى لما كانت خطبتك ابدا ..

وتحرك نحوى صاحب الوجه الثالث يصيح ثملا :
ــ فما اعتزم الخطبة هذا العربيد الا يوم ابلغوه زواجها ، وما يعتزم الزواج آلا يوم ابلغوه وفاة صديقه ..

وضحكوا وتشاجروا ، ثم ضحكوا وغضبوا ، ثم ضحكوا وضحكوا .. وتلك لوحة ايزيس الندية وما انتشر حولهــا من لوحات قلائل فى جميعها افصاح وعبور ، وهذا أحدهم يتهيأ للاحتفــال بزواجه بعــد أسبوع ، ولئن كانت خطبة هذا العربيد الماضية نوعا من الانتحار الذى يدفع اليه اليأس، فلقد بدا لى أن زواجه الحاضر هو نوع من الخــلاص الذى يفديه الالم ..

ولقد غادرنا الغرفة نحن الخمسة جميعا ، حين انتصف الليل الا قليلا ، وبقايا المطر تساقط زذاذا رفيقا ، ولا هدف لنا سوى الاندفاع ــ ربما حتى ينبلج الفجر ــ فى طرقات خالية باردة متسعة معتمة ، تتصل ببعضها بعضا فلا تفضى الى شىء ..

وكانت جميع الدكاكين قد أغلقت ولم يبق الا المقهى وصاحبــه يهم باغلاقه ، والسماء توشك أن تصفو مما تلبد بها من غيــوم فى أول الليل ، والقمر يبدو هادئا صامتا فى منتصف الطــريق بين الارض والسماء ، وطرقات المدينة تمتد كأنها الابد ، وتلتمع فى أرضها المبتــلة أضواء المصابيح المنتصبة فى يقظة وسكون ، ويختلج فيها نسيم ندى تشيع فيه عذوبة حبلى بالحركة والحياة ، وهم يحسون فى هذه الحــرية الليلية الساكنة اللامتناهية أنهم يسعون كل شىء ولا شىء يســعهم ، فانطلقوا يترنمون ويصخبون ويضجون ، ثم يتناقشون ويتهامســون ، ثم يضحكون ويضحكون ..

غير أنى كنت أحس انهم يفعلون ذلك لآخر مرة فى حياتهم . وكنت أدرك أن وفاة صديقهم أرعبتهم ، غير أنى كنت أدرك أيضا أن الالم هنــا هو بدء الطريق .. فأنا أعلم ان المأساة ليست سوى جانب من جوانب الحدث ، بل أنا أعلم أكثر من هذا : أن كل مأساة تحمل معهــا عنصر خلاصها ، وأن النور يضىء فى الظلمة ..

ففى ذلك الوقت كانت قد اكتشفت طريقة لمعالجة شلل الاطفال، وكان قد ابتكر أسلوب جديد لحفظ المعــادن والآلات من الصــدأ ، واخترعت آلة تحل مائة الف مسألة فى دقيقة واحدة ، وتوصل العلماء الى أخرى تقيس ما يكون تخانته أقل من الشعرة البشرية بثــلاثمائة ضعف ، واكتشف قطب مغنــاطيسى آخر فى شــمال الكرة الارضية ، وأجريت تجارب لاعادة الحياة بعد الموت وكان حكم الاعدام قد الغى فى بعض جهات العالم ..



العيـد



فى الظهيرة أقبلت امى ، وكانت تحمل معها شمامة كبيرة تفـــوح منها رائحة نفاذة ، قدمتها لسيدتى الكبيرة على سبيل الهـــدية .. وأحسست بفرح وفخر وطمأنينة وانا أنظر الى وجه أمى ، ومضـيت بسرعة أعد نفسى للذهاب معها ، فارتديت ثوبى الجـــديد المخطـط بخطوط حمراء ، وقد خاطته لى سيدتى لارتديه فى العيد ، كما أرتديت حذائى المطاط الذى ضاق على سيدى فأعطاه لى ، ورغم اتســـاعه بالنسبة لقدمى الا انى كنت اشد على رباطه حتى لا يكاد يفلت منهمـا ، ثم ذهبت الى صندوقى الصغير الذى أحتفظ فيه بأشياء انتقيهـــا من القمامة قبل ان أعطيها للزبال ، كان ملان بأوراق مكتوبة وصور ملونة جميلة ، فمددت يدى الى عروس كانت سيدتى الصغيرة تهانى قد حطمت ذراعيها وساقيها فألقاها سيدى فى صفيحة القمامة ، والتقطتهـــا أنا واحتفظت بها لان وجهها كان ما يزال سليما وستفرح بها أختى فرحا عظيما .. واختى سعدية ليست صغيرة ، لانها تتكلم وتمشى ، ولــكن ليست لديها لعب كالتى تلعب بها سيدتى .. ليست لديها لعبة واحدة ، لا هى ولا صابر ابن خالتى ..

وسمعت أمى وسيدتى علية هانم تتناقشان بشأن مبعاد عودتى ، كانت امى ترجوها أن أبقى معها لاخر يوم من أيام العيد ، وكانت سيدتى تريدنى أن أعود فى اليوم التالى ..

وأصرت سيدتى على ذلك وألحت ، فلم يسع أمى الا أن تذعن لها .. وأدركت اننى لن أقضى الا ليلة واحدة مع امى ، وأحسست بكآبة حتى كدت أبكى ، لولا أننى سمعت سيدى يقول : أنا جبت لك هدية يا عبده للعيـــد ..

فزايلتنى الكآبة وخفق قلبى ، ترى ماذا تكون اللعبة !..

وغاب لحظة ثم عاد وبيده ساعة صغيرة حمراء ، علمنى كيف أدير عقربيها من مسمار جانبى ، ووضعها حول معصمى الايسر ، وانا أطير فرحا .. وقدمت لى سيدتى بدورها خمسة قروش . وتأملت القطعة الفضية فى يدى ، لم تكن أول مرة أمسك بمثلها فى يدى ، ولكنها كانت أول مرة أمتلك فيها مثلها .. وقبل أن اغادر المنزل وضعت تحت ابطى لفة كبيرة ، فلما سألتنى أمى عما بها أجبتها بأنه ثوبى القديم سأرتديه عندما اصل الى بلدنا لئلا يتسخ الثوب الجديد ..

وفى الطريق وجدنا اخى رجب ينتظرنا .. وسرنا معا نقصد موقف السيارات التى تمر بقريتنا ، واقبلت احداها وقد ازدحم الناس فيها وعليها ، وحاولنا عبثا أن نركب ، ومضت السيارة ونحن ما نزال واقفين

فى مكاننا .. وهمست امى فى أذن اخى بكلمات لم اسمعها ، وشردت انا بفكرى فى قريتنا ، وتذكرت خور السيل الملىء بالرمل ، وكيف كنت اذهب اليه مع اصحابى نلعب فيه فى الليالى الصيفية المقمرة قبـــل ان تغمره المياه فى موسم البطيخ ، ثم تأتى امى لتأخذنى بالقوة وهى تحدثنى عن الضبع الذى يهبط الجبل ليأكل الاطفال الذين يجدهم فى الخـــور ليلا ، فأخاف واحجب عينى بثوبها الاسود الطويل .

وفجأة مات والدى ، وبكته امى كثيرا ، ولم أعد اذهب الى الخور ، ونمنا بدون عشاء ..

وبكت أمى ذات مساء وأخبرتنى أنا واخى رجب — وهو يكبرنى قليلا — بأنه ليس لدينا مال نأكل به ، أنا وامى واخى وستى العجوز التى تجلس طوال النهار أمام بيتنا لاتعمل شيئا ..

وفى اليوم التالى أخذتنى انا واخى ألى البندر ، هو الى ســيدته روحية وأنا عند سيدى كمال وسيدتى علية ..

وتلفت الى أمى فرأيتها ما تزال واقفة الى جانبى ، بينمـــا كان رجب قد آختفى ولم يعد .. وأحسست بانقباض ، وسألت امى أين ذهب رجب ، هل تاه ؟ واغرورقت عيناى بالدموع ، وأحسستها تجرى على وجهى .. وسمعت أمى بكائى فقالت لى انه ذهب الى الموقف العام حيث تبدأ السيارات سيرها ليحجز لنا مكانا .

ولم أصدق كلامها ، فالزحام شديد ورجب قد ضل عنا ، وامى تخدعنى لكى لا ابكى .. ومسحت دموعى بظهر يدى ، وبكيت من جديد ، وسالت الدموع ومسحتها من جديد ..

ولاحت لنا سيارة مقبلة ، فحدقت فيها طويلا ، ولمحت هنـــاك .. فى احدى نوافذها ، يدا تلوح لنا ، فلما اقتربت رأيت وجه أخى يطل علينا وهو يضحك فى انتصار ، حتى لقد شاهدت فمه مفتوحا ولسانه يتأرجح بين أسنانه .. وانحشرت بين الراكبين اشق طريقا لامى حتى وصلنا اليه فوجدناه قد حجز لنا مقعدا يسعنا نحن الثلاثة ، فجلسنا عليـــه ونحن ننضغط وننحسر لنفسح مكانا للآخرين ، بينما كان هنـــاك قفص من أقفاص الدجاج يحمله رجل يجلس خلفى ، وكان القفص يضغط بشدة على عظمة كتفى كلما اهتزت السيارة هزة عنيفة ، وحاولت أن أقف لكى استريح ، ولكن أمى نهرتنى وأمرتنى أن أجلس حتى لايحسبنى قاطع التذاكر كبيرا فيطلب عنى أجرا ..

أما رجب فكان يجلس الى جانبى بينى وبين أمى .. ولاحظت انه

لا يضـــع ساعة حول معصـــمه ، وان ثوبه ليس جديدا مثـل ثوبى ، فقلت له :

ـ شوف يا رجب الساعة اللى هداها لى سيدى ..

ونظر اليها رجب ، ومد يده يحاول انتزاعها ، فأبعدت يدى عنـه ، وفى نفس الوقت الذى انغرس فيه القفص فى كتفى الايسر كان رجب يلكزنى بشدة بمرفقه فى جانبى الايمن ، حتى صرخت من الالم ، وبدأت ابكى ، ورجب يقول لى همسا :

ـ هاكسرها لك لما نوصل البيت ..

وخشيت على ساعتى منه ، وحاولت أن أستعين بأمى ، ولكنهـــا كانت بعيدة عنى ، بينى وبينها رجب ..

وكان قاطع التذاكر قد مر بغير ان يطلب أجرا عنى ، وحســبت اننى أستطيع أن أقف الان لابتعد قليلا عن اخى وعن قفـــص الدجاج ، ولكن أمى عادت وامرتنى بالجلوس لان المفتش قد يمر

وعندما وقفت السيارة امام قريتنا ، هبطت أمى أولا ثم هبطت انا واخى قفزا ، وسرنا على الجسر قليلا وقد ظهرت المنازل .. وتركت امى واخى وعدوت بأقصى ما أستطيع الى منزلنا خوفا من أن يحسدنى الناس لانهم لايرتدون ملابس نظيفة جديدة كمـــلابسى ، ولانى أبيض البشرة احمر الخدين اصفر الشعر ، فاذا راونى لن يلبثوا أن يقولوا : «صلاة النبى .. صلاة النبى على عبد الفتاح ، شوفوا يا اختى أبيض وزى الفل ازاى» ..

.. وســـمعت ولداً يقول :

ـ حاسب ياجدع انت بتجرى كده ليه ! ..

وقابلنى اخر فتصدى لى وهو يقول :

ـ أزيك يا عبـــده ..

فسلمت عليه بسرعة واستأنفت عدوى وهو يصيح ورائى :

ـ يا جدع مالك مكروب كده على بيتكم ؟!

وعندما دخلت بيتنا وجدت خالتى كفاية تطبخ لنا ، وحين رأتنى قابلتنى وهى تقول :

ـ أهلا ، أهلا بابن أختى

وأخذت تقبلنى .. وكنت قد علمت من أمى أن خالتى قد لجـأت المنشـــودة .

الى منزلنا لانها غاضبة من زوجها الذى يشتمها ويضربها كلما ذهبت اليه فى الحقل لتغسل له ملابسه او تحمل اليـه طعامه .. ثم دخلت فخلعت حذائى وثوبى النظيف وارتديت الثوب القـديم .. واخفيت الساعة فى الصندوق الكبير الذى تضع فيه أمى ملابسها ..

وعلى الارض لمحت ابن خالتى صابر وبجانبه أختى سعـدية ، فاتجهت نحوهما واعطيت العروس لسـعدية ثم قلت لابن خالتى الذى كان يبـكى :

ـ أسكت يا صابر ، هديك تعريفه من اللى معاى ..

ولكن امه قالت لى :

ـ خلى التعريفه معـاك وبكره الصبح خده هات له من العيد حاجة يلعب بيهـا ..

وعندما جاءت أمى كانت العتمة فى المنزل ، فأضاءت المصبـاح البترولى ووضعته فى الطاقة ثم جلسنا نتعشى وقد وضعت امى الطبق الكبير أمامنا وحوله الحصير مفروشا على الارض ، وكان بالطبق صحون الحساء والعيش وذكر الاوز الذى ربته أمى انتظارا لهذه الليلة .. وكنت جوعان جدا لانى لم اتغد غذاء كافيا فى منزل سيدتى .. وذلك لفرحى واستعجالى السفر ..

فلما أكلت قمت وغسلت يدى ـ كما علمونى فى منزل سـيدى ـ وجلسنا نشرب الشاى ، شاى أول دور ، وشربت الكوب الصـغير بسرعة ، ثم انتظرت ثانى دور وأنا جالس ورأسى الى ذراعى ، بينما كان اخى رجب يلعب مع أختى سعدية وهى تصرخ قائلة :

ـ يا عيال فطسونى ، فطسونى ..

فيضع رجب يده على فمها حتى لاتستطيع أن تتكلم ، وعندما يتركها تقوم وتضربه ..

وفجأة رأيت رجب يتجه نحوى ثم يقبض على يدى باحدى يديه وعلى رجلى باليد الاخرى ، واحسست ألمـا شديدا من قبضته فصحت فيه لكى يتركنى ، وحاولت أن أضربه فلم أستطع ، واقبلت أختى ورجب يقول لهـا :

ـ اضربيه ياسعدية ، اضربيه يابت ..

فقلت لها متوسلا :

ـ لا ياسعدية دنا خوك ..

وفى هذه اللحظة ، بينما كنت ممددا وظهرى الى الارض وعيناى تلمحان نجـــوم السمـــاء ، انهال رجب على ضربا فى جانبى الايمن حتى احســـست الالم شـــديدا كأنه صـــبغة اليود التى يضعها سيدى على كل جرح اصاب به .. فبكيت من شدة الالم ، ولـو كنت طفلا صغيرا لصرخت ..

واقبلت امى عندما راتنا نتعارك وصفعت أخى على وجهه فبكى بدوره ولكن بطريقة جعلتنى أمتنع عن البكاء ثم اضحك ، فمســحت دموعى وأنا اقـــول له :

ـ تستاهل ..!!

ولم يكن عمى شحاته بين الجالسين ، فاستأذنت امى لكى اذهب اليـه وأناديه ليشرب الشاى معنا ، ولكنى قابلته فى الطريق ، فلما رآنى حيانى وحييته وأخبرته بأنى كنت ذاهبا الى منزله لادعوه لتناول الشاى معنا ، فحذرنى من الذهاب الى بيته قائـلا :

ـ اوع تروح لحسن فيه هنـاك ناس كتير قاعدين ، عشـان عاملين ليلة للميتين قـــريب ..

فألححت عليه ان ياتى الى بيتنا ليشرب الشاى حتى قبل اخـيرا وعندما دخل ســلم على أمى وهــــو يقـــول لها :

ـ كل ســنة وانت طيبة ..

وبينما نحن نشرب الشاى ، شاى تانى دور ، كان منزلنا يمتلىء بضيوف كثيرين ، حتى اضطرت أمى أن تصنع الشـــاى ثلاث مرات فى تـــلك الليلة ..

كانت هناك امرأة عمى وأم أمرأة عمى وخالتى ستهم التى تعيش مع جدى ولا يريد ان يزوجها لاحـد لانها تقوم بخدمته .. وجلســوا يتسامرون بينما كان النسيم يهب رقيقا رطبا فيشيع النعاس فى أجفانى المتعبة ، فانحنيت فى حجرة عمى شحاته لاغفو قليلا ، ولـــكن أمـى صـــاحت فى :

ـ قـوم ياواد اختشى ..

فاجبتهـــــا :

ـ وانت مالك ، مش عمى ؟ ..

فردت عـــلى بفتـــور :

ـ ياواد عيب..

واخذ النعاس يثقل على ، وانا اسمع أصواتهم وضحكاتهم كانما تأتينى من الحقول البعيدة ..

وحلمت حلما مفزعا وانا بين النوم واليقظة ، حلمت اننى فى الحقل مع أمى وعمى ، وطلب منى عمى ان اركب على النورج ولكنى رفضت فاتجه نحوى يشدنى من أذنى ويحاول القائى فى الترعة .

وسمعت أمى صراخى وانا ارتعش ، فصحوت منزعجا ووجدت عمى يوقظنى بينما كانت أمى تنادينى .. وكانوا كلهم قد انصرفوا ،وقد فرشت امى الحصير ، فذهبت نحوه واستلقيت عليه ،وانا ماأزال اتحسر اذنى .. فقد كانتا كبيرتين على عكس وجهى الابيض الجميل ـ حتى ان سيدى كان كثيرا ما كان يقول لى عنهما «دول زى ودان الحمار يا واد يا عبده» ثم يشدهما من اسفل حيث تتسعان حتى لاخالهما تنفصلان عن بقية رأسى وانا لااعرف هل هو هازل أم جاد ..

وبينما كان النعاس يغالبنى كان يقفز الى ذهنى خليط من الذكريات وكان اوضحها هو هؤلاء الاولاد الذين يقابلوننى فى شارع البندر كلما أرسلتنى سيدتى الى السوق وهم ينظرون الى قبقابى وساتى وثوبى المتسخ ثم يشيرون نحوى قائلين : ..

ـ اهو الواد الخدام ، أهو الواد الخدام ابن الكلب ..

فأتالم واود لو استطيع أن أرد عليهم بالمثل ، ولكنى ابتعد عنهم بسرعة .. وظلت هذه الصورة تتكرر امامى حتى استغرقنى النعاس ..

وفى الفجر استيقظنا مبكرين ، ماعدا ابن خالتى صابر الذى ظل يبكى طوال الليل حتى ان أمه لم تستطع النوم .. وغسلت راسى فى الطشت وأمى تصب الماء لى من كوز بيدها ، ثم اخرجت الكحك استعدادا للذهاب الى «القرافة» ، وارتديت ثوبى النظيف وحذائى ، كما وضعت ساعتى حول معصمى لكى يراها اولاد البلد .. وكانت أمى تنوى الذهاب حافية ، لانها لو لبست حذاءها لتهامس الناس قائلين :

ـ شوفوا يا اخواتى سنيه فرحانه ازاى .. ولكن خالتى كفاية قالت لها : «حتروحى حفيانه ، لازم تلبسى ، رجليك تلم تراب ، خلى الناس يقولوا اللى يقولوه» .. وهكذا لبست أمى «الكتانيلة» .

وفى طريقنا وقفنا بمنزل عمى فوجدناه ينتظرنا مع زوجه ، وقد قطع لنا سعفا لنضعه على قبر والدى .. ثم استأنفنا سيرنا وعبرنا على

«النقطة» وعلى خور السيل ــ وكان الان شديد الحرارة بسبب الشمس ــ ثم وصلنا الى المقابر .. وهناك رايت « ناس الدنيا » مابين رجال وســــيدات واطفـــال..

وذهبت امى وجلست مع الناس قليلا ثم استأذنت وانفردت على قبر والدى ووضعت فوقه السعف، ثم جلست ولمحت دموعها تنحدر من عينيها فى صمت أول الامر، ثم اخذت تنهنه، وكانت تتوقف من حين لاخر لتمخط وتمسح دموعها ثم تستأنف بكاءها من جديد ودموعها تسح منها بغزارة، وانزعجت لبكائها وانتظرت أن تنتهى منه سريعا .. فلما استمرت حاولت اسكاتها وانا اربت على ظهرها متوسلا ، ولكنها كانت كأنما لا تحس بى .

فاقبلت امراة لااعرفها تقول لها : « اسكتى يابت .. بصى لابنــك شوفيه بيقولك ايه » .. ولكنها لم تسكت الا بعد زمن طويل وأنا جالس احدق فيها بعد أن يئست من محاولاتى معها وتمخطت للمرة الاخـيرة ، ومســـحت عينيها بطرف ثوبها ثم التفتت نحوى تقبلنى وقد احمـرت عيناها احمرارا شـديدا وكانما انتفخ انفهـا قليلا ..

والى جانب المقابر كان الباعة قد افترشوا الارض امامهم ووضعوا عليهـا اللعب من شخاشيخ وحلقان وبالونات واساور كما كان امامهـم خبز وسمك وكنافه وكوكاكولا ، فطلبت من أمى أن اذهب اليهم ولكنهـا امرتنى أن انتظر قليلا ، بينما كان الشيخ نصر الاعمى يقرأ على مقبـــرة بجانبنا .. فلما انتهى من قراءته نادته امى قائلة :

ــ تعال ياعم الشـــيخ نصر ، اقرأ ســـورتين على حسن وســورة على اختى ســـعد الهنـــــا ..

فأتى وجلس القرفصاء ومضى يهز رإسه هزا يضحكنى كلما تذكرته

وعدت اطلب من امى ان اذهب لاشترى اللعب ، فسمحت لى فقمت ووقفت امام البـــاعة اتـــأمل فيمـا يمـكن ان اشـــتريه وأنـا أســأل :

ــ الكورة دى بـــكام ياعم ؟

ــ بقرش صـــــاغ ..

ــ لا بتعــــريفه ..

ــ يفتح الله ..

ــ طب والشخشـــيخة بـــكام ؟

ـ بتعـــــريفه .

ـ اديني اتنين .. والصفارة بكام ؟

ـ بقرش صــــــــاغ ..

ونظرت في يدي فوجدت انه لم يبق الا قرشان اريد أن اشــترى بهما كنافة ومشمشا ، وكان هناك حلق اود أن اشتريه لاختي سـعدية ولكني نظرت اليه في أسف وحسرة .. وحملت اللعب وصررتها فيمنديل معي ، ثم ذهبت الى بائعي المأكولات فاشتريت كنافة بقرش واخذتحملي ذاهبا الى أمي حيث كانت تجلس مع اقربائنا فاعطيتها قطعة من الكنافة كما أعطيت عمتي وخالتي ورجب وسعدية ، ولم يبق لي من الكنـــافة الا قطعة صغيرة ولكن طعمها كان لذيذا جدا ، واعطيت القرش الباقي لاخي ليشتري لي به مشمشا .. وكان الشيخ نصر قد انتهى من قراءته ومد يده نحو امي ، فوضعت فيها برتقالة وثلاث كحكات ورغيفين ثـــم قمنا عائدين الى منزلنا ..

وعندما وصلنا الى المنزل ذهبت توا الى صندوق الملابس ،واعدت فيه ساعتي قبل أن يعود أخي رجب ، ورأيته بعـد قليل مقبلا يحمل معه المشمش ، ولكنه ما فتح المنديل حتى رأيت جميـــزا !! وانا لااحب الجميز ولا أذوقه ، فزعقت في اخي وبعثرت له الجميـــز على الارض ، فالتقطتـــه أختي ســـــــعدية ..

أما أنا فمضيت اوزع هدٰياي : شخشيخة لصابر واخرى لاختـي وصفارة لابنة خالتي واحتفظت بصفارة لنفسي .. وهز صابر شخشيخته وهزت أختي شخشيخنها وصفرت ابنة خالتي في صفارتها وصفرت انا أيضا بصفارتي ، وامتلا المنزل بالضجيج واخذت اقفز مرحا وهم يقفزون مثلي ويهزون لعبهم ، بينما أمي تبتسم وتقول :

ـ يارب حـــوش العـــين :

وكان الظهر قد اقبل ، وانا اكاد اموت جوعا لانني لم افطـــر فـي الصباح ، فقد خرجنا مسرعين الى المقابر .. وكانت خالتي كفايه قـد طبخت لنـــا « المبرومة » فاردت ان آكلها بسكر ولكن امي قالت لي انه ليس لدينـــــا ســــكر .

وبعد الغداء كان على أن أعود الى سيدي بالبندر فذهبت لاودع جدي وعمي شحاته وعمي مســـعد .. ثم رافقتني امي الى محطة الاوتوبيس وهي تقـــول لي :

ـ خلي بالك ، خليــك ناصح ، عشان انبسط منــك ..

ثم قبلتنــــى ..

واقبلت الســيارة فركبت فيها وانا اودع امى ، وكنت اغالب البكاء لئلا يلمحنى الراكبون ويرون دموعى فيقولون « ايه المره ده » وكـــانت امى قد اعطتنى قرشا ونصف قرش ، ورغم اننى ظللت جالســــا فى مقعدى ولم أقف ، الا أن قاطع التذاكر حين مر بى اخذ منى النقــود ، والواقع أنى أنا الذى قدمتها اليه بمجرد رؤيته ، ثم اعطانى تذكرة صغيرة حمراء ظلت فى يدى حتى تركت السيارة .. وكان الزحام شديدا فى أول الامر ، لكن الناس كانوا يهبطون واحدا بعـــد الاخر ..

كنت أعود حزين القلب لانى تركت اخى يقضى بقية أيام العيــــد هناك ، أما أنا فأعود بعد يوم واحد لاكنس الارض وأمسح البلاط وأذهب الى السوق عشرين مرة فى اليوم ..

وكانت الصفارة التى اشتريتها فى الصباح ما تزال فى يدى وقبضتى قد امتلأت بالعرق ففتحتها قليلا لاجففها ، وتنبهت الى أن الساعة ليست فى معصمى ، وانزعجت لحظة واحدة ، تذكرت بعـدها انى نســـيتها بصـــندوق الملابس فى بيتنا ، وكنت احب أن تكون معى الان ..

وعندما وصلت السيارة الى البندر ، وقفت أمــــام المنزل الـذى أعمل به ، فنزلت وحدى لاول مرة بدون أمى .. واتجهت نحــو الباب الكبير ثم صعدت الســلم وطرقت البــاب .. وعندما فتحوا لى استقبلتنى عيونهم وســــيدتى تســـــــألنى :

ــ انت انبسطت ياعبــده ؟

واحسست عينى تغرورقان بالدموع ، فقد تذكرت قريتى وأمــــى واخى الذى لايزال يلعب مع ســـعدية فى العيد هناك ولمحوا الدمـــوع فى عينى وانا أمسحها بظهر يدى ، وتساءلوا عن سببها فى دهشة ..

ولم اجرؤ ان اقول الحقيقة ، وكان على أن اقول شيئا يصدقونه ، فأجبت من خــــــلال دموعى :

ــ اصل اخويا رجب ضربنى امبارح بالليل ..

ثم اضـــفت من عنـــــــدى :

ــ وكسر لى ســـاعتى ..





قديس في حارتنا

كان عم اسماعيل رجلا فيه من طبائع الناس الخير والشر ، له لحظات فرحه ولحظات غضبه .. وأنا اعرفه منذ زمن طويل ، منـذ كنت صبيا العب مع اصـدقائى فى حارتنـا ..

واني لاذكر كيف راقبنا مجيئه مع عروسه الشابة ليسكنا طابقـا فى حارتنا هـذه ، وكيف تتبعنا عملية نقل الاثاث ، وتعلقنا خـلف العربات التى كانت تحمله ، وكيف كانت أمى والجـارات ينظرن مـن خلف الشبابيك الى المراتب الفاقعة والحلل النحاسية والمقاعد المستطيلة الخشبية كانما يحاولن أن يعرفن قيمة العـروسين من نـوع الاثاث ومقدار جـودته .

ولقد سمعهما سكان حارتنا يتضاحكان حينا ويتشاجران حينـا كما يفعل معظم الازواج .. لكن مجرد التقائى العارض بهـذا الرجل كان أحيانا ما يدفعنى الى الاحساس بشيء مسيطر كانما انا تحت رحمـة انفعالاته ونزواته ، رغم انه لم يحـدث منـه مايؤيد هذا الاحساس سوى بريق يتخطف فى عينيه لا يلبث أن ينقل القلق الى عينى .

ولقد حدث ذات يوم ان تشاجر عم اسماعيل مع زوجه الشـابة ولم يتم على زواجهما العام ، فضربها فى الحائط بعنف ، وكانت توشك أن تضع طفلها الاول .. وكما سمعت ـ فيما بعـد ـ انها كانت مريضة بضعف القلب .. فما دفعها الى الحائط للمرة الثالثة حتى وجـدها قد سقطت بين يديه .. ويبدو أن العم اسماعيل قد أدرك أن الاشغال الشاقة ـ على أقل تقدير ـ هى جزاؤه فاهتدى الى حيلة تنقـذه من السـجن ..

انى واثق انها لم تكن سوى لحظة من لحظات الغضب الهـائل رغم أن أحدا لم يسأل ماذا كان الامر ولا ما هى أسبابه ، ولقـد تصنع الجنون أثناء المحاكمة ، وقرر الطبيب أن به بعض الشـذوذ الخطـر ، فاحيل الى مستشفى الامراض العقليـة ..

نعم ، نعم ، انى اعرف أن الانسان يجب أن يكون أكثر ضبطـا لعواطفه وانفعالاته ، والا يبلغ به الشطط ان يضرب زوجه الحـامل حتى الموت .. ومع ذلك فتكاد تكون لكل منا هذه اللحظات ..

لكن حظ عم اسماعيل ـ السيء أو الحسن ـ هو أن هذه اللحظة قد فرضت نفسها عليه فيما بعـد .. فرضها هو أولا على نفسه بتصنعه الجنون ، ثم اكده الطبيب وقرار المحكمة ثم وجوده فى مستشفى الامراض العقلية مدى خمس سنوات . وعلى هذا النحو الذى ما توقعه ـ كـل ذلك قد أذل نفسـه فما اضحى له طاقة للتهجم على احد

وحين غادر المستشفى عاد الى حارتنا يريد أن يؤجر مسكنا بها ، فما له ملجأ ولا أصدقاء الا هنا ، وما فكر فى الالتجاء الى اقاربه ولا أن يعرفوا عنه شيئا لانه كان يخافهم ، فقد كانت زوجه التى قتلها ابنة عمه .. ولم يجد سوى غرفة بمنزلنا تجاور السلم .. وطفق يبحث عن عمل ..

كان يبدو متبرما بالحياة خائفا من وجوده .. ما يكاد يبدأ العمل حتى تجرى وراءه الحقيقة المخيفة انه كان فى مستشفى الامراض العقلية وأنه ذبح زوجه الحسناء ، وفى رواية اخرى انه أكل منها .. وما تكاد الحقيقة والاشاعات معها تصل الى مقر عمله حتى يخشى كل فرد أن يلحق - دون غيره - بمصير الزوجة اذا غضب معه اسماعيل وانفرد به فى زاوية هنا أو زاوية هناك .. ويبدأ التهامس حوله والعيون تحدق فى جزع منه .. فما الهدوء والتجهم اللذان يكسوان الرجل الا الرماد الذى يخفى وراءه الجنون واللا معقول ، أو الهلك والمخيف ..وما ينقضى الشهر حتى يعى عم اسماعيل بما يشاع حوله ، ولا يعود يطيق العمل والمكان فيتركه باحثا عن غيره ..

وهكذا اصبحت حياته قلقا وتجوالا ، فاذا كان المساء دخل احدى الحانات ، فلا يكاد يستقر بها حتى يسمع همسا يعلو حتى يصبح لغطا ، فاذا شرب كاسا أو كأسين صاح فى الجميع :

- والله العظيم لست مجنونا ، أبدا لست مجنونا .. وبذا اخذت حاله تسوء .. وكلما حاول أن يقنع احدا بأنه كان مجنونا فى يوم ما ، كان هذا دليلا جديدا لدى مستمعه على جنونه حتى ليخفى ابتسامة تكاد تنفرج عنها شفتاه .. وقد يجلس الى أحدهم يحدثه فيتقبل الرجل حديثه ويناقشه ، حتى اذا أدرك من خلال الحديث أن هذا ليس سوى عم اسماعيل الذى ترامت اليه الاقاصيص عنه ، حدق فيه محدثه وهز راسه ، فقد فقدت الكلمات فجأة معانيها وكانما اصبحت تخرج من راس فارغ .

وهذه اليد قد تمتد اليه فى أية لحظة لتذبحه ثم تاكله ، فيتحين اول فرصة ليتخلص منه .. وهكذا كان وجوده فى مكان ما معناه فزع خافت يشوب طمأنينة الناس وأمنهم ، واثارة خفية لكفاح داخلى بأن هذا الرجل لايثير الضر ولا يدعو الى الريبة ولكن جواره لك بالرغم من ذلك يستلزم كثيرا من الحيطة والحذر

وفى هذه الاثناء كنت قد كبرت وتزوجت وانجبت لى زوجى طفلا وطفلين .. ولم يكن عم اسماعيل يقص على ما يعانيه قليلا ولا كثيرا ،

ولكنى كنت احيانا ما اسمعه من اخرين واحيانا ما اشاهده بنفسى .. واعتقد أن عم اسماعيل كان يدرك آننى لا لاصدق قصة جنونه .. وكان ادراكه هذا من خلال الاحاديث القليلة التى نتبادلها احيانا ، ومن خلال نظراتى وحركتى المطمئنة الدائمة الى جانبه وانا ادخل واخرج من مسكنه الذى يحتل هو غرفة خارجية منه ..

لكن حدث ذات يوم أن عرض لى كتاب يبين فيه مؤلفه أن ليس بين الجنون والتعقل حدود فاصلة ، وثمة تدرجات دائمة بين الصحة والمرض كالتى بين البرودة والسخونة ، وأن اكثر المجانين تكون تصرفاتهم سليمة فى كل شىء .. الا فى شىء واحد .. اذا اثرتهم فيه بدت عليهم أعراض المرض .. فلماذا لا يكون العم اسماعيل مجنونا بهذا المعنى اذن ؟ ان أحدا لا يشير امامه الى حادث زوجه ، والجميع يتجنبون ذلك بحدسهم ، واذن فأنا أعرف لجانب المجنون فى العم اسماعيل ..

وقد حدث بعد ذلك بأيام قلائل أن جاء عم اسماعيل وانا مستلق مسترخ على مقعدى المتأرجح يسألنى على غير عادته ما اذا كان هو حقا مجنونا كما يقول له الاخرون .. وكان يبدو عليه يأس والم هائلان والبريق العالق قد ازداد تألقا فى عينيه ، حتى أننى أحسست الخوف الحقيقى لاول مرة حين نظرت فيهما .. ولم استطع أن أعرف من ذا الذى أثار هذا الاضطراب العميق فى حياة الرجل ، ولكن خوفى منه جعل بى رغبة حقيقية وخطرة الى تصديق كل ما يقال عنه .. ويبدو ان كل ما كان يرغب فيه هو أن أنفى عنه التهمة ببساطة ، لكننى لم افعل بل قلت له فى سذاجة كل ما قرأته أخيرا فى الكتاب ، حاسبا بذلك اننى أوضح له ان ليس ثمة شىء اسمه الجنون بالمعنى الذى يفهمه الناس ، لكنه فهم اننى أردت أن اخبره بطريقة غير مباشرة أنه كان على درجة من درجات الجنون ..

ويبدو أن اعماقنا تتكشف مهما أردنا اخفاء ما بها ، فأنا فى الواقع ما نقلت اليه الا ايمانى الذى تزعزع فى تعقله ..

منذ ذلك اليوم قرر عم اسماعيل مغادرة دارنا واتخاذ الخرابة المجاورة مسكنا له رغم ما أبديت له من شديد الاعتراض وهو اعتراض كنت أود فى اعماقى الا يستمع اليه ، فما عدت اطمئن منه على زوجى واولادى .. ولم يكن قد افلح فى الاستقرار فى وظيفة ما .. وكانت حالته المالية قد ساءت .. وكما انى كنت اخر من فقد ثقته فى الرجل ،فيبدو اننى أيضا كنت اخر من فقد فيهم الرجل ثقته .. وهكذا انفصل عن عالم العقلاء حيث انى كنت فى الواقع الخيط الاخير والوحيد الذى يربط بينهم وبينه ، وأصبح يتعيش من الشحاذة .. ومع ذلك فقد

ظلت غرفته بدارنا زمنا وهى لا تزال له ، يلجأ اليها فى الليالى العاصفة المطرة .. واصبح جنونه هو أن ينفى عن نفسه تهمة الجنون .

ولم يعد يعرف الواحد اكثر من الاخر ، فقد استوى لديه الاصدقاء والغرباء وأصبح يحس أنهم جميعا من عالم الآخرين ، مجرد وجودهم أمامه معناه اتهامه بالجنون ، فيدافع عن نفسه بكلمات يدهش لها من لا يعرفه .. وهو يحس كأنما هناك خطر هائل موشك أن ينقض عليه ويمكن لهذه الكلمات أن تدفعه عنه حتى يعبر بعيدا .. وكنت احيانا ما أطل من نافذة بيتى على المنزل الخرب ، فأرى عم اسماعيل يقوم من فراشه المهلهل ويطبقه فى عناية ، ثم يشعل النار ، وقد وضع أحطابها فى مكان لايصل اليه البلل ولا المطر اذا كان الوقت شتاء ، ثم يحمل الماء ليعد الشاى ، ثم اشاهده يخرج حافظته ويعد قروشه ومليماته، ثم يبتسم ابتسامة كلها طمأنينة وارتياح حتى لأحس أن العالم كاذب ، وأن جنونه فكرة فى رأس الاخرين ، وها هو ذا فى وحدته كاعقل ما يكون وأقدس ما يكون .. وهكذا بدأ اتجاهى الجديد نحوه ..

ولقد مات لى طفل ، وانجبت لى زوجى طفلا اخر ، وأنا مشغول بعملى وقضاياى ولكن ما يزال عم اسماعيل يحتل من تفكيرى جانبا كبيرا هاما .. وهكذا كان على ان اقود سكان الحارة من ورائى نحو هذا الاتجاه الجديد .. وكانت محاولة متواضعة ، لاتتعدى أن نوفر له طعاما افضل وفراشا افضل ، وكان أول من آمنت بفكرتى هى زوجى التى جعلته يشاركنا بعض طعامنا فترسل اليه مما ناكل بغير أن يعرف .. وشاركنا فى ذلك بعض سكان الحارة .. ولكن الأمور لم تلبث أن وصلت الى أبعد مما كنت اظن ..

فقد أخذ عم اسماعيل يصبح اكثر هدوءا واكثر تأملا كانما هو على وشك مشروع خطير ، وانطفأ من عينيه قليلا قليلا ذلك البريق القلق ، وأصبح اقل دفاعا عن نفسه كأنما جنونه يستحيل الى نوع من البله .. أما سكان الحارة فكانوا يرون تغيرا حقيقيا وجديا ومجهولا يوشك أن يحدث فى حياة الرجل .. صارحنى بذلك المعلم دعبس صاحب المقهى ، وصارحتنى بذلك جارتنا القابلة الست أم ذهب ، ثم صارحتنى بذلك زوجى نفسها ..

وهكذا مضى سكان الحارة يكتشفون القديس فى المجنون ، وكان ذلك الاكتشاف بطيئا كأنه غير مقصود فى أول الامر .. والواقع أن عم اسماعيل لم يمر بفترة العبط الا وقتا قصيرا جدا ، فقد اصبح سكان الحارة اكثر احتراما له وتفاؤلا به ، يتحينون الفرصة لتقديم شىء من ضروراتهم له ، يكفرون بذلك عن خطايا كثيرة متشعبة ومختبئة فى نفوسهم ..

وقد منحته لحيته التى دب اليها البياض شيئا من مهابة .. ثم سرعان ما أسرعت الامور اكثر مما توقعت ..

فقد حدث فى احدى وقفات عيد الاضحى ان رات جارتنا أم نادى فى منامها رجلا بثياب بيضاء من قمة رأسه الى أصابع قدميه ،يطلب منها فى صوت اجش ان تقاسم هى وزوجها عم اسماعيل ما ياكلانه من لحم العيد ، وبذلك تنال امنيتها ..

ولم تكن جارتنا ام نادى عاقرا بالمعنى التام ، فقد انجبت فىأوائل زواجها أربعة أطفال كان أولهم نادى ، وماتوا جميعهم ولما يتموا العام، ثم انقطعت عن الولادة منذ اكثر من خمسة عشر عاما حتى اوشكت أخيرا على اليأس الخالص الذى لايشوبه قلق ولا شبه قلق ..

فلما كان الصباح اذاعت القصة بين جاراتها ، وحرصت ان تنفذ ما تلقته من أمر فى المنام ، فكنا نراها من شرفة بيتنا وهى تضع له الطعام ثم نمر بنا تزورنا لحظات لتروى لنا القصة من جديد .. ثم تخرج مسرعة وهى تضع اطراف ملاءتها بين اسنانها .

ولقد مضى شهر وشهر ، فلما كان الشهر الثالث تحققت لام نادى معجزتها ، وبدأ اهتمامها واهتمام حارتنا بشيخنا اسماعيل وثمة مسحة من القداسة أخذت تشيع على وجهه وتضىء روحه ، وأم نادى دائبة تحمل الى الرجل صنوفا من الطعام والوانا من الاقمشة المزركشة ، فما اكتمل على حلمها عام حتى ولدت جارتنا طفلا أبت الا أن تدعوه باسم اسماعيل ، وقد اشفق بعض الخبثاء والمتشككين من الشباب أن يموت الطفل ولما يتم العام ، ولكن العام مضى والطفل فى صحة وعافية .

وهنا فقط آمن جيراننا بشيخنا وبقدرته ، ووفدت نساء الحارات الاخريات يتلففن حوله يتبركن به ويطلبن المعونة منه .

وكنت انا ارقب كل هذا والحظ كيف يكافح المجنون فى حارتنا حتى يلتقى بالقديس .. فقد بدا على الشيخ اسماعيل انه بدأ يسلك طريقا صوفيا صارما ويأخذ نفسه بالوان من الالتزامات كأنما يجهد فى سبيل الحصول على شىء حقيقى وضرورى لوجوده .. ثم مالبث أن احتل الميدان الصغير الحائل الذى يفضى الى حارتنا والتفع بمجموعة من الخرق المزركشة التى خاطتها له جارتنا أم نادى ، ووضع حول رقبته سلسلة ضخمة كالتى يقيدون بها الاشقياء ، ثم مضى يدور فى الميدان من الصباح حتى المساء وهو يردد آيات الله وأسماءهالحسنى ويعبث بين أصابعه بمسبحة والناس يتحدثون عن معجزاته وعنكراماته، فثمة من تشفى وثمة من تلد وثمة من يعود اليها زوجها وكان قدالتوى

طلاقها .. ولقد اتت الحرب ودوت صفارات الانذار وكان سكان حارتنا جبناء ، يفقدون أعصابهم ويلجأون الى مايشبه المخبأ بأكين مولولين ، وشيخنا اسماعيل قابع فى خرابته لايتحرك ، وحارتنا لاتمس، وفى اليوم التالى يذيعون أن هذا أيضا كرامة من كرامات الشيخ ..

وحدث ذات يوم أن سافرت مع اسرتى الى شاطىء البحر ،وأن اقص لاكبر ابنائى ما يشاع عن كرامات الشيخ ومعجزاته فلما عدنا وجدناه قد اختفى وهم يجمعون النقود ليقيموا له ضريحا فى الخرابة حيث امضى حياته .. وثمة من يقول أن المسئولين ارغموهم الا يدفنوه هنا . ولكن جثته اختفت من مقبرتها بعد أيام قلائل من دفنه ، وهذه معجزة اخرى من معجزات الشيخ ودليل على رغبته الاكيدة ان يقيم بين سكان حارته ..

ولقد استولت الاوهام حينا على وهم يوشكون أن يبنوا الضريح بجانب بيتى ، فكنت أنصت فى الليل علنى أسمع صراخ زوجه ـ الذى سمعته وأنا طفل خلال أحاديث الناس ورواياتهم ـ يعود مولولا مرتفعا فى الليل ..

لكن حدث ذات يوم أن اشترى شخص قطعة الارض .. ولم يكن صاحبها من اهل حارتنا ، فحطم مشروع الضريح .. وشاهدناه ذات يوم وهو يقبل مع أحد المهندسين ليعاين الارض وكان يبدو عليه انه من رجال الاعمال الذين لايملكون وقتا للضياع ، ورمى الحارة بنظرة من خلال نظارته ، ولم يجرؤ احد من أهلها أن يتحدث اليه .. ومضى يقيم عمارة ضخمة فى حارتنا الصغيرة المتواضعة .. ودخلت سيارات النقل تحمل الاسمنت والحديد والخشب .. وما لبث أن وفد ساكنون من نوع جديد وغريب اشاع القلق والاضطراب فى الانسجام الطيب الذى ظل يسود حارتنا زمنا طويلا . .

وليس هناك سبيل للمقاومة ، فلقد تقدمت بى الايام ، وكونت بعض الثروة ، وهأنذا انوى أن أزوج أبنى فى الايام القليلة المقبلة مقترحا عليه أن يستأجر مسكنا فى العمارة الضخمة المرتفعة التى تقوم حيث التقى المجنون « بالقديس » ..



سرقة بالطابق السادس

سطا لص - أو لصوص - فى صباح أحد الاحاد على غرفة سيد افندى عامر .. ومع ان اللص - الذى لم يقم ابدا بحث جدى عنه - ربما لم يكن شديدالرغبة فى هذه السرقة بالذات ، الا أن النتائج التى ترتبت على هذا العمل العارض قد أخرجت سيد افندى عامر بعض الشيء عن نظامه المتكرر المألوف واضافت الى طبيعته اثرا كان له فى حياته صداه ..

وقد اكتشف امر هذه السرقة حين عاد فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر من المدرسة الابتدائية التى يعمل بها .. فقد صعد - كعادته - درجات السلم التسعين ، ولمح السيدة الايطالية البدينة وهى أمام بابها بالطابق الخامس وقد صرفت لتوها بائعا يحمل قفصا فوق راسه، وكانت تهم باغلاق بابها عندما أوشك ان يحاذيها فى طريقه الى غرفته بالسطح أو بالطابق السادس كما شاء أن يسميه .. فمر بها صامتالانه ماحاول أن يحييها أو تحييه منذ جمعهما هذا المنزل .. فلما وصل أمام غرفته توقف قليلا ليجفف عرقه ، ثم أخذ يفتش جيوبه باحدى يديه، وكان دائما يبدأ بالجيب الايسر ، ثم يستخدم كلتا يديه ، ويفكر فى سرعة كأنما يبدأ بالجيب الايسر ، ثم يستخدم كلتا يديه ، ويفكر فى صلابة المفتاح ، تحايل عليه حتى يخرجه ويولجه فى الباب .. وقد اداره الآن مرة بل مرتين ، ثم دفع الباب فانفتح أمامه فى هدير خافت ، وكان سيد افندى يعرف غرفته معرفة جيدة رغم مابها من فوضى لهذا سرعان ماأحس حين دخوله أن هناك نقصا بها .. وقد تملكته فى أول الامر لحظة من الغباء كأنما نسى شيئا لايستطيع أن يتذكره ، وتوقف تفكيره ولم يستطع أن يقدم أى ايضاح ، لكنه أدرك الحقيقة التىحاول تأجيل ادراكها ، حين وجد أن الحلة الرمادية الجديدة والحذاء البنى القاتم قد اختفيا من مكانهما ، اما أدوات النحت والرسم فقد تركها اللص - كشأنها - مبعثرة .. فتمتم الرجل بضع كلمات كأنه يستعيذ بشيء من شيء ..

وكان ثمة امرأة فى حياة سيد افندى عامر قد احتلت الجانب الدينى منها .. فهو مايفتأ يستعيذها وما يفتأ يتمتم باسمها كمايتمتم المؤمن بصلاته .. وكان بينهما ما يشبه الحب فيما مضى ، فلما افترقا وتزوجت - وانجبت الآن أطفالا - أصيب سيد افندى عامر بما وصفه الناس بانه «هوس» فأصبح قليل المشاركة فى الحياة الاجتماعية ، كثير الشرود والرغبة فى النوم ، يصاحب صديقته وتصاحبه فى منامه وماكله وروحاته وغدواته وكأنما تحولت كل طاقات الشعور الدينىنحوها ،فهو يستلهمها فيما يعتزم عليه من امر ، ويستشيرها فيما يجد له من أمور، وقد كرس لها كل قوى التصوف فى روحه حتى ماعاد يحس انحياته اليوم الا طريقا دائما نحوها ، وجهدا دائبا للحصول المتجدد المستمر

عليها .. فلما اقبل ذات عام على زملائه المدرسين ليعمل بينهم كانت حياته الداخلية قد رسمت منهجها ولم تبد لهم الا آثار منها فى حركاته وتصرفاته .. فهو منصرف عنهم وهم منصرفون عنه .. يضمرون له مايشبه عدم الحب لانه مشغول بنفسه عن الانصات اليهم وتقـــدير شخصياتهم ومدح أعمالهم ، ويرضـــــون فى انفسهم مايشبه الثأر بما يتهامسونه من ملاحظات على طريقة لبسه الطربوش وهو يكاد يصـــل الى اذنيه كأنه احد باشوات القرن التاسع عشر ، وعلى نعاســـه الدائم فيما بين الدروس بل فى داخل الفصل نفسه امام تلاميذه ، وعلى طريقة مشيته التى تكاد تكون حركة آلية لا سيما وهو يرى قادما يهـز يديه الى جانبيه كأنه لعبة من لعب الاطفال الخشبية ..

وكان سيد افندى عامر فى اشد لحظات تعبه الآن ، فهو شــــديد الرغبة فى النوم ، يحلم بهذه العودة كلما خرج فى الصباح ، فلا يكاد يعود الى غرفته حتى يستلقى على السرير ببدلته وحذائه ثم يذهب فى اغفاءة عميقة لذيذة لا يفيق منها حتى بدء هبوط الليل .. لهذا شد ما استاء حين اخذ يتكشف له ماحدث بغرفته ، وساءه أن يختار اللص هـــذا اليوم بالذات ، لانه ماكان يريد لشىء أن يعكر عليه هذا الصفو الذى يحسه وهو مقبل على اتمام محاولته التى بدأها بالجبس منذ الامس .

وما كان لاحد ان يفطن الى أن هذا الحالم المستديم يمكنه أن يشغل نفسه بأمور الرسم والنحت .. ومع ذلك فلم يكن هذا شاذا ولا مستغربا ، فأنا أعرف مثلا تاجرا معنيا بامور الرسم بحيث اذا شاهدت لوحاته حسبتها مسروقة من متحف عالمى ، كما أعرف آخر ــ وهو موظف للبريد بأحدى القرى ــ مايكاد يفرغ من ساعات عمله حتى يفرغ لصنع تماثيل رائعة من الجبس .. ولهذا فليس من المستبعد ان يكون سيد افنـــدى عامر أحد هؤلاء الاشــــخاص الذين يلبى لهم الفن حاجات شــخصية وضرورية فهو يشعرهم بوجود حياة خاصة لهم الى جانب هـــذا العمل المتكرر اليومى العام الذى يؤجرون من أجله حياتهم للاخرين لقاء مرتب به يأكلون ويشربون وينسلون ، لا يستهدفون الشهرة ولا عطف الجماهير بل يكون الفن لديهم مجرد شعور بالقدرة على الاحاطة والتعبير والابداع .

ولقد طرق سيد افندى عامر هذا الطريق لانه اخذ يحس أن الأيام كلما اوغلت به كلما اخذت معبودته تضل أمام عينيه ، فهى تســـتحيل شيئا فشيئا ــ وفيما يشبه الذوبان الهادىء ــ الى مجرد شـــعور ضبابى ، حتى ليكاد يمازجها الكثير من طبيعة الفراغ .. ولم يستطع سيد افندى عامر أن يواجه هذا التيه الفسيح الحر المقبل نحوه ، بل أصر على أن يظل ملامسا لشىء متجمد محدود كأنما استيقظت فيه قـــوى

المشاعر الوثنية بعدما عبر هذا الطريق الصوفى الشاق .. فحاول ان يستعجل حصوله على معبودته فى خطوط والوان ثم فى الجبس المتجمد فيما بعد ..

وكان الآن فى حاجة الى ايضاح ، مجرد ايضاح سريع لما حدث ثم ينتهى كل شىء .. فعاد ينزل مهرولا حتى التقى بالسيدة الايطالية وهى تفتح الباب من جديد لامر ما .. فحدثها لاول مرة فى حياته متسائلا عما اذا كانت «المدام» قد رات احدا يدخل غرفته التى اختفت منها بعض الاشياء .. وصاحت السيدة فى انزعاج :

ـ خرامى ، خرامى ؟ هل اخبرت البواب ؟..

ثم اطلت من حاجز السلم ونادت بصوت رفيع زاده الانزعاج رفعا وهو يرن فى ارجاء المنزل :

ـ يا عبده ، يا عبده ..

واقبل عبده مهرولا وخرجت جلوريا ابنة السيدة الايطالية ـ وهى شابة ذات جمال رائع ـ تسأل عن مثار الضجة .. فلما علمت بالخبر التفتت فى شىء من الاشفاق نحو سيد افندى وهى تجامله متسائلة عما سرق اللص منه بلكنة أعجمية لذيذة .. ولم تكن قد حدثته من قبل ، مع انه كثيرا مايلتقى بها صاعدا درجات السلم أو هابطا عليها ، فيبدو أن حركة يديه الالية وطربوشه اللاصق بأذنيه ماكانا يشجعانها كثيرا على تحيته ، كما أن جسدها الابيض المصقول المتين البنيان كان كلما حف به أحس بشىء من الذلة ازاءه ، فيغض من بصره وتصبح حركته الالية اكثر انتظاما ، ويزداد على طربوشه ضغطا حتى يجاوزها .. اما الآن فقد اصبح موضوع اهتمام واشفاق مما قد يتيح له ان يحييها وتحييه مرات فيما بعد ..

وعلى صوت اللغط خرج ساكن الشقة المقابلة ، وهو رب أسرة ، ويبدو انه موظف كبير باحدى الشركات .. ولم تكن له اية صلة سابقة بسيد افندي عامر ، بل انه ماكان يخفى وجود ابتسامة تكاد تلوح على شفتيه كلما لمح سيد افندى عامر صاعدا او هابطا كالاوزة البلهاء .. وقد اقبل الآن مستفسرا عما حدث ، فلما سمع الخبر صاح متسائلا :

ـ وهل ابلغت الشرطة ياسيد افندى ؟

وأحس سيد افندى بألفة غير متوقعة حين ناداه هذا الموظف الخطير باسمه ، ولكنه احس بلون من الضيق حين جاء ذكر الشرطة ، فليس بينه وبين اللص كره حقيقى بل مجرد عتاب ، وليس فى نيته أن تبلغ المسألة هذا المدى ، بل انه ماكان يريد ان يثير هذه الضجة التى تحدث الآن ويتوسطها هو بالرغم منه ، لكنه وجد السيدة الايطالية تؤيد كلام

الموظف وترجوه ان يسرع فيكتب بلاغا الى البوليس ..

وكان سيد أفندى شديد الرغبة الآن للعودة بأسرع قواه الى غرفته لينام .. ولكنه ادرك انهم لايريدون المسالة أن تمر فى غير جلبة ..ولقد جاء رابع وخامس وسادس يعرف سيد أفندى وجوههم ولا يعرف أسماءهم أو اعمالهم ، وقد أصبحوا الآن جميعا فى خدمته : فأحدهم يحدثه عن ضرورة استعمال حقه القانونى ، ولا بد أن يكون هذا محاميا، والآخر يتحدث عن ضرورة الاقتصاص من اللص والا جرؤ على اقتحام المنزل مرة أخرى ، وربما يكون هذا أحد الذين يخافون على أموالهم وانفسهم ، وبيد سيد افندى الآن امر الدفاع عن أمثاله .. وقد اقبلوا نحوه يلاطفونه ، ويستأذنه احدهم أن يصعد الى غرفته ليعرف كيف دخلها اللص رغم اغلاقها ، ويسأله آخر ان يقدر له ثمن الاشياءالمسروقة، بينما تبرع ثالث أن يصحبه الى مركز الشرطة لابلاغ المختصين ٠٠ وقد حاول سيد افندى عبثا أن يحملهم على العدول عما يطالبون به ٠٠ فما لبث أن وجد نفسه فى الطريق الى مركز البوليس ٠٠

***

ولم يكن قد دخل من قبل مركزا للبوليس ، لهذا كان يجتر أثناء عودته ما رآه هناك .. فثمة شرطة وثمة قضبان ورجال ونساء ،والرجل المنحنى وهو ما ينفك يغمس قطعة من القماش القذر الممزق فى سطل قد امتلأ بماء اسود ثم يعود يمسح بها على الدرج الابيض ، ثم الرفرف المزدحمة ببنادق لا تكاد تنتصب الا لتنحنى ٠٠ وألوان من المفاتيح المدلاة كأنها مشانق صغيرة يمكن أن يلهو بها الاطفال فى عيدما ،

وصفوف من السلاسل والقيود المعتمة البيضاء حتى لكأنما هناك صليل خافت يملأ المكان ، ثم تثاؤب طويل طويل ..

فلما وصل الى المنزل وجد البواب امامه كأنما يقفز من العدم وهو يسأله عن مدى الخسائر ، فأجابه سيد افندى فى اقتضاب وفى شيء من الزهو :

ـ قدرناها بسبعين جنيها .. والحمد لله على كل حال ..

فصاح البواب منفعلا :

ـ ـ سيقبض البوليس بلا شك على هذا اللص ابن ..

ثم تساقطت لعنتان سمع سيد أفندى أصداءهما وهو يعلو السلم، فلما بلغ الطابق الثالث لمح ساكنا يهبط فانحرف ليفسح له مكانا ، لكنه مالبث أن رأى الساكن يعترضه ليستوقفه متسائلا :

ـ هل قبض البوليس على اللص ياسيد أفندى ؟

وعجب سيد افندي من معرفة الرجل به وبقصته وبالمهمة التي كان يقوم بها الآن ، فاجابه في شيء من الخجل والتواضع :

ـ ارجو ان يقبض عليه ..

فاجابه الساكن متحمسا :

ـ بل سيجد المسروقات كذلك حتما ..

ـ انى اشكرك على شعورك يا استاذ ..

ثم مضى صاعدا ، حتى اذا ما بلغ الطابق الخامس لمح السيدة الايطالية البدينة بانتظاره ، وما أن لمحته حتى ابتدرته متسائلة عما فعل فلما اجابها وهم يستأنف صعوده سمعها تناديه :

ـ يا سيد افنــدى ..

ـ نعم يا مدام ..

ـ اظنك فى حاجة الى بعض الملابس مؤقتا .. وهاك بعض الملابس الخاصة بزوجى يمكنك استعمالها فهو يمكن أن يكون فى غنى عنها لبضعة أيام ..

ثم لوحت له بمجموعة الملابس فى يديها .. فاللص قــد أخذ كل ملابسه الداخلية والخارجية ولم يترك له سوى تلك التى يرتديها .. وقد رفض فى أول الامر ما عرضته السيدة عليه لكنه ما كان يعرف فى الواقع كيف يمكن أن يستمر حتى نهاية الشهر على الاقل بدون ملابسه ، فهو ما يزال فى اليوم العاشر منه وقد أنفق كل مرتبـــه ولا يعيش من الآن الا بالدين ، فهو يأكل ويشرب ويتحرك « على الحساب » وان اســـتطاع أن يعيش فى ملابسه هذه اسبوعا أو أسبوعين للضرورة فمن العســـير عليه أن يستمر بها حتى نهاية الشهر ... ورأى السيدة تصر عـــلى عرضها ، فهى لا تجـــد منه مانعا حقيقيا سوى الخجل ، فقبـل أخيرا أن يأخذ منها بعض الملابس ثم يشكرها وينصرف صاعدا الى غرفتـــه ، وقد تملكه احساس حائر ما بين شعور بالزهو وشعور بالاستشـــهاد وشعور بالجميل وشعور بالارتباط باشخاص كرماء أسخياء ... لكنـه يود لو يظل بمنأى عنهم ، فكل عـلاقة انسانية ترهقـه ، ويكفيه ما لقى من علاقته الاولى فى فجر شبابه وهى ما تزال تغذيه بمشاعر العبـــادة والخوف والقداسة والخطيئة ، فما دخل غرفتـــــه حتى استلقى على الفراش ومضى يرخى جفنيه ويغمض عينيه حيث تطمس له الظلمـــة ما حدث وما عساه يحدث ...

وكان هبوط الليل يملؤه كآبة ، ويشيع في نفســـــه ألوانا من الاحاسيس المرتجفة الاسيانة ، فكان كلما استيقظ عنــد هبــوط الليل هرب من نفسه ومضى يبحث عن وسيلة بها يقتل ســاعات الليل البطيء الطويل المل ، وكان أخشى ما يخشاه هو ان يعود مبكرا بعض الشيء ذات ليـــله فيأرق ويجد نفسه امام نفسه زمنــا لا يعرف متى ينتهي ، حيث تنبعث أمامه الرؤى والاساطــير والعــالم المــزدحم بالعمالقة والنساء وبماضيه المتعرج الكئيب .. ولربما كان لهــوايته بالرسم او النحت أن تستبقيه بغرفته ، الا انه كان يفضل أن يتفــرغ لها في صباح عطلته الاســبوعية طالما هو لا يحس دافعـــا ملحا أي الانصراف اليها ..

وفيما عدا ذلك لم يكن يعرف وسيلة واحدة مجـــدية من بين الوسائل الكثيرة التي اصطنعتها حضارتنا لقتل الفراغ ، لم يكن يعرف النساء .. لا مضاجعتهن ولا حبهن ، بل كان يخشاهن ويخشى المجتمع المزدحم بعطرهن وعيونهن .. ولم يكن يعرف طريقة الى احدى هــذه الوسائل المنتشرة والتي كان يمكنه ان يتعاطاها فيعيش ذاهلا عن نفســه نصف حياته بل حياته كلها اذا شاء ..

كان في المقهى خلاصه المؤقت ، تتجدد حاجته اليه بتجدد اليوم ، وما يحمله اليوم من كآبة جديدة تظل تثقل عليه شيئا فشيئا ، فــاذا هبط الليل تبلورت هذه الكآبة في روحه وغمرت نفسه ، فتفرزه غرفته الى ذلك المكان الصاخب المزدحم ، وينتحي فيه جانبا مكتفيا بمشاهدة الاخرين وهو يحتسي قهوته ويفكر في خليط رائع فظيع ..

وكان المقهى الذي تعود أن يجلس فيه سيد أفندي عامر ، مقهى شديد الاستطالة شديد الانخفاض كانه كابوس ، والناس يجلســـون فيه ومن حوله مبعثرين في ارتخاء كأنهم بقايا جذور لشجرة هائلــة مقطوعة .. وكانت أضواء المقهى قليلة مبعثرة صفراء تكاد تميــل الى الاظلام لولا أضواء الاعلانات وهي تعكس وهجا قلقا متلونا متقطعـــا يفيض على المكان لونا من الذهول المرهق المستطيل ، وقد التصق الناس بمقاعدهم والتمعت وجوههم وتركوا اقدامهم امامهم مدلاة كانهم ملــل متكاثف أسود ، أو كأنهم ذباب اليف قد اطمأن الى قضاء ليلة في هــذا المـــكان ..

وقد اقترب سيد أفندي عامر فوجد الخدم كعـــادتهم يتنقلون ويزعقون وينحنون ويبتسمون والقـــوم يتثاءبون ويتهامسون ويلعبــون ويصفقون ويقهقهون وينصرفون ويقبلون ، وهو يبحث عجلا عن أقــرب المقاعد اليه كأنما يخشى أن يفقد نفسه وسط هذه الزحمة ، حتى اطمأن

الى منضدة رخامية بيضاء تكاد تنحنى عليها من كل جانب تلك المرايا التي ازدحمت بها جدران المقهى فضاعفت من عدد الناس ، وهى تفتح امامهم ـ وخلف الجدران الجامدة ـ سراديب وهمية لا نهائية ، وقد لمح وجهه متكررا مرتين ثم ثلاث مرات ، فوجده أصفر شديد الامتقاع ، تكاد تغور فيه عيناه وتبرز منه وجنتاه كأنهما على وشك ان تغادراه ، فما لبث أن حوله عن هذه العيون الزجاجية الميتة ، والتجأ الى رخام المنضدة الابيض المصقول .. واحس بظهره أن هنالك منضدة خلفه قد انحنى فوقها رجل وامرأة فكونا ما يشبه القوس المتعرج .. وأن ثمة صوتا لا يستحيه ولكنه يعرفه ، فالتفت قليلا الى الوراء بنصف وجهه وجسده ثم تحاشى أن يحدق فى الرجل تأدبا لوجود المرأة معه ، وكان صوتها واضحا ليس فيه كثير من الحذر رغم طبيعة الحوار القائمة بينهما ، ثم قهقهت المرأة قهقهة رفيعة متصلة ، وحملت لفائف امامها وغادرت المقهى ..

وتثاءب الرجل فسرت العدوى الى سيد افندى وتثاءب هو الآخر ، وكان هذا سببا كافيا لأن يتنبه أحدهما الى وجود الآخر ، فما لبث ان ناداه الرجل ، وفى الحال عرفه سيد افندى فالتفت اليه فاذا هو زميل له بالتدريس كثيرا ما يتشدق بمغامراته واطلاعه ، يتجنبه سيد افندى لانه يحس بأن هذا الرجل يضمر له لونا من الاحتقار لسبب لا يعرفه وان كان لا يذكر حادثة بها يؤيد احساسه .. ورآه سيد افندى وهو يستأذنه فى الجلوس الى منضدته وينادى الخادم ويبتسم ويطلب قهوة له .. وأدهشه الا يجد شيئا من السخرية على وجه زميله بل رغبة حقيقية للحفاوة والاكرام ، ثم وجده ينحنى عليه قليلا وتتخذ عضلات وجهه لونا من الجد ، وهو يهمس فى اذنه قائلا :

ـ سمعت أنك سرقت ..

فلما بلغ الليل ساعة متأخرة كان قد تجمع حول منضدته نفر غير قليل ، بعضهم ممن يعرفهم من قبل معرفة عابرة ، وبعضهم ممن لا يعرفهم أبدا .. وقد بالغوا جميعا فى اكرامه كأنما يحتفلون بزواجه أو عيد ميلاده ، وهذا يعرض عليه ان يقرضه شيئا من النقود ، وذاك يقدم له سيجارة وهو لا يدخن السجائر ، والقوا عليه كثيرا من الاسئلة ، واقترحوا شتى المساعدات ، وكان أحدهم ما يفتأ يسأله بين الحين والحين

ـ لكن أخبرني يا سيد افندى كيف دخل اللص غرفتك ؟

ـ وهل أعرف !!

ـ لكنك متأكد ان الباب كان مغلقا حين عودتك ؟

ـ بشكل تأكيد ..

ـ اذن كيف دخل !

ـ قلت لك وهل اعرف !

ثم يبرز شخص آخر كأنما تنبه فجأة الى ما غفل عنه الجميع :

ـ والنافذة ، هل كانت مغلقة ؟

ـ لا توجد نافذة بالغرفة ، بل مجرد كوة حديدية فى اعلاها

ـ آه ..

فيقفز ثالث قائلا :

ـ وماذا قال البواب ؟

ـ قال انه لم ير وجها غير مألوف يدخل المنزل ..

ـ وماذا قالت السيدة الايطالية ؟

وهنا يتقدم زميل آخر ليريح سيد افندى من عناء الاجابة وهو يقول :

ـ قال لك انها أمضت الصباح مع جاراتها على السطح امام غرفته كعادتها صباح كل احد ..

ـ ولم تر أحدا يحاول دخول غرفته ؟

ـ بالطبع لم تر احدا ..

وهل لم يترك اثرا يدل عليه ؟

وهنا صمت الزميل المتطوع واتجهت العيون نحو سيد افندى من جديد وهو يقول :

ـ ماذا ؟ كلا ، لم ابحث الامر ..

ـ ولم تخبر الشرطة بان الغرفة كانت مغلقة ؟

ـ لم ار فى ذلك ما يغير الاوضاع ..

ـ ولم يذهب احد من رجال البوليس ليعاين المكان ؟

ـ كلا ، لم يأت احد معى ..

ـ ولمــــاذا ؟

وسأل أحد الذين لم يتكلموا بعد :

ـ ولا تخشى ان يذهب اللص الآن ليسرقك من جديد ؟

ـ الا اذا أراد أن يحمل السرير والمنضدة ..

وسرت ضحكة خافتة بين المجتمعين وهم يدخنون .. وأحس سيد افندى أنه يختنق وان وهج الاعلانات المتقطع يقلقه ، وقد تعـــــرف الى اشخاص اكثر مما ينبغى ، وتورط معهم فى علاقة يخشى الا يستطيع ان يحفظ عليها امتدادها .. وقد وضعوه موضع اهتمام قد لا يتـــاح له فى غير هذه الليلة .. وتثاءب الجالس عن يساره وتثاءب سيد افنـدى وتثاءب ثالث فرابع فخامس ، فلما تطلع الى المرايا التى تـــكاد تمس السقف المنخفض وجد أن الافواه الباقية بالمقهى تتثاءب جميعها وهى ترتفع بأصحابها عن مقاعدهم ..

***

وعند ما كاد يبلغ غرفته ، سمع أمام بابه حركة مفاجئة ، ثم سمع صوت جلوريا وهى تضحك فى شبه انزعاج قائلة :

ـ أرعبتنى ..

فأجابهـــا فى دهشــــه :

ـ هل انت جلوريا ؟

فأجابته ضــــاحكة :

ـ بل أنا اللص !!

وعجب من وجودها امام باب غرفته ، وتساءل عما اذا كانت تودع عشيقا كان معها فوق السطح أم انها تستنشق هواء الليل البارد .. وضغط على طربوشه ، ثم مضى يفتح الباب وهو يسمعها تقول :

ـ لقد ارسلتنى أمى لانها تظن أنها نسيت خطابا بجيب البيجـــاما التى أعطتها ظهر اليوم لك ..

فاجابها فى ارتياب واشفاق :

ـ اذن تفضــــــلى ..

ودخل أمامها ودخلت وراءه .. وخلع طربوشه ومسح على جبهته ، لم أحضر كومة الملابس ـ فلم يستخدم شيئا منها بعد ـ ومضى يرقبها وهى تبحث بعينيها وأناملها .

وكانت جلوريا ترتدي قميصا شفافا طويلا ، وتنبعث من جسدها العملاقي رائحة عطرة مثيرة ، وشعرها ينسـدل على وجهها ، ويكاد ثدياها يبرزان وهي واقفة في انحناءة تبحث .. ولمح عجزها المستدير الطري ، وعرف انه يثور ، فأسرع يقدم اليها المقعد الوحيد بالغرفـة يطلب منهـا الجلوس حتى تستريح وهـو يأمل أن يكون منظـرها الآن أقل اثارة .. ويبدو أنها أدركت ما أثارت فيه من مشاعر وفكرت لحظة أن تعبث به فتتركه يتعذب بضع لحظات ثم تغادره ، لولا أن بررت لها طبيعتها أنها ستقوم بعمل نبيل حين تحاول اخراج هذا الرجل عن طبيعته المتخشبة ، ومع ذلك فقد كانت تتزود دفاعا عن نفسـها بشحنة هائلة من مشاعر السخرية القاتلة وهي تنظر نحوه فجأة كأنما تدعوه للبحث معهـا وتقـول :

لماذا لا تقترب ؟

وتركته يلامسها كأنما عفوا ، وكان تردده الشديد يملؤها احتقـارا له ، لكنها صممت ألا تنسحب ، فقد بيتت في نفسها أمرا ..

كان مترددا يخاف المغامرة ، يريد أن يستوثق من كل حـركة ـ بل من كل رغبة ـ قبل أن يقدم عليها ، كان يخشى أن ترده ، وكان على استعداد للتراجع عند أول بادرة بنفورها مما يفعل ، وكان يبـرر ذلك بما يعتقده من اضطرارها الى سلوك سبيل لا ترضاه لكنها لا تقوى على مقاومته ، وكان هذا الاحساس بالجريمة يعذبه ويشقيه ، ويتمنى في كل لحظة لو امـكنه التراجع ، و لم تستعر هـذه الرغبه الملحاحـة الدؤوب التي تجعله يتأمـل الآن عن قرب شـديد عينيها وشـفتيها المبتسمين في استكانه واستسلام .. وانحنى عـلى جسـدها قليـلا ، وأحس طراوة اللحم ونعومة الجسد النسائي ودفئـه وتماسـكه ومقاومته ، وأدرك أنه يلج الآن منطقة جديدة في المعرفة الحية ، ولكنـه يلجها في استحياء وتردد وخجل ، رغم ما يحمله هـذا العالم الجـديد من أسرار وخفـايا وشهوات تدعوه وتغـريه منذ استيقظ الاله والحيوان في جسده الانساني .. ومع ذلك فقد كان يود لو ينتصر .. كان يشعر انه في حاجة الى أن يزيح عن نفسه طبقات متراكمة ، وأن يجلو هـذا الصـدأ الكثيف ..

ومد أنامله اليسرى نحو ذراعها العارية اليمنى ، في بطء كأنمـا يتلمس طريقه وسط ظلمة ، أو كأنه طفل يحبو مشفقا أن يكبو ، والعرق يتصبب غزيرا منه ، وقلبه يخفق خفقانا متقطعا يكاد يشله عن كل حركة ، فقد عاش التجربة المشتهاة كلها بذهنه وجسده قبل أن يقدم عليهـا ، وأخافه ان رآها ترتعش قليلا وصدرها يرتفع وينخفض في سرعـة ملحوظة ، فتراجع فجأة وهو يسألها سؤالا غريبا ما توقعته أبدا :

ـ هل أنت متعبة ؟

وضحكت ضحكة مرتفعة خشي معها افتضاح أمره ، فأجابتـــــه في تهـــــكم :

ـ تقصد أنك أنت المتعب !!

ولاحظت انه بدأ يفطن الى ما ارتكبه من خطأ ، وأنه يســــتجمع قواه من جديد ، حاسبا انه يستطيع ان يبدأ من حيث انتهى ، لكنها قررت الا يلمسها من جديد والاتعرض له جسدها مرة أخرى .. وأحســـت بسيطرتها عليه ، وانتابتها نشوة هائلة بهذا الاحســـاس ، وادركت بحدسها وخبرتها ان هذه هي أول تجربة له من نوعها ويكفيه أن يعرف معها هذه المرحلة منها .

وكان في عينيه رجاء ، وود لو تقتنع بأن تهبه فرصة من جديد ، لكنه لمح في عينيها السخرية والتهكم ، فحز ذلك في نفسه ، وأدرك أنهــا اصبحت بعيدة المنال ، وانه قزم متضائل أمام جســدها العمــلاقي الشهواني ..

وراعه ان تجلس امامه مطمئنة ، كأنما لن يجرؤ على ان يقربها من جديد ، فتقدم نحوها ، وأدرك انها أدركت ، فقد وقفت وأمســكت تعبث بالتمثال الجبسي المشوه كأنما لتدافع به عن نفسها ، وتملكتــه فجاة رغبة شيطانية .. أن يضربها ، أن يضرب هــذا الجسد الفوق الطرى في عنف ولذة ، وكان واثقا لسبب خفي ـ انها ســتلين اذ ذاك ، ستستعذب ضرباته وتستلقي أمامه هذه المرة .. لكنه لم يتقدم ، كأنمــا هنالك شيء فظيع يعطله ويحجب عنه هذه المنحنيات الانســانية المزدحمة .. كان يريد ان ينتصر ، لكنه كان يخشى أن ينهزم ، وما لبث أن رآها تمرق من الباب وعلى شفتيها ابتسامة وهي تقول :

ـ لم أجــد الخطــاب ..

واحس ضيقا عظيما وتلفت حوله باحثا عن وسيلة للخلاص .

***

وكانت المعركة القائمة بينه وبين الجبس قد بلغت الآن لحظتهــا الحاسمة .. وكان من قبل قد طرق محاولته في الرسم ، فقد كانت له به هواية ترجع الى سن مراهقته . الا انه طلقه منذ أمدبعيد ، ولم تعد له به الا صلة باهتــة من الذكرى ، ولم يمض بتجربته اذ ذاك الى نتـائج ذات شأن ، فلم تتعد بضع محاولات لتصوير مناظر للطبيعة منقولة عن

رسوم أخرى ، الا أنها أمدته ببعض المعرفة بطريقة تناول الفرشـــاة ومزج الالوان وصعوبات العمل .. ولذلك كان الرسم هو أول ما لجأ اليه الآن ، ولم يكن قد حاول رسم أوجه الانســانى ، ومـع ذلك فقـد أقبل على محاولته وهو يظنها يسيرة سهلة ، لكنها ما لبثت أن تكشفت له عن عقبات كان لابد لهمن التغلب عليها أولا ..

وقد بدأ أولا برسم الوجه ، فلما وجد أن سبيل اليه الان أرجاه الى ما بعد ، وكان يريد أن يرسم صورة نصفية ، فمضى يرسم الصـدر والكتفين ثم ترك فراغا كبيرا رسم حوله قوسا مستطيلا أخذ يســدل الشعر حوله ، فلما اطمأن أخيرا الى هـذا الاطار العـام أحس أنه لا يمت اليه بصلة وانه لم يخط حتى الآن فى محاولته الجديدة للتعبير ، فمضى يرسم الانف وهو يغامر والشفتين وهو يغامر ، ثم يحصل على ارهاصات وجه لا ينتمي على الاطلاق لمشاعره ولا حتى لفكرة مزعجة فى خياله .. وكأنما لا صلة بين ما يرسم وذلك الـكائن الحى فى داخـــله .. وبلمسة من فرشاته يعيد الفراغ الى بياضه ، فهاهنا على الاقل أمل جــــديد وليس ثمة مواجهة لفشل متحقق ، ثم يعيـد محاولته المرة بعـد المرة . وقد غير لوحة بعد الاخرى وهو لا يمل محاولته حتى استطاع أن يحصل أخيرا على شيء من الانتصار ، فحصل على وجه له ملامح تقارب ملامحها وقد يئس من الوصول الى كمـال ما . وظن أنه يســتطيع أن يســتريح الآن ، حين وجد أن رسما فوق لوحة لا يحقق حاجته الوثنيـــــة المستيقظة ..

ذلك أن الصورة فوق اللوحـة لم تقرب اليه كثيرا من ذلك الوجود المجرد ، وكان هو يريد واقعا له ابعاد ثلاثة مثلما للجسد .. وهـــكذا اتجه تفكيره نحو الجبس بحثـا عن الصنم .. وكانت مهمتـه هذه أشق يتجه نحوها وهو يدرك صعوبات العمل .. واستفاد من خبراته السابقة فى الرسم ، فبدأ أول ما بدأ يصنع الكتفين والرأس تاركا ملامح الوجه حتى يفرغ فى النهاية لها . وقد استطاع أن يصل أخيرا الى صـــــنع هذه الاجزاء الاولية من تمثاله ، وكان الآن حريصا ألا يهشـمه ، ولـكنه كان يخشى أن يواجه فشله ، فظل يمعن اتقانا فى ثنيات الثوب الوهمى ، وفى نعومة الصدر الأملس وفى اضـافة شيء من التعاريج الى الضفيرتين المسدلتين وثمة فراغ سديمى أمامه يزعجه أن تضل فيه يداه .. ولكنه كان حريصا أن يصنع التمثال بيديه كأنما تجربتـه الوثنيـــة لا تزال تشوبها هنا تجربته الصوفية الاولى حيث يكون عمل التمثال طقســـا من طقـــوس عبـــادته ..

لم يكن سيد أفندى يريد مجرد التعبير بل كان يريد التعبير المقدس، وكان هذا هو ما يزيد مهمته صعوبة ويجعله يحس أنه ازاء محاولة أبعد

كثيرا من قدراته .. وقد اخذ الآن يغامر ليخلق المعنى من المجهول ..

والواقع انه لم يكن يحس بمعنى الخلق ، بل كان يشعر أنه يزيح طبقات جيولوجية متراكمة عن وجه متألم رائع قد طمسته قـــرون واحداث ، وانه الآن في سبيله الى هذا الوجه .. وكان قد أتم بالامس صقل الانف وابراز الشـفتين وأوشـك على خلق النور للعينـين ، وكان معنى ذلك انه أوشك أن يشرف على حصول لكنه كان يحس الآن بقلقلة في روحه بسبب ما جـد عليه من أحـداث ما توقعهـا ، تتسلل الواحدة وراء الاخرى كأنها قطيع يتخبط في وحل ، واخذ يستعيد كلمـــات زميله بالمقهى الذى استطاع أن يصل معه الى حديث ذى ألفة ما توقعها ، فقد قال له ان حيـــاته حرص متصل عـــلى فراغ ، فيظل يسيج ويغلق ولا شيء سوى الفراغ ،ووصفه بأنه ذو طبيعة متخشبة ود لو يخـــرج عنهـــــا ..

كان كثير الحرص ، في حركاته وفي علاقاته بالناس ، وحتى محاولاته هنا ــ رغم ما يظاهرها من طابع المغامرة والجهد ــ كانجوهرها الحرص .. وكان الحرص يدعوه دائما الى النوم والانكماش ، لهذا سرعان ما أخذ يراوده النوم وهو لما يعمل يديه في التمثال ، وكان كثير الشك في سلامة الانف وسلامة الشفتين ويخشى أن يكون ظهور العينين محققا لهـــذا الشك .. كان يحس أن هناك شيئا حقيقيا وجوهريا يعطل حيـــاته لكنه لا يدركه ، وكأنما يستعيد الآن في تجربته الحجرية تجـــربة حياته العاطفية التى لم يحصل منهـــا الا على مايشبه حصوله هنا علىثنيات الثوب الوهمى ونعومة الصدر وتكور الراس .. لم يحصـــل عليها هو بالذات ، بل حصل على مجرد الاطار العام في حياته للمرأة ، وفيمـــا عدا ذلكفثمة فراغ سديمى قد ضل عنه وســط صـــخب الارادات الانسانية المتضـــاربة ..

وهكذا أحس بنفور من تمثاله وحياته ، واطفأ النور ، ومضى نحو الفراش وأخـــذ يرخى جفنيه وهو يتفحص العيون التى ازدحمت عليـــه اليوم ، والارجل التى وطئت غرفته ، والذين حدثوه ، والذين جاملوه ، يبحث بينهم عمن يكون اللص وهو يحس بزلزلة هائلة في كل حياته ..

***

وكانت المدرسة التى يعمل بها سيدافندى عامر تتكون من طابقين، احدهما فوق الأرض والآخر منخفض عنها ــ أو على وجه أصـــح ــ ينخفض مترا ويعلو مترا ، وكان أكثر عمله يتعلق بهذا الطـابق الاخير ، ففي كل صباح ينحدر اليه ، ويواجه حشدا من التلاميذ الصــــغار

يجلسون فى حجرات هى أشبه ما تكون بالدهاليز ، ولا يسكون لدخوله كبير أثر سوى انهم يتصنعون الوقوف فتزداد فوضاهم ، وهم يتشاجرون ويغنون ويفتحون الادراج ويقفلونها فيضرب بيده على منضدته ويصمت التلاميذ لحظة ، لكنهم ما يستطيعون الاستقرار الطويل ، فما تلبث الحركة أن تدب بينهم من جديد .. وكان هذا يزعجه ويعطل عليه درسه ، كما كان يحرمه النعاس كلما راوده وود لو ينعم بلحظة منه اثناء الدرس ..

وكان أكثر التلاميذ صغارا لا تزيد أعمارهم عن الثانية عشرة قذرين يعلو الاصفرار الدائم وجوههم ، يقبلون من ازقة الحى وقد لوثهم الوحل ولطخت بقع الحبر ثيابهم ، وقلما كانوا يحضرون أدواتهم كاملة ، وما ينفكون يضربون بعضهم بعضا ثم يأتون اليه شاكين باكين ، فيستمع الى شكواهم ويوازن بين حججهم ، وبقية التلاميذ يضجون ويضجون ، ثم لا يستطيع أن يحدد المذنب . فما يلتفت الى السبورة حتى تنهال عليه قطع الطباشير ..

وقد اقبل هذا الصباح الى عمله ، فاستقبله المدرسون مستفسرين يستيقنون مما بلغهم من أخبار ويستزيدون ويظهرون مشاركتهم بشتى الطرق والتعبيرات ..

ثم انحدر نحو الطابق المنخفض ودلف الى حجرة الدراسة وضرب على المنضدة بيده ، وفجأة سمع طرقا على الباب ، وصمت التلاميذ فجأة فما كان يخيفهم شيء مثلما تخيفهم عصا الناظر .. ولكن فرجة الباب ما لبثت ان كشفت عن وجه أحد السعاة وهو يعلن سيد افندى بأن حضرة الناظر يريد مقابلته ، وفجأة ضج الفصل بالهتاف واندفعوا يستأنفون ما كانوا فيه من عراك وتصايح ، وسيد افندى منطلق الى غرفة الناظر بالطابق العلوى .

ولم تكن لسيد افندى صلة كبيرة بالناظر مثلما لم تكن له بأى زميل من زملائه .. لهذا تحير فيما عساه يريد اليوم منه . وما كان يدعى الى غرفة الناظر الا لمقابلةأحد المفتشين ، وهى مقابلة تشيع فيه الضيق، ولكنه لا يتوقعها اليوم .. فازداد ضغطا على طربوشه كأنما ليعدل من منظره أو يرفع منأهميته ، أو كأنما هو ممثل أوشك أن يواجه النظارة .. فلما صعد الى غرفة الناظر طرق الباب .. ثم دخل بأدب وحياء .. ووجد على وجه الرجل بشاشة وترحيبا ما عهدهما .. فلما أذن له بالجلوس مضى يجاذبه حديثا وديا عن عمله ، ويعتب عليه أنه لا يكاد يراه .. وقد سرسيد افندى من رقة الناظر ودماثته ، ولو أنه دهش من اختيار هذا الوقت لتبادل التحيات والمجاملات حين سمعه يقول :

ـ انك تستطيع يا سيـــد افندى أن تترك العمل فقـــد كلفت به زملاءك ..

ـ ولكن هل من ســـــبب ؟

ـ لقد بلغنى من زملائك أنك سرقت ..

ـ آه ..

ـ ولا شك أنك تحتاج الى بعض الوقت للبحث عن ملابسك

ـ لقد أبلغت البوليس ..

ـ ان رجال الشرطة لا يقومون بجهد خاص فى مثـل هـــــذه السرقات بل هم يعتمدون عـــلى الصدفة العارضة أثناء العمـل العـــام الذى يقومون به ..

ـ وماذا عسانى افعل اذن ؟

ـ ستذهب الى دكاكـــين الرهن ، فهناك يلجـــأ اللصوص للتخلص من هـــذه السرقات ..

ـ وكيف السبيل الى هذه الدكاكين ؟

ـ سيكون فى خدمتك أحد السعاه .

وما هى الا دقائق حتى كان سيد افندى عامر يخـــرج من باب المدرسة وهو يحس بلون من الغبطة لما أبداه رئيسه من عطف عليـــه واهتمام بأمره ، ومن خلفه كان يسير أحد السعاه ..

ومضى سيد افندى يصحبه الساعى الى حى الـرهون ، وهـــو حى لا يذكر أنه سمع بوجوده من قبل وكان الآن مجرد مقصد مجهول ، لكن له به صلة وثيقـــة ، فهناك ، فى زاوية أحـــد الدكاكين التى لم تقع عليها عيناه أبدا ، قد يرقد فى انتظاره حذاؤه أو حلته أو قطعـــة من ملابسه الداخلية التى كانت تلتصق بلحمه هو ..

ووجد نفسه يسير مع الساعى فى حى عليه مسحة من الغـــرابة فالمنازل ما تنفك تزداد ارتفاعا ، والطرقات ما تنفك تزداد ضيقا كأنهـــا اخاديد حفرتها أظافر مجنون ، وقد رصفت ارضها بقطع من البلاط فى غير استواء ، وارتفع الى انفه خليط ما بين رائحة كريهة واخـــرى لطعام شهى وثالثة لبخور ، ومجموعة أخرى من الروائح لا يكاد يميـــز بينها .. وكان يسير صامتا أكثر الوقت ، لكن احساسه بوجود أحـــد السعاة فى خدمته كان امرا لا شك فيه .. ثم ما لبث أن دلفا الى ميدان

فالى طريق اكثر انفساحا واكثر حرية ، ثم اشار الساعى الى دكان قريب عرجا عليه .. وكان واضحا أن الطريق كلها تزدحم بعـــدد كثير من الدكاكين المتجاورة المتشابهة كأنما اتفق على أن تختار الدكان الــذى تقصده قبل مجيئك الى هذا المكان .

وامام كل دكان كان ثمة حاجز رخامى أبيض مصقول ،ووراءه تماما يهودى ذو ذقن طويلة قذرة ، وقد ازدحمت الجدران وراءه برفـوف مقسمـــة الى شتى الأحجام من أســفل الارض حتى أعــلاها واكتظت الرفوف بشتى الاشياء والمتناقضات كأنها تلخيص لمعرض أقامه هـواة عابثون ، وقد علق بكل رهن رقم صغير هو الصلة بينه وبين صاحبه .. فهنا ساعة ذهبية لا بد أن تكون لاحد الباشوات المعربدين ، وهنـــا مجموعة من الكتب القديمة الصفراء لا بدأن تكون لطالب أزهرى متقاعد، وهناك كفتا ميزان لعلهما لتاجر أفلس ، وهنا ــ أمامه تماما ــ عينـــا اليهودى ولحيته الطويلة ذات الرائحة الفريدة وهو يسأله من خــلف عويناته عما يريده .. وامتـــلأ سيد افندى بشىء من ذلك الزهـو الذى عرض لمشاعره منذ الامس ، فهو لم يقبل هنا ليرهن شيئا من أعــوازه بسبب عوز أشد ، بل هوأقبل يسأل عن حق له ، مجرد سرقة يحتمـل أن يكون اللص قد حملها الىهذا المكان للتخلص المؤقت أو الدائم منها .. ومضى يصف له الاشياء المسروقة ، والرجل يتظاهر بالاصغاء ثم يقاطعـه بلكنة اعجمية شارحا له أن اللصوص لا يبيعون سرقاتهم فى مثل هــذا الحى لانهم أدرى الناس بانتشار البوليس هنا ، بل هم يذهبون بهـــا الى الريف حيث لا يمكنك أن تتبع شيئا ولا أن تسترد شيئا ..

ولقد واصل سيد أفندى عامر جولتــه فى الحى وهو يتلقى نفس الاجابة من كل يهودى ، وكان يتفرس فى رواد الحى عسى أن يلمح أحدا يرتدى قطعة من ملابسه أو يحمل شيئا مما يخصه ، لكنه ما كان يرى غير نسوة أتين ليرهن بعض متـاعهن ما بين طست أو أبريق أو مجموعـة من الاثواب المتاكلة ، ثم طلبة وخدم وفنانون وفتيات ومراهقات ..

فلما خرج من الحى وصرف الساعى ، مضى يتتبع مرة ثم اخرى شخصين خيل اليه انهما يرتديان ما يشبه قميصا أو حذاء له . وقــد فقد أحدهما فى شارع مزدحم ، أما الآخر ، فقــد قام سيد عامر بأجرأ عمل قام به فى حياته كلها ، فقد اقترب منه وحياه وهو يعبر الطريق الى الجانب الآخر ، وقـــد رد الرجل تحية سـيد افنـدى وهو ماض فى طريقه ، لكن هذه اللحظة كانت كافية لان يتبين زيف اتهامه للــــرجل فتركه يغيب عن بصره .. لا سيما وقد اقبلت الظهـيرة واشـــــتد القيـــظ ..

وقصد الى غرفته ، وحاول عبثا أن ينام ، فعاد وقام وغادر غرفته على غير عادته في مثل هذه الساعة من النهار .. والتقى على السلم بالسيدة الايطالية وابنتها فابتسم لهما ، ثم قابل الموظف الخطير ومعه احد الساكنين يصعدان فحياهما ، فلما بلغ البواب رد عليه تحيته ..

ومضى سيد افندى عامر يجول الطرق فى مثل هذا الوقت من النهار، يفحص بعينيه الملابس والاحذية ، ويرتاب فيمن يحملون لفائف من الورق او القماش ، فقد ارتبط بالمدينة كلها وأصبح كل شخص فجأة ذا أهمية له ! وأخذ يتفرس فى الذاهبين والمقبلين ، والجالسين على الارض وفى المقاهى ، والمطلين من شرفات منازلهم ، حتى لكأنما له شيء فى كل منزل وفى كل نافذة منزل ..


زيطة .. صانع العاهات

مهداة الى الاستاذ نجيب محفوظ
صاحب زقاق المدق

صنع يصنع فهو صانع ، وصنع المصنع السيارات ، وصنعت المصانع القنابل ، فهى صناعة ، وهى مصنوعة ، وعم كامل يصنع البسبوسة ، وحسنية الفرانة وزوجها جعدة يصنعان الخبز ، وكانت الست أم حميدة الخاطبة تصنع العائلات ، وصنع المسيح المعجزات ، وصنع زيطة العاهات ..

وتوفى زيطة فى السجن منذ أيام ، ورايت ان أتقدم بالتماس الى الجهات المختصة مطالبا بأن يصنعوا له تمثالا ويقيموه على رأس زقاق المدق ، راجيا ان يفصل حضرات المختصين كل الفصل بين ذلك العمل الاضافى الذى أدى به الى السجن واخذ جزاء عنه ، وبين هذا العمل البطولى الذى وقف زيطة حياته عليه ، والفهم الرائع لمعنى العاهة الذى كان يدركه بحدسه وعبقريته ، وكيف استطاع وحده أن يواجه مدينة صاخبة ضاجة وأن يلبى لها فى اخلاص حاجة ملحة ضرورية ..

فقد قبض فى ليل أحد الايام ــ ومنذ سنتين ــ على زيطة وصديقه الملقب بالدكتور بوشى لاتهامهما بسرقة جثث الاموات ، وشاع فى الزقاق أنهما كانا يسرقان طقم الاسنان الذهبى من جثة المرحوم عبد الحميد الطالبى الذى كان بائعا للدقيق بالمبيضة فلما سمعت بذلك الست سنية عفيفى ، وهى جالسة تشرب القهوة التى صنعتها لنفسها بنفسها ،رمت بطقم أسنانها الذهبى الذى سبق أن صنعه لها الدكتور بوشى ، ثم صرخت وولولت حتى اغمى عليها ، ومنذ ذلك الحين اختفى زيطة وصديقه من حياة الزقاق وانقطع كل منهما عن صناعته ، ومع ذلك فلم تكن سرقة جثث الاموات هى العمل الرئيسى لزيطة ، بل هو عمل اضافى اضطر أخيرا أن يقوم به الى جانب الصناعة التى وقف عليها حياته ..

ولقد ولد زيطة لابوين يصطنعان الشحاذة ، وكان ذلك أول العلامات الدالة على تأهبه للصناعة التى تفرغ لها فيما بعد .. وكان مجيئه ــ كمجىء اى صانع عظيم ــ بعد انتظار وترقب وحاجة .. فقد كان والده فى حاجة الى ابن تحمله الام اثناء تجوالها لتثير العطف وتستدر الاحسان وحسن الصنيع ، وقد انتظرا طويلا حتى اضطرا أن يكتريا طفلا ، فما أقبل زيطة الى هذا العالم ، حتى وفر عليهما ثمن الاكتراء ، فكان فرحة عظيمة لهما ، كما كان خلاصا للكثيرين فيما بعد ..

وفى التراب نشأ زيطة ، وفى التراب عاش ، كانت أمه تتركه يزحف بحرية يرعى بين القاذورات والحشرات ، يتذوق الوحل ويختبر مواطىء الاقدام .. كانت نفايات البقدونس وقشر الطماطم والهوام السابحة فى المياه الراكدة هى عالمه الجمالى المنقطع النظير ، وكان يحس فى التصاقه بالطين لذة يتصنع الاخرون الجزع منها ، والتقزز من مواجهتها ..وقد

هيأت له هذه القذارة فرصة الإبتعاد عن الناس فيما بعد ، متفرغـا لتأملاته ومتفكرا فيما القى عليه من مهام ، فقد كانت رائحته الكريهـة تنفيه عن الناس ، وكانت قذارته تجنبه فضولهم وتحديقهم فيه ؛ لا يصانعونه ولا يصانعهم ، وهم متحصنون بأنفسهم من أنفسهم بروائحهم العطرية وأناقتهم المصطنعة اذا فكروا فى الانتحار فكروا فيـه بغير أن يجرؤوا عليه ، لا يدركون المعنى المخلص للعاهة ولا القيمة المطهـرة للتشـويه ..

ولسنا نعرف كثيرا عن حياته أيام صباه فهذا الجزء من تاريخـه غامض ومجهول أكثره لدينا ، وكل ما نعرفه مما بلغنا من أخبـار أنه كان يعمل فى « سرك » متجول حيث تدرب على فن « الماكيـاج » وأصبحت له فيه يدصناع .. وحيث يمكننا أن نستنتج أنه لا بد أن يكون قد تعـرف بذلك على جوانب كثيرة وصناعات متعـددة فى الحياة وهكذا أعدته ولادته وطفولته وأيام صباه للصناعة التى ألقى على عاتقه أن يأخذ بها فيما بعد ..

فى هذه الاثناء كان زعماء العالم يصنعون الحقد والكره فى القلوب ويصنعون القنابل والطائرات فى المصانع ، ثم مزجوا الجميع معا وصنعوا منه حريقا عالميا كبيرا .. وفى الشوارع الفخمة فى المدينة كانت صناعة التجميل قد انتشرت ، تصنع السمنة للنحاف والنحافة للسمان وتزيل الشعر وحب الشـباب وتبرز الارداف وتكـور الاثداء ، وانتشرت الصالونات تسوى الاذن المنكمشة وتصفر المفرطحة ، وتعـدل الانف المنحنى وتدقق الشفتين الغليظتين ، وتعيد الصبا الى « شمطاوات » الطبقة « الراقية » وفى الغرب كانت قد ظهرت مدارس تعبر عن المشوه وزعماؤها ينشرون الدعوة فيلبيها تلاميذ مخلصون يبرزون فى الجـانب الميت قرف الانسانية وفزعها ..

ولقد حدث ذات صباح أن نشرت جميع الجرائد أخبارا عريضـة تلقتها بالبرق عن طفلين ولد أحدهما بالهند والاخر باستراليا وكان الاول بلا ذراعين ولا قدمين وتوفى بعد دقائق من ولادته ، أما الآخر فعليه شعر ماعز وله ذيل قصير وقدولد ميتا .. فما اقبل مساء ذلك اليوم حتى كان زيطة قد اشرف على زقاق المدق ، وقد أعد العدة لصناعته، فحمل معه أدواته ومهماته ، واختار الخرابة القائمة أمام الفرن مكانا يمارس فيه عمله ، لا يفهم التشويه مجرد معنى جمالى فى الجامد او الميت بل هو معنى نابض حى سيأتيه من أجله المجهولون والمخفقون متسـللين من مشارق المدينة ومغاربها ، ثم يغادرونه رسلا وحواريين له فى مختلف الاحيـاء والزوايا ..

وفى الطرق والميادين ، وفى الموالد والاعياد ، وقرب المسـاجد

والكنائس وفى المقاهى والمقابر .. كان المتصدقون والمحسنون يطالبون سائليهم بما يؤهلهم للشفقة والاحسان وكانوا ينظرون شذرا - كما ينظر اصحاب الشركات ومديرو المصانع الى طالب لا مؤهل له - كلما وجدوا واحدا منهم صحيح الجسم معافى ، فى عينيه النور وفى لسانه الذلاقة ، وفى جسده الامتلاء .. كانوا أشخاصا عمليين ،لايريدون أن ينفقوا أموالهم بلا عاهات تستدرهم ، ولا أن يبعثروها على غير مستحقيها ،كانوا يريدون عميا وعرجا وبلهاكي يغدقوا عليهم مايغدقونه على عشيقاتهم وهم يتطلبون العاهة فيهم تطلبهم الذلة والحاجة فى عشيقاتهم

وهكذا أخذ يفد على زيطة أصدقاؤه الجدد وصنائعه فى المستقبل .. انهم منتشرون الآن فى كل مكان ، فى الازقة والحارات ، وفى طرقات المدينة الواسعة وميادينها ، معترفون له بالفضل والثناء ، وكل منهم يذكر جيدا هذه اللحظة من حياته التى أقبل فيها على زيطة وهو عاطل لا صناعة له ، يقوده فى جنح الليل صديق أو دليل ، فتداعبه الرائحة الرطبة التى يواجهه بها الزقاق ، ثم الاصوات والاضواء المتسربة من أعلى احد المنازل حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة صاحب المقهى ، وفوهة الفرن متقدة كأنها شهوة أو مقت ، ثم الخرابة المعتمة الرهيبة كأنها كهف ساحر أو جنى ، والرائحة الكريهة المنبعثة من أرجاء المكان كأنها احتجاج أموات أو معذبين ، وضوء المصباح البترولى المرتعش يحيل الظلال الى رموز ، والادوات الموضوعة على الرف ما بين زجاجات وآلات وضمادات ، وزيطة مختف مع العتمة فى جلبابه الاسود القذر لايدل عليه الا عينان تبرقان ، وصوت ساخر طاغ ، ونار خافتة تنبعث من بقايا سيجارة ما بين يده وفمه ..

كانوا يأتونه صحاحا ، وكانت صحتهم تقف عثرة فى سبيل حياتهم كما تقف اخلاقيات شاب يافع ، كانوا يمدون ايديهم فيردها لهم الناس فارغة ، وكانوا يطالبون بحقهم فى الحياة فيأباها عليهم الاخرون ، فيقبلون على زيطة ثم يغادرونه ، عميانا وكسحانا وأحدابا وكسعانا ومبتورى الأذرع أو الأرجل وبذلك يهبهم حقهم فى الحياة ، وما يبرر لهم اصطناع صناعتهم .

وهكذا كان الليل هو المجال الذى يتحرك فيه زيطة ، كان الليل هو مملكته التى يسيطر على ما فيها من حركات وهمسات ورغبات ، وكان صنع العاهة يربط صاحبها به كما تربط المعجزة المريض بمنقذه .. فما ينتصف الليل وتسرى الهداة فيه حتى يبدأ زيطة عمله ، فيجول فى حى الحسين العامر مارا برعيته من الكتل البشرية المتكورة فى هذه الزاوية أو على ذلك الطراز كأنها بقايا هزيمة ، فيلتقى فى ميدان الحسين

بكسيح الى جانبه ما يشبه صندوقا ذا عجـــلات أربع ، فيركله ثم يسأله عن حال كساحه ويستوى الرجل واقفا على قدميه ثم يعطيه مليما .. يوميته .. فاذا انعطف صـــوب البــاب الاخضر التقى بأعمى ذى ذراع مبتورة تعود أن يبرزها للمارين كأنها بقـــايا شمع جمد فيوقظه ليأخذ منه المليم ، فاذا بلغ القبو القديم التقى بأعمى آخر قد انتشرت عـــلى صـــدره وفخذيه قروح تعود أن يعرضها على المارين كأنها تقيـــؤ دموى ، وهو يغط الآن فى نومه هادئا مستريحا ، فيركله ويســـأله عن قروحه ، فيفتح « الاعمى » عينيه ويعطيه المليم ، وعند الجـــامع الكبير يلتقى بالاحدب الذى تعود أن يسب الناس ويشتمهم اذا ردوه خائبا كأنما لم يقنعهم الفرق بين حدبه واســـتواء قاماتهم ، وفى ذلك الوقت يكون اكثر تكورا وأكثر سوادا وأكثر هدوءا وقد انكفأ على وجهه وعقد يديه كأنما يصلى فما يحس بالخطوات المقتربة حتى يرفع يده بالمليم فيأخذه منه زيطة فى صمت ويمضى ، ثم يدور حول المســـجد مارا بصنائعه واحدا بعـد الآخر ، ثم يبتاع رغيفا وتبغـا وجبنا أو حلاوة ، ثم يعود الى خرابته حيث يستأنف دورا اخر من أدوار عمله ..

وكان شأنه ــ شأن كل صانع عظيم ــ يرضى حاجة خاصــــة فى الوقت الذى يرضى حاجة عامة .. فهو يتعيش ويصنع لغيره ســــبل العيش .. فلسنا نزعم انه اختـــار هذا النوع من الصناعـة اشـــفاقا على الانسانية وبرا بها ، فلقـــد كان يرضى باختياره ذاك حاجـــة دفينة الى القسوة فى مجتمع قسا عليه حتى لتذوق التـراب .. وكان يرضى كذلك حاجة فى الآخرين يفيدونها مما تضطرب به نفسه من رغبـــة .. كان للرجل عذاباته ووحدته ووحشيته ، وكان سماعه تأوهات الـرجل الذى يهرس له ذراعه أو يبتر له رجله يثير فيه لذة حيوانية هائلة .. ولكن فلنذكر دائما ــ باعتراف واجلال بالفين ــ أنه ما كان يضــــع لذته فوق المصلحة العامة ..

فقد حدث فى أحد الايام اذ دخل مزبلته بعد رحلته الليلية ، فوجد عملاقا قويا فى انتظاره ، وصفه زيطة بأنه « بغل بلا زيادة ولا نقصان » وكان الرجل يقول فى خور : « حظى أسود وعقلى وسخ » وادرك زيطـة أن صحة هذا « البغل » مثار للحنق وعقبة كأداء فى سبيل حياته ، ولكنه كظم شوقه الى تهشيم رأسه وتقطيع لحمه ، واكتفى بأن يعلمه فن العتـــه وأن لم ينقصه منه شىء كما قال صانع العاهات ــ ويحفظه بعض مدائح الرسول كما أدرك ذات مرة ــ وهو يبصق على الارض ويمسح شفتيـــه بكم جلبابه الاسود أمام متسول مهيب الطلعة ــ ان العـــاهة قـــد تكون وقارا به يستطيع الشخص أن يحصل على وجوده فى المجتمع ، كما تكون

الذراع المقطوعة وملاحة البغى وشهادة الطالب ونفاق السياسى وكما تكون لالقاب والثروات ..

وكان لزيطة أحلامه البهيمية مثلما لى ولكم .. وكانت أحلامه تتركز حول سنية الفرانة صاحبة الخرابة التى يستأجرها منها ، والتى كانت تصنع الخبز .. وكانت حسنية مكتنزة ذات لحم كثير وبنيان عملاقى ، يتمنى زيطة لو تحتاج اليه يوما كما يحتاج اليه الكثيرون .. ولقد راودها عن نفسها أكثر من مرة — ورأسه تزدحم بأخيلة محمومة — فما كان يلقى منها الا القسوة والزجر ولم تكن حسنية فى حاجة الى صانع للعاهات يشوه عليها حياتها الزوجية لانه كان لها فى هذه الحياة ما يغنيها عن معونته ، فهى ما تنفك تضرب زوجها جعدة كلما سرق رغيفا أو سرق آخر ، وهو يستلذ قسوتها وهى تستلذ بكاءه وصياحه ، فلا يلبثان أن يقتربا معافى عاطفة مشبوبة ، وشيئا فشيئا ، نحو لحظة من لحظات صفائهما الخالص .. فلا عجب أن استغنيا عن زيطة كما استغنى عنه بقية سكان الزقاق لانهما استطاعا أن يصنعا بأنفسهما ما يربط حياتهما معا ، وما يضمن لهما اللذة والاستمرار ، فما لبث أن قنع صانع العاهات بأن يراقبهما من خلال مزبلته وهما مستمران فى شجارهما المنتهى الى صفاء وهو مسترسل فى الاحلام والعذابات ..

ومن قبل كانت صناعة المطاحن البخارية قد نافست طواحين الهواء ، وكانت صناعة المذياع قد نافست الشاعر الذى يروى أخبار الزناتى والهلالى ، وكانت صناعة القنابل قد أخذت تنافس زيطة فى صناعته ، فقد كان انتاجه فرديا وان كانت فيه مهارة الفنان وهوايته ، أما تصنيع العاهات فكان على نطاق الجملة .. ومع ذلك فلم يكن هذا معناه بالضبط الاستغناء الكامل عن خدمات زيطة ، لان مصر لم تصب أولا كثيرا بمثل تلك الغارة التى شهدها زيطة ذات يوم ، ولأن حاجة مجتمعنا الى صناعة التشويه هى حاجة ملحة وضرورية ، بعضها تشويه محطم كالذى تصنعه لنا الحرب والغارات ، وبعضها تشويه خلاق كالذى كان يصنعه زيطة ، فالشحاذ يأتيه على حد قوله — وهو لا يساوى مليما ، فاذا غادره فقد ساوى ثقله ذهبا .. لهذا كانت لديه عقيدة راسخة لا تتزلزل — كان يقوم عليها ايمانه بصناعته — ذلك أن الناس فى حاجة دائمة اليه ، فلا يعدم الليل أن يفرز له شخصا من هذه الزاوية أو تلك .. ومع ذلك فقد اضطر أخيرا أن يقوم بعمل اضافى ، حيث يذهب مع صديقه الملقب بالدكتور بوشى بين ليلة واخرى لانتزاع بضع أسنان ذهبية أو فضية من جثة هذا المرحوم أو ذاك حتى قبض عليهما أخيرا ، وحوكم زيطة من أجل عمل لم يكرس له جهوده ، وكان مجرد مهمة عرضية فى حياته ..

وكنا نحن منتشرين فى الموالد والافراح أو جالسين نلهو فى المقاهى والحانات فاذا تدحرج علينا أعمى أو مفقوء أو كسيح خالجتنا ريبة

فى استمرار سلامتنا ، وساورنا قلق على اتصال طمانينتنا وكنا ندفع عنا تلك الريبة وذاك القلق بمليم أو قرش فى يد سائلنا .. كان يشيع فى نفوسنا ادراك عام لمعنى الزمن المتقلب ، وللطمأنينة التى لا وجود لها ، ونحن أكسل من ان نحاول النفاذ الى مواطن أصدقائنا وعشيقاتنا وشحاذينا ، وكان زيطة يدرك هذا الضعف فينا فيوفر علينا ما يتطلبه ذلك من مجهود لا قبل لنا ببذله ، فكان يبرز لنا فى يد مبتورة أو رجل مشلولة او عته أو ابله آخر صورة من صور المأساة التى يمكن أن ينحدر اليها ، والتى نجد أسبابها ونحس أصولها فى أرواحنا ومجتمعنا ..

ومنذ الفين من السنين أقبل المسيح الى العالم ، ومضى ذلك الانسان الالهى يشفى المرضى والعمى والعرج فيهبهم بذلك حياة جديدة حتى سمى صانع المعجزات .. ولما جاء القرن العشرون أقبل زيطة الى هذا العالم يصنع المرضى والعمى والعرج ليهبهم بذلك حياة جديدة حتى لقد سمى صانع العاهات .. وقد يحدث أن يأتى اليوم الذى تنتشر فيه صوره فى المعابد والمخادع ، وتباع تماثيله فى الحوانيت والموالد ، وتؤلف الكتب عن أعماله وحياته ، ولهذا تدركون تواضع ما نطالب به من صنع تمثال صغير يقام له الآن على رأس زقاق المدق .. كما تدركون أهمية ذلك الطلب تبجيلا لما قام به واعترافا بفضله على كل من صنع له صناعة وتمييزا له عن غيره ممن يشيعون التخريب المحطم والتشويه الذى لا طائل وراءه فتصنع لهم تماثيل عالية ومرتفعة

كما أنصح كذلك بالاهتمام بأمر خرابته التى أمضى فيها حياته لعلها تصبح ذات يوم أثرا تقصده الوفود من كل أقطار الارض .. فلقد كان زيطة صانعا ، وكانت له صنعة وصنيعته منتشرون اليوم فى كل مكان فلا أقل من أن ترد اليه بعض صنيعه ..



مصرع عباس الحلو

« مهداة أيضا الى الاستاذ نجيب محفوظ
صـــاحب زقاق المـــــدق ٠٠٠ »

حضرات القضاة ، حضرات المستشارين ..

لقد قرر المحقق الذى صرح بدفن جثـة عباس الحلو انه مات نتيجة اللكمات والركلات والزجاجات التى تطايرت عليه من الجنـود الانجليز بحانة النصر ، ولم يكن فى مقدور المحقق انه يوجـه التهمة الى أحد ، أولا لكثرة الذين اشتركوا فى ضرب عبـاس الحلو وازدحام الحانة بهم ساعة وقوع الحدث ، وثانيا لانه ما كان لاحد ينال من جنود الحليفة وهم فى نشوة انتصارهم بهذه الحرب العالمية الثانية .. وربما لو أتيحت للمحقق ا فرصة كما تتاح له فى القضايا الاخرى لما استطاع أن يتعرف على متهم بالذات ٠٠ وهكذا « ضاع الفتى هـدرا » كما صرح بذلك صديقه حسين كرشه ابن المعلم كرشه صاحب المقهى الواقع على راس زقاق المدق ..

ورغم عدم اختصاصى فى القـانون ، الا أننى رايت ان اقحم نفسى واقوم بتحقيق هذه القضية لحسابى الخاص ، فقد أولعت حديثا بمثـل هذه القضايا ، وربما كان عدم اختصاصى القانونى يبيح لى حرية التفكير والاتهام مما لا يتاح للمحقق المحترف .

لقد جاء فى تقرير المحقق أن عباسا الحلو لم يقتل مع التعمد أو سبق الاصرار ، وأن الطبيب الشرعى فد فحص الجثة فلم يتعرف الا على شج فى الراس وجرح كبير فى العنق نتجا عن استعمال زجاجات متكسرة، ثم كدم فى الجانب الايسر وآخر فى أسفل العمود الفقرى ، وقرر أن سبب الوفاة كثرة ما نزف منه من دماء ، وقد حدثت أثر هبوط شديد فى القلب اما القاتل فقد نعته التقرير بكلمة «مجهول» .

لهذا رأينا أن نهمل ذلك التقرير الرسمى ونبحث عن آثار أخـرى عسى أن نستدل منها على السبب الذى أدى الى مصرعه ، ونحن نعلم أن مهمتنا شاقة وقد نتهم أبرياء وقد نغفل آخرين . ومع ذلك فقد آثرنا المخاطرة لما بين ايدينا من أدلة قد يتهمنا الكثيرون بأننا أسأنا استعمالهـا وبالغنا فى تأويلها الا انها على أية حال تلقى ضوءا على المأساة خيرا ممـا يلقيه هذا التقرير .

ولا شك أنكم ستعلمون مقدار الصعوبة التى واجهتنا حين تدركون أن عدد المتهمين قد كان من الكثرة بحيث امتد فشمل ــ على سـبيل الاحتياط ــ العصر بأسره .. ولقد وجدنا أن خير وسيلة نضمن بهـا عثورنا على المتهم أو المتهمين هى أن نوجه الاتهام الى العصر كله ، وهـذا ليس من اختراعنا ولا هو شطط منا ، فأنتم تعلمون انه عندما تقع جريمة ــ فى حفلة مثلا ــ فأول ما يفعله رجـل البوليس هو أن يوجه التهمة الى الجميع وليس الى أحد .. وبهذا المعنى شمل اتهامنا هؤلاء الجنود الذين أصابوه بالزجاجات اصابات قاتلة فى رأسه وعنقه ، وهؤلاء الذين اشتركوا

فى صنع هذه الزجاجات ، وهؤلاء اللواتى ولدن أولئك الجنود ، وشمل اتهامنا هؤلاء الاقربين الذين كانوا يعرفونه ويرافقونه ، حتى هؤلاء الزعماء العالميين الذين قادوا الحرب ووضعوا الجنود فى الحانة ليلة الحادث ..
انه يبدو أيها السادة ان مصرع عباس الحلو وهو شاب فى الثالثة والعشرين وكان يعمل حلاقا فى زقاق المدق بمدينة القاهرة ، ان هو الا جريمة اقترفها عصر ..

وانتم تضحكون بلا شك من جدوى هذا الاتهام ، فهو يتناول لفظا مجردا ، ولا يتعلق بأفراد معينين نستطيع أن نبصرهم ونلمسهم ونكرههم وان تقتص منهم «العدالة» التى تحرصون عليها دائما .. ولكنكم تدركون كذلك أن كثيرين غير عباس الحلو قد ماتوا أيضا بسبب العصر ، قتلتهم روح الحرب التى ازدحم بها العصر ، بعضهم غرق فى البحر واكلتهم الاسماك ، وبعضهم صعقتهم الغارات ودفنتهم تحت الانقاض ، وبعضهم قتل وجها لوجه أمام أخيه الانسان ، بعضهم جن وبعضهم تشوه وبعضهم ترمل أو تشكل أو تيتم ، وبعضهم مات مثل عباس الحلو بسبب حادث غرامى فى حانات اللهو وفى بلد لم يذق من أهوال الحرب ما ذاقته بلاد أخرى ، وفى كل حالة من هذه الحالات كان القتلة مجهولين ، وكانت العدالة التى تحرصون عليها أيها السادة تقف دائما « معصوبة العينين ».
ومع ذلك فسنتمشى طبقا لتقاليدكم ونوجه الاتهام أولا الى اشخاص معينين ، ولكنكم ستدركون معنا فى النهاية وبسبب توزع المسئولية على الكثيرين جدا أنه اتهام قليل الجدوى .

ولما كان يتضح فى معظم القصص البوليسية ان المتهم هو الذى كان أبعد الناس عن الشبهات اول الامر ، كأن يكون صديقا او حبيبا ، فاننا استفدنا من هذه الخبرة السابقة ووجهنا الاتهام مباشرة الى فتاته حميده وصديقه حسين كرشه .. ولقد صدقت فراستنا ووفرت علينا كثيرا من المشاق التى كنا معرضين لها .. فقد ثبت لدينا انه ما كان لعباس الحلو أن يغادر صالونه بالزقاق يوما لولا وجود هذين الشخصين فى حياته .. كان يود لو ظل فى زقاقه هادئا قانعا بهذه الغيبوبة الحالمة التى يحيا فيها الزقاق فهو زقاق صغير معتم مقفل ، ومنزو فى حى من أحياء المدينة العظيمة الصاخبة ، تنبعث فى أرجائه رائحة خدرة مهلكة ، ويرى دائما على رأسه « عم كامل » بائع البسبوسة بمذبته القصيرة وجسده المترهل السمين .. لا يفيق الا لحظات فى الصباح عندما يقبل تلاميذ المدرسة الاولية يدسون فى كفه انبضة الملاليم ثم يعود الى اغفاءته المستديمة ، وأمامه المعلم كرشه صاحب المقهى يتناول « فصا » كل بضع ساعات ليتصل له ذهوله الحالم المستديم ..

لقد كانت حياة الحلو بطيئة متكررة ، لا يمل اتصالها الرتيب ولا

يتطلع الى تعديلها أو تحويرها .. كان عالمه لا ينفسح خلف الزقاق ولا رجاء لديه الا فى حياة هادئة فى حدود دخله المتواضع فى ظلال حميده وفى ظلال عيونها وأنفاسها .. وكان راضيا قانعا ، متحملا لو تقسو عليه الايام يوما ، منشرحا لو منحته لحظة من هناءتها ، لا يعشق الا رائحة الزقاق وترابه ، ويقلقه أن يجد نفسه فى شوارع ما تنفك تتسع وما تنفك تصطخب وما تنفك تزدحم .. ومع ذلك فقد كان يبدو أن هناك جانبا من حياته يتمرد فى خفاء على هذه الدعة وهذه الطمانينة اللتين لا يطمح الحلو الى سواهما ، جانبا مجنونا يرجوه ويخشاه ، تعبر عنه صداقته لحسين كرشة وتمسكه بهذه الصداقة .. كان هذا الصديق يقلقه حينا ما ويشيع فى نفسه لونا من الريبة فى قيمة حياته هذه التى يحياها ، وفى المعنى الحقيقى لقيمه التى يتمسك بها والتى تستمد دعائمها من رائحة الزقاق وعتمته ، كان كلما وقعت عيناه على حسين أحس أنه ازاء جزء من هذه الطرق الفسيحة المزدحمة حيث قيمه تنهار وشخصيته تضؤل وتضؤل وسط الزحمة المصطخبة .. كان صديقه يفتح عينيه على عالم آخر مزدحم بالمطامع والمطامح وصاخب بالتشاجر والتنافس فى سبيل الظفر بالقوة والمال .

وفى هذه الزحمة الوهاجة المضيئة فقد فتاته حميده .. ظل صديقه يلح عليه كى يرحل ، أن يترك هذه الغيبوبة الحالمة وينطلق ليشارك فى السباق المرهق العام..وظل يزعق فيه : سافر سافر سافر«ماذا أكلت ماذا شربت ، ماذا لبست ، ماذا رأيت» وما كان لزعقاته أن تقلقه الا قليلا ثم سرعان ما تخبو ، لولا حميدة التى هناك ، وكان هو يحبها ، وكان فى حبه لها شىء غريب عن طبيعته ، كان صوتها الأجش ما ينفك يعلو بين حين وآخر فيخرج بالزقاق عن طبيعته ، وكانت ما تنفك تتشاجر مع الرجال ومع النساء ومع أمها فتزلزل الزقاق وتوقظه من سباته المستديم بضع لحظات ، وكان الحلو يحبها ويرجو أن تشاركه حياته ، ولكنه ماكان يدرك فداحة الثمن الذى وجب عليه أن يدفعه ، حقا لقد ادرك انهسيدفع ثم يعود ويستأنف حياة الدعة والهدوء .. كانت هناك صداقة غريبة ولكنها طاغية ، وكان هناك حب قوى لكنه طموح ، فرضى أن يحملنفسه ما يكره ، وأن يغترب عن طبيعته قليلا .. لكنه ما أن سافر حتى وجدت حميدة أن مشاريعه تضمحل ، وأصبح حب الحلو لها فكرة لا حقيقة لها ، مجرد أمل باهت لا تستطيع هى أن تقبض عليه وتعتصره بين يديها ، وأصبح طموحها معلقا بمصير ذى غياهب مجهولة ، مما اعطاها القدرة على أن تغادر الزقاق ملبية أول نداء رات انه يحقق لها طموحها فى سرعة وقوة ووضوح .. وهكذا شارك حسين وشاركت حميدة فى حياكة هذه المؤامرة التى انتهت بمصرع عباس الحلو ، الواحد بصداقته الطموح والاخرى بما اثارته فيه من حب خلاق .

وقبل ذلك ، ومنذ ست سنوات كان هتلر قد أعلن الحرب على انجلترا ثم على أروسيا وبذلك كان مصير الملايين من البشر قد تقرر فيما تسمونه «القدر» كان قد تقرر أن يموت هذا غريقا وأن تتثكل هذه وتترمل تلك . وأن تصبح حميدة عاهرة ويموت خطيبها عباس الحلو مقتولا وهو لما يزل فى الثالثة والعشرين ، فصراع العصر لم يعد يقتصرعلى هؤلاء الذين يريدونه ويعلنونه ويشاركون فيه ، بل هو يمتد الى الآخرين الذين لا يدلون برأى فى المعركة ويحاولون عبثا أن يتجنبوا لفح الصراع، وهكذا يشارك كل بما يملك أو يستطيع ، فشاركت حميدة بجسدها وشارك عباس الحلو بمصيره .

والواقع أن عباسا الحلو كان يدرك هذا المعنى من قبل ادراكا واضحا ــ رغم أنه لم يفلسفه ــ كلما انطلقت صفارات الانذار وسمع أزيز الطائرات وقصف المدافع فوق راسه .. كان يحس أن الحدث العام قد وصل الآن الى مخدعه ، وقطع عليه هدأته وراحته ، وعطل له آماله وهواجسه كى يشارك هو والآخرون بعضهم بعضا فى ترقبهم وانتظارهم وفى خوفهم وانصاتهم .. وهكذا أدرك أن الحدث العام جزء جوهرى من حياته الخاصة ، وأن الجميع يشاركون فى هذا النذير المنتشر فوق رؤوسهم وقد مد أطرافه الممسوخة الجزعة الى قلوبهم وخواطرهم وكان أحيانا ما يخشى أن يضطر الى المشاركة فى هذا الصراع بذراع له أو ساق ، لكنه ما كان يحسب أبدا أنه سيشارك فيه بحبه وسعادته أولا ، ثم بمصيره كله فى النهاية بعد أن تكون الحرب قد انتهت فصمتت المدافع فى الميادين واطمأنت القلوب فى الاوطان .

وهنا نستطيع أن نضيف الى قائمة الاتهام شخصا لم يشارك فى المأساة بصداقته أو حبه أو قيادته صراعا عالميا ، بل بمجرد سعيه الى مصلحته الخاصة ، وربما يفرضه عليه عمله .. ولم يعرف الحلو يوما ولم يعرفه الحلو الا شبحا مقيتا نغص عليه حياته وعقدها وأشاع الفوضى فيما استقر عليه من رأى ، ولم يحدث أن تقابلا أبدا ومع ذلك فقد كان لفرج ابراهيم أهميته الكبرى فى المؤامرة ، وكان عمله أن يهيء الفتيات أمثال حميدة لمصاحبة جنود الحلفاء ، فما أن سافر الحلو الى التل الكبير ليعمل فى جيوش الحليفة ــ كى يعود ويفتح صالونا بالموسكى تحقيقا لأطماع حميدة وتسليما لصرخات صديقه ــ حتى تغير كل شيء .

فى هذه الاثناء كان هناك جنديان انجليزيان يعودان من ميدان القتال .. ومنذ ست سنوات اقبلا على باخرة الى مصر .. وكانا يدركان أنهما سيحاربان فى الميدان وقد يقتلان وقد يقتلان ، وادعى أحدهما وهو مخمور أمام اصدقائه ذات مرة ــ ومنذ زمن بعيد ــ أنه قد جاء فى مهمة سرية فى الشرق الاوسط ، فضحك السامعون اذ ذاك وضجوا ، ولكن لم

بجل بخاطر احدهما انه سيشارك يوما فى مصرع الحلو فى حانة من حانات القاهرة ، وكانا الآن عائدين الى القاهرة من ميدان القتال وقد قتلا عددا من الالمان والطليان وظنا انه بقى عليهما الانتظار حتى يعودا الى وطنهما ، ولكن ثمة مهمة واحدة بسيطة كان عليهما أن يؤدياها للشرق الاوسط فى يوم قريب ثم يرحلا عنه فى اليوم التالى الى الابد .

أما فرج إبراهيم فقد كان بالنسبة لحميدة فى أول الامر مجرد «عينين» عينين متفرستين وسط زحمة من الناس فى حفل انتخابى اقيم أمام الزقاق ، كان مجرد عينين تدعوان حميدة وتثيران ما تهيأ فى جسدها من رغبة وطموح وميل الى المغامرة والانطلاق ٠٠ ولقد لبت حميدة ذاك النداء ، وفى الضوء الوهاج الذى بهر به فرج ابراهيم عينيها بدا لها الحلو قزما ضئيلا والحياة معه سخرية كبيرة ، وبدا لها فرج شخصا بيديه مفاتيح عالم متسع كبير يحقق لها ما تبغيه من تميز وتفرد على بقية صديقاتها اللواتى لا يحلمن جميعهن الا بمصير واحد متكرر حيث يلف النسيان والعدم ظلالهما عليهن وهن يخدمن أزواجهن ويرضعن اطفالهن ويسمعن بقية العمر شتائم أولئك وهؤلاء . كان الرجل يسعى فى سبيل عمله وكان الحلو مجرد اعتراض صغير مجهول فى هذا السبيل شد ما سهلت ازالته بلا تهيب ولا تردد . وهكذا اختفت حميدة من الزقاق ، وكانت تحسب أن فرج ابراهيم يهيم بها ، وكانت هذه هى وسيلته فى اجتذاب هذا اللون من النساء ، فلما أدركت الحقيقة ، لم تكره حياتها الجديدة ، ولكنها كرهت هذه الخدعة فأضمرت فى قلبها السوء والانتقام .

وفى باريس ، ومنذ عشر سنوات ، كان ثمة عمال يصنعون الزجاجات الفارغة ، وفى ليون ، ومنذ تسع سنوات ، كان ثمة آخرون يملأون بالنبيذ هذه الزجاجات ٠٠ ورحلت هذه الزجاجات وصدر بعضها للغرب وصدر بعضها الى الشرق ، وتدحرجت بضع زجاجات من يد تاجر الى يد آخر وعددها يقل ويقل حتى استقر بعضها فى شارع من شوارع القاهرة .. وقبيل مصرع الحلو بيومين كانت احدى هذه الزجاجات قد استقرت على رف من رفوف حانة النصر وفى متناول احد الجنود .

ولقد عاد الحلو من التل الكبير فوجد كل شىء معدا لمصرعه ، ولقد عثرنا على محاولات قامت لاحباط هذه المؤامرة ، واهمها تلك المحاولة التى قامت فى اللحظة الاخيرة ، ولكنها كانت محاولة فردية لم يكن لها تأثير كبير على مجرى الاحداث .. ففى زقاق المدق ، وفى ليلة الحادث ، كان السيد رضوان الحسينى ينوى أن يقوم بالحج ، وسمعه الحلو وهو ينصح الحاضرين قبل سفره بالشجاعة والصبر وان لا يضعفوا أمام اليأس والغضب ، لكن هذا الصوت الهادىء قد ضاع وسط الضجيج الهائل

الذى كانت نفس الحلو تصطخب خلاله فى تلك الليلة ، حقا لقـــد تردد قليلا ، لكنه ما كان يمكنه أن يعود الى طبيعته الاولى .

ولقد عثرنا مع القتيل ليلة الحادث على علبة بها عقد ذهبى مركب من سلسلة وقلب رقيق ودلت تحرياتنا على أن الحلو قد بلور فى هـذا العقد عواطفه وجسد آماله وارتبط به ارتباطا أكثر واقعية فى حركتـه نحو حميدة .. وعلمنا أيضا أنه حين قابلها فيما بعد ووجدها تزين رأسها بهلال ماسى وتزين أذنيها بقرط لؤلؤى أحس الحقارة والاحتقار وهـــو يتأمل أمامها عقده فى ذهول حتى لكأنما بريقه الذهبى الذى كان ينعكس على وجهه يشيع فيه قلقا صاخبا عربيدا .. وبهذا كان وجود الهـلال والقرط عليها ووجود العقد الذهبى فى جيبه حتى ليلة مصرعه عاملا قويا قد استطاع أن يغذى فيه بحق قوى الكراهية والغضب . واستطعنـا بتحرياتنا أن نتعرف على الصائغ الذى قام للحلو بصنع ذلك العقد ، وهو غير الصائغ الذى باع لحميـدة الهلال والقرط ولو أنهما يسكنان فى حى واحد ، ودكان كل منهما يكاد يواجه دكان الآخر .

كان قد لقى حميدة واشعلت فيه نار النقمة من الرجل الذى سلبه سعادته ، وتواعدت معه على أن يلقاه يوم الاحد ليقتص منه .. ومع ذلك فان الحدث لم يقع يوم الاحد أبدا ، فقد كان لقاء الاحد مدبرا ويعرفه انسانان هما حميدة والحلو ، أما مصرعه فقد ذهب الجميع ليشاركوا فيه من غير أن يدبره أو يعلم به أحد .. وهكذا تمت الامور بأسرع مما دبرها الفتى والفتاة .. فعندما هبط الليل الذى شهد هـذا الحدث الكئيب ، وقبل يوم الاحد بأيام كان الحلو يسير مع صديقه حسين ليعرفه بطريق الحانة التى سيلقى بها غريمه فى الميعاد المضروب ، ولكن كل شـخص كان قد أعد الآن دوره : صديق ملحاح ، وفتاة منحتـــه أملا أهاب به الخروج عن طبيعته ثم تركته يتمزق فى الطـريق اليها ، وثالث يسعى فى سبيل عمله للحصول على قوته ، وصائغ صنع عقدا ذهبيا ، وزعماء قادوا الحرب ويستريحون الآن قليلا ، والمساء والحانة والذين صنعوا الزجاجة والذين عبؤوها والذين تاجروا بها عبر البحـار والخادم الذى يضعها فوق الرف والجنديان الراحلان عدا أحدهما يسـقيها من كأس فى يده والآخر يضع ساقيها على حجره واخرون واخرون حفـوا بهم وهم يشربون ويعربدون ..

فى هذه اللحظة حصل عباس الحلو على قمة تحرره ، وزايله فجأة تهيبه وتردده ، وأحس أنه يقوم الآن بمغامرة حياته ، وهى مغامرة لايعرف لاول مرة نتائجها ولا يحسب فيها خطواته .. ومن قبل كان قد غادر الزقاق على أن يعود ، أما الآن فقد كان يغادر الزقاق فقط ، لا يهمه أن يعود ، أو يذهب الى الابد .. كان يحس أن هناك تحولا حاسما وملموسا يحدث الآن فى حياته كلها ، فاندفع يضرب حميدة بزجاجة من زجاجات

الجمة الفارغة ، ورأى الدم ينزف منها ويغمر وجهها عنـــه .. وبهت الآخرون لحظة ، لكنهم سرعان ما رفضوا أن يأذنوا له بأن يعترض بحريته الجديدة طرق حياتهم ولهوهم ، حتى صديقه حسين كرشة الذى طالما غذى فيه جانب التمرد والجنون قد وقف الآن ذاهلا خارج الحانة ، وهو يحس بأن كل نصائحه وكل مغامراته لتضؤل الآن أمام هذه اللحظة التى حصل عليها الحلو فى حياته ، ولقد حصل عليها فى الوقت الذى كان يتلقى فيه اللكمات والركلات فتحرر وأشاع معه فى الحانة حرية لا يحصل عليها السكارى بخمرهم بل هى تحتاج الى صحو شديد ، فأيقظهم ليحرروهم معه لحظة ثم دفع الثمن .. وسرعان ما كان فى خدمة اللحظة حشـد من القوانين بعضها رياضى يتعلق بحركة الاجسام وثقلها ومقاومتهـا الضغط ، وبعضها كيمائى مثل التأكسد فى الرئتين ، وبعضها فسيولوجى مثل محاولات الدم للتخثر ونقص الكرات البيضاء والحمراء وهبوط القلب وبعضها انسانى عاطفى .. كانت هناك شهوات ظمأى وكانت هنـالك عاطفة جريحة وسفن فى البحر وقبلات فى المخـــادع ونظرات عابرة فى الطريق وأشـخاص يحجون وأشـخاص يتمردون وحب ومقت وقوانين وزمن وأزمنة .. وفى لمح البصر ادى كل مهمته ، وتصادمت العواطف والاهواء كما تتصادم الشهب فى سماء ليل حالك فيندلع حريق كبـير لحظة ثم يخبو .. وانا وأنتم أيها القضاة والسامعون موجودون نشارك فى حشد المهازل والمآسى ، بعلمنا أو جهلنا ، بحركة أو كلمة أو نظرة ،ونحن نسعى فى سبيل عواطفنا وأعمالنا ، فيطرب شخص ويمرض آخرويصرع ثالث ، وقفص الاتهام خال لا احد فيه .

كنا جميعا موجودين ليلة ذلك الحادث ، ونحن نتحرك حركاتنـا فيقوم على أكتافنا تاريخ الانسان ولم نفعل شيئا فى سبيله ، وحرمناه حقه فى التحرر لئلا يحررنا معه ، واحتمينا بجهلنا وفضائلنا السـابقة والمقبلة فتركناه ، ونحن نتنفس معه عصرا واحدا . ونتناول معا خبزا ربما صنع فى مخبز واحد أو من قمح حقل واحد .. كان كل منا يعبر طريقه فى الحياة ، تختلف مدى أطماعنا ومدى قدراتنا ، وكان طـريق عباس الحلو قد تعرج بين هذه الطرق حتى ضاق عليه الخناق ، شيئـا فشيئا .. وقتلته اللكمات والركلات والزجاجات ، وفحص الطبيب الجثة وكتب المحقق التقرير ، وخط أمام القـاتل بخط واضـح ظاهـر كلمة : «مجهول» .



كانت الفتيات الصغيرات جالسات يحدقن فى مدرستهن العجوز وهى تقص عليهن قصة يهوذا ، وكانت تصف لهن كيف كان المسيح يحب تلاميذه جميعا « كما تحبكن امهاتكن أيتها الفتيات .. »

وكانت انيسة عبد الملاك اكثر هؤلاء الصغيرات تحديقا وانصاتا ،فقد كانت من اسرة من أقباط مصر المتمسكين بتعاليم الدين تمسكا شديدا، يأخذ والدها نفسه به كما يأخذ به أفراد أسرته جميعا ، يؤدى الشعائر الدينية كاحسن ما يكون الاداء ، فيصطحب اسرته صباح كل احد ليؤدى فروض العبادة فى الكنيسة ، لا يفوته صيام كبير او صغير ، كما كانت له عادة الاجتماع بافراد اسرته صباح كل يوم يصلى بهم ويطلب من الله المعونة وعدم الخطأ فيما يؤدونه أثناء النهار ، وهى عادة اخذ بها نفسه قبل الزواج ، ثم اشرك زوجه فيها فيما بعد ، وظل محافظا حتى بعد ان ازدادت الاسرة وأصبحت تتكون من خمسة اشخاص ... كذلك كان يغمض عينيه كلما جلست الاسرة الى المائدة يذكر الله انه لم ينس الفقراء والمساكين رغم ما امامه من طعام ، بينما صغيرته انيسة ـ وكانت اصغر افراد الاسرة ـ متلهفة على الطعام ، تود لو ينتهى أبوها من صلاته بأسرع ما يكون لتخطف اللقيمات الى فمها الصغير .. وكل مساء كانوا يجتمعون مرة أخرى يرتلون معا ترتيلة دينيه مسائية حتى اذا وصلوا الى هذين البيتين :

ان أتى فى الليل سقم أو دنا أمر رهيب

عز قلبى يا سرورى واشف نفسى يا طبيب

أحست أنيسة بالرهبة والفزع من هذا الليل الذى تقبل عليه وشعرت انها تدخل فى مغارة لاتدرى نتيجتها ، ثم ما تلبث أن تتجه نحو فراشها حيث تنحنى لتصلى صلاة حفظتها عن ظهر قلب تطلب من الله أن يحميها من « الحيات والعقارب وكل قوات الشرير » وهى جملة تدرك معناها جملة وان لم تدركها لفظا ، شأنها فى ذلك شأن الترتيلة.. ولهذا كانت تتصور الليل مليئابالعقارب والثعابين واللصوص ولم ينقذها من هذه الاهوال سوى هذه التمتمات التى يجب أن تتلفظ بها والا حدث مالا يحمد عقباه ..

وكانت المدرسة تتحدث الان عن قلب يهوذا الاسود وكيف انه احب شيئا أكثر من المسيح ، فقد كان يحب النقود .. وقد عرض عليه الاشرار الذين يسكن الشيطان قلوبهم أن يبيع المسيح ويقبض ثمنه ليشترى به منزلا كبيرا وعروسة كذلك لابنته الصغيرة سالوما ..

وتذكرت أنيسة انها سمعت مثل هذه القصة من والدها عشرات المرات ، فالأمر لم يكن يقتصر فى منزلها على مجرد هذه الشعائر

بل كان يتغلغل الى كل صغيرة وكبيرة من حياة الاسرة .. فلقد لقنوها بهذه الوسائل المختلفة ــ وفى هذا العمر المبكر ــ أن هناك صدقا وكذبا ، ان هناك خيرا وشرا ، أن هناك ملائكة وأبالسة ، أن هناك نعيما وجحيما ، أن هناك أبيض واسود وعرفوها اين يجب أن تكون ، وماذا ينتظرها ان هى انحرفت .. فقد حدث ذات مرة أن اقبلت الصغيرةمن مدرستها تتلفظ بكلمة سمعتها ذلك اليوم من زميلة لها ، وكانتمعجبة بمخارج الحروف وبقدرتها على تحريك لسانها وشفتيها بلفظ جديد وان تفقه له كثير معنى ، فما ان لفظتها حتى التفتت اليها أمها منزعجة تسألها من علمها التلفظ بتلك الكلمة فلما اجابتها بأنها زميلتها صفاء امرتها ألا تتفوه بها مرة اخرى لانها كلمة « قبيحة » وان تتجنب مثل هذه البنت ، وسرعان ما نسيت البنت هذه النصيحة وما لبثت انكررتها مرة أخرى أمام والديها ، فما لبثت الام أن صرخت فيها وهددتها بأنها ستذهب الى « النار حيث يأكلها الدود » ان كررت هذا اللفظ ، وحاول الوالد أن يهدىء من ثورة الأم حين رأى ابنته تبكى ، لكنه حين علم بأنه قد سبق التنبيه عليها انضم الى الام مقرعا ابنته حتى احست انيسة انها كائن بائس لانصير له ، وأن النار والدود ينتظرانها مادام والداها غير راضين عنها ..

وعادت المدرسة تقول ان الاشرار تركوا يهوذا ، ولكن الشيطان بقى يوسوس فى اذنه (ومثلت المدرسة شكل الشيطان وهو يوسوس فى اذن يهوذا) وضحكت بعض التلميذات ، ولكن اكثرهن ظللن واجمات تنطق وجوههن بالخوف والاشفاق على ما ينتظر المسيح من مصير على يد يهوذا .. والمدرسة تقص كيف انتصر الشيطان واتفق معه يهوذا على أن يسلم المسيح للاعداء .. ولما كان الاعداء لايعرفون المسيح فانه سيتقدم نحوه من دون التلاميذ ويقبله ، فيظهر امام المسيح بمظهر الصديق الحميم ويعرف الاعداء أنه الشخص الذى يريدون ..

وتذكرت انيسة ان الكذب أنواع ، وأننا مهما تحايلنا فان اللهيكتشف اين كذبتنا .. لقد كان يحلو لها أن تتخيل أحيانا مالا وجود له ثم تقصه على والديها أو أخويها كأنما رأته رأى العيان .. وكان والداها يدركان ــ بما هما عليه من ثقافة ــ ان هذا امر طبيعى ينشط به الطفل ملكة التخيل لديه ، فلم يكونا يفسرانه على أنه كذب ، ولكن والدها قص فى أحد الاجتماعات العائلية الدينية الصباحية قصة الزوجين حنانيا وسفيرا اللذين ورد ذكرهما فى الانجيل ، وكيف اقبل الزوج على بطرس تلميذ المسيح واخبره بانه باع ما يملكه ويهب كل ثمنه للكنيسة ، ثم قدم له مقدارا من المال ، ولكن بطرس ادرك أن حنانيا لم يحضر له كل الثمن وواجهه بذلك فسقط الكذاب ميتا على الارض ، ومالبثت زوجه أناقبلت بغير أن تعرف ماحدث لزوجها واكدت ان المبلغ الذى احضره زوجها

هو ثمن ما باعاه حقــا ٠٠ فقال لهــا بطرس ان الذين دفنوا زوجــك سيدفنونك أيضــا ٠٠ ومن يومها تعلمت أنيسة ان كل من يقول غــير الحقيقة يقتله الرب ، ويكون مصيره مصير حنانيا وزوجه سفيرا ..ومع ذلك فقد كانت كثيرا ما نقص قصصا لم تحدث ٠٠ وعند ما كانت صغيرة جدا لم تكن تميز بين الحقيقة والخيال ، ولكنها بعد أن كبرت قليــلا واستمرت على عادتها كانت تدرك فعلتها لكن بعــد أن تكون قد روت كل ما لديها فتذهب الى النوم خائفــة تحسب انها ستقتل فى كل لحظة وأنها لن تستيقظ أبدا من نعاســها ان هى آستغرقت فيــه ٠٠ وهكذا وقر فى نفس انيسة صورة العقاب المخيف ســواء على شكل موت أو على شكل نار لا تطفأ ودود لايموت او على شكل عين الهية لا تنام ، وذلك لكل من يكذب أو يشتم أو يحلف ، ولم يكن الامر يخلو من أن تــكون هى واحــــدة من هــؤلاء بــين حين وحــين عنــدما يغــرر بهــا الشــيطان ..

وقبض اصدقاء الشيطان على المسيح ، وانصرف الجميع ،واصبح يهوذا وحده وبيده النقود يحدق فيها،وهنا جاءه الشيطان وهو يضحك ضحكا شديدا هذه المرة ويخرج لسانه ليهوذا صائحا بصوت مستنكــر (وزاد وجه المدرسة تجعيدا وهى تصيح فعــلا مقلدة صوت الشيطان) ها ها .. لقد ضحكت عليك أيها العبيط وجعلتك تبيع الصــــديق الذى أحبك بنقود ستنفقها ولا تبقى منها شىء معك بعــد قليل ، ولــكن ستبقى فى قلبك الاسود هذه الفعلة الشنيعة ، ولن تستطيع أن تــكلم بعد اليوم أبدا تلاميذ المسيح الآخرين مثل بطرس يوحنا ولوقا ٠ والتفت يهوذا حوله يريد أن يضرب ذلك الذى مكر به وخدعه لكن الشيطان انحنى بسرعة وتفادى يهوذا ثم تعلق بقفاه ، فكان يهوذا يحس به ولا يــراه يسمعه ولا يستطيع أن يمسك به .. ــ واقشعرت أصغر الفتيــات سنا مثل فهيمة وانصاف وشفيقة وليزا وأنيسة ــ ..

وكانت أنيسة تعانى أزمة نفسية عنيفة .. فمنذ أيام اكتشــفت اسرتها ذات صباح ان يمامة صنعت لها عشا على قاعدة شباك المطبخ، وخلف صينية القلل تماما ، وقد تفاءلت الام بوجود هــذا الطائر الوديع (ويبدو ان ذكره قد اتى فى آية من آيات الانجيل) فحرمت عــلى أولادها أن يعبثوا بهــذا العش ، وأفهمتهم أن اليمامة ستبيض وشــيكا وتضع افراخا صغارا ، وحرام الا يوفروا الهدوء اللازم للام واطفالهــا ٠٠ وظل الاطفال يراقبون العش باهتمام كل يوم حتى شاهــدوا ــ فى غياب اليمامة وامهم أيضا ــ بيضتين صغيرتين غارقتين فى اعشــاب العش القصير الجافة المتماسكة ، وقد فرحوا برؤية البيض فرحاعظيما وعدوه كانما هو انتصار لهم أو كانما هو نتيجة لمجهــودهم ، وظــلوا يترقبون يوما بعــد يوم افراخ هذا البيض لينعموا برؤية طائرين صغيرين لم يشاهدوا مثلهما فى حياتهم .

وبالامس مساء ، وقبل العشاء ، كانت الاسرة تجلس فى شرفـــة المنزل فى الطرف الشمالى منه يستمتع أفرادها بالهواء الرطب المنعش وهم يتسامرون ، وقد جلس على مبعد منهم خادمهم عجيب ، وهـــو صبى لايتجاوز الحادية عشرة كان قد احضره بواب المنزل من قـــريته كفر النصارى ليشق طريقه ويجرب حظه فى مدينة مزدحمة كالقاهرة ، وكان الان قد انهكه عمل النهار ، فانزوى فى ركن الشرفة شبه نائم .

وفجأة تسللت أنيسة من بين الجماعة معللة نفسها برغبتهـــا فى قليل من الماء ، والواقع انها لم تكن ظمأى الى الماء بقدر ظمئها الـــى رؤية ماتم فى أمر البيضتين ، فاتجهت على اطراف أصابعها الى المطبخ ، وهناك سحبت مقعدا ووضعته بجانب الشباك ، ثم اعتلته ونظرت خلف القلل . كانت اليمامة هناك ، لكنها رات ــ ويا لفرحة ما رات ــ فرخـا صغيرا ضئيل الجســم يفتح فمه بجـــوار أمه كأنما يبحث عن شيء ، أما البيضة الاخرى فيبدو انها كانت ماتزال كما هى ، ولم يفزعها وجـــود اليمامة ــ التى كانت الان نائمة ــ ولا هو غير من خطتها التى صممت عليها بل مدت يدها تريد أن تخطف الفرخ الصغير لتمسكه وتتأمله عن قرب ، وفزعت الام من نومها وحلقت فى عنف بعيدا حتى لقد تطاير منهـــا الريش .. وليست تدرى انيسة حتى الان هل وقع العش وتنـــاثر بسببها أم بسبب طيران اليمامة المفاجىء . كل ما تعيه هو انها وجـدت امامها وعلى بلاط المطبخ الابيض بعض أعشاب العش المتنـــاثر ، لـــم البيضة الاخرى وقد تكسرت فظهر من داخلها فرخ آخر اقل حجما ينبض بالحياة وان كانت قطرتان من دم تنتثران على جلده الشاحب المنحول . أما الفرخ الاخر فيبدو انه سقط خارج النافذة فى فراغ المنور .. وفزعت الصغيرة مما رات ، وجرت الى الخارج ، فلما اطمأنت الى أن الجميع غافلون عنها ، ولم يتنبه واحد منهم الى ما حدث أطفـــأت نور المطبخ ثم تسللت الى الشرفة حيث كان والدها واخوتها ما زالوا يتسامرون ، بينما كان الخادم الصغير يغط فى نوم عميق .. وما لبثت أن صاحت فى عجيب لكى يستيقظ ، ثم طلبت منه ان يذهب الى المطبخ ليأتيها بكوب ماء ، وكأنما تذكر الجميع فجأة ظمأهم فطلبوا واحدا بعد الاخر نفس الطلب ، ولهذا عدلت الام طلبها وامرت خادمها أن يحضر القلة نفسها ، واتجـه الصبى نحو المطبخ ، لكنه حين أضاء النور لاحظ الفرخ الصغير الملقى على الارض وهو مايزال ملتصقا بقشرته يفتح منقاره كانما يلهث .. . وتأمل الصبى المنظر العجيب مندهشـا ثم قاده حب الاستطلاع الى أن يمسه بيديه ، وجلس الطفل يداعب الفرخ الذى كان يقـاوم الموت ونسى ما كلفته به سيدته حتى طالت غيبتـــه ، فصرخت تنادى عليه ، لـــكنه كان مشغولا باكتشافه الرائع ، لهذا قامت بنفسها لترى ماذا يفعـــل الصبى ، ولدهشتها وجدته منحنيا على الارض وبيديه الفرخ وقد تدلت رقبته واسلم انفاسه بينما تناثر قشر البيضة واعشاب العش الجـافة

على أرض المطبخ فصاحت السيدة فى دهشة : « باسم الصليب ، ماذا تفعل أيها الولد ؟ » ، وفزع الصبى بينما أطلقت السيدة صارخة : «لماذا فعلت‌هذا ؟ لماذا اقتربت من العش أيها المجرم الذى لاقلب له ؟ » وأقبل على صراخها أفراد الاسرة ، وأنيسة من بينهم ، وصاحت الاخت الكبرى نصيفة : « باسم الآب والابن والروح القدس ، ماذا حدث ؟ » والخادم يزعق ويحلف بانه لم يقترب من العش بل وجد الفرخ ملقى‌على الارض ، ولما كانت له سوابق فى الكذب فان السيدة انهالت عليـــه ضربا ، وكان كلما حلف ضوعف عقابه .

وزعق الابن الاكبر شفيق قائلا :« اخرس ايها الكذاب » وقال الوالد: « اذا قلت الحق سامحناك » وكان الحق الوحيد أن ينسب الى نفسه ما وقع بالعش ، ولكن الولد أصر على أنه لم يعبث بشيء ، وانيسة تستمع الى ما يدور وتلاحظ غضب والـــديها وأخويها الشـــديد وترتعد خوفا لاتدرى ما عسى أن تكون النهاية .. وازاء اصرار الصبى على الانـــكار التفتت الام الى أولادها تسألهم : « هل اقترب احدكم من العش؟ » .. وقبل أن تسمع الاجابة من أحدهم استمرت تسأل : « هـــل اقتربت من العش ياشفيق ، هل اقتربت يانصيفة ، هل اقتربت ياانيسة ؟ » وكأنما كانت أنيسة لاتملك اختيار اجابتها ، فقد سمعت أختها تقـــول ــلاــ واخاها يقول « لا » وبطريقة آلية قالت هى أيضا « لا » .. ولا يمكن أن يكون لدى السيدة أم شفيق ابن يكذب ، لهذا انهالت مرة أخرى على الولد وهى تقول له : « انك ستعلم اولادنا الكذب » ، وانيسة واقفـــة ترقب ما يحدث ، انها لاتحس انها كذبت فحسب ، بل وان بريئا يعاقب بدلا منهـــــا .. وزاد احساسها بثقل الخطيئة حين جلسوا يتناولون العشاء وقد حرموا منــه الخادم الكذاب ، وهو يبكى صارخا : أريـــد أن اعود الى أهلى ، أريد أن أسافر بلدى .. والاب والام يأمرانه بالصمت .. ولم تتناول أنيسة الا لقيمات فى بطء ، فقد انعدمت شهيتها الــى الطعام ، وبزغ فى نفسها صراع بين أن تقول الحقيقة وأن تصمت وكلما مرت الدقائق وجدت فرصة الاعتراف تتضاءل ، ومع ذلك ظلت حزينة حزنا عميقا ، حتى أنها حين رقدت فى سريرها عاودها ذلك الخيـــال المرعب ، انها ان نامت فلن تصحوا أبدا ، ستموت كما مات حنانيا وكما ماتت زوجه سفيرا ، ثم تذهب الى النار حيث ياكلهـــا الدود ، وكانت تفزع لهذه الخواطر فلم تجد الا دموعها تلجأ اليها فى محنتها ، فاغرورقت عيناها ، وأصداء التراتيل المسائية تملأها رهبة ، وقامت وركعت تكرر صـــلاتها وتطلب حمايتها من الحيات والعقـــارب وهى تحس أن أحـــدا لا يسمع منها وان عـــين الله لا تنظر نحوها الا فى غضب مقيت ، وظلت تناوشها هذه الافكار حتى استغرقت أخيرا فى النعاس ، وعنـــــدما قامت فى صباح اليوم التالى لم تكن قد نسيت شيئا مما حدث .. لقد

وجدت ان عجيبا كنس المطبخ فازال الاعشاب الجافة وقشر البيض والفرخ الميت ، ولكنها رفعت عينيها تبحث عن جريمتها فى وجوه والديها واخويها ، ولكنها لم تجد الا عجيبا متجهم الوجه يبدو عليه الخوف من كل حركة تتجه نحوه كانها موجهة لضربة ، والكل ينظرون اليه نظرتهم الى الكذاب الخائن الذى حطم عش اليمامة الوادعة ، وهى وحدها التى تعرف الحقيقة ولا تستطيع ان تصرح بها ولا تستطيع كذلك أن تنساها .. وهكذا ذهبت فى طريقها الى المدرسة وهى تحس بضيق شديد لاتعرف كيف تقضى عليه وتتخلص منه ، فان عين الله تراءت لها ليلة الامس تتابعها الان ولا تستطيع الاختفاء منها ، لافى ثياب أميرة مسحورة « فهى لانستحق ذلك » ولا فى شكل اوزة ولا حتى ارنب .. وكانت عين الله ماتزال تلاحقها وهى جالسة فى حصة الدين تستمع الى قصة يهوذا بانتباه شديد وتتاهف لمعرفة مصيره ..

واستمرت المدرسة فى قصتها ، تروى كيف ان يهوذا لم يستطع ان ينام طوال الليل ، وكيف ان ابنته سالوما كانت تسأله عن العروسة التى وعدها بها لكنه لم يجبها بشىء ، وكيف ان الشيطان كان يقفز حوله طوال الوقت بحيث لم يجد طريقة للخلاص الا أن ينتحر بشنق نفسه ..

وقالت طفلة فى انفعال : أحسن ..

وسألت أخرى : ما معنى شنق نفسه ؟

فأجابتها زميلة لها : يعنى علق حبلا حول رقبته .

وفجأة رنيت أنيسة وقد تشنجت أطرافها وأصرت بأسنانها وهى تبكى بكاء مرا .. وأسرعت المدرسة ، وفزعت الطالبات ، واخذن يبكين بدورهن .. وكانت عينا أنيسه المحمومتان محدقتين — رغم ما فيهما من دموع — تبحثان هل يمكن ان يكون هناك شيطان يمسك برقبتها .. وكانما هى تنبه ببكائها هذه المجموعة من الناس ليتجمعوا حولها فتحتمى فيهم من «عين الله » . وكان الان شعر المدرسة الابيض يقف بينها وبين هذه العين مما طمأنها قليلا .. واقبلت ناظرة المدرسة على الهرج الذى شاع فى الفصل تسأل عن الضجة فأخبرتها المدرسة قائلة :

لقد كنت أقص قصة يهوذا ، ويبدو أن هذه الطالبة قد تاثرت لمصير المسيح على يد هذا الخائن ، فانتابتها هذه النوبة من البكاء . انها الان أحسن قليلا ..



العدد الثامن

كان ذلك يوم الجمعة .. وكان محجوب قد أمضى الصباح كله فى عمل قام به بكل نشاط واهتمام . . كان قد خرج الى « الحوش » فوجد نفســه أمام بيت من بيوت النمل ، فسلط عليه الماء حتى أغـــــرقه وهو يتأمل محاولات النمل للخلاص .. ووجد لذة غريبة فى هـــذا الاكتشاف المفاجىء ، وأدار نظره فى الحوش فوجده مليئا ببيوت النمل الكبير والصغير والاسود والاصفر ، فامضى الصباح كله يملأ أقداح الماء ويصبها فوق بيوت النمل وهو يتأمل الطرق التى يحاول بها النمل انقاذ نفسه ، وهو يجد لذة مرهقة فى ان يسد عليه كل منافذ الخلاص ..

والواقع أن هذا العمل لم يكن ليستأثر الا بانتباههالسطحى اما فى فى اعمـــــاقه فكـان ثمـــة زحمـــــة من الاحاسـيس والعـــواطف الفزعة الاسوانة ..

كان فى المحكمة بالامس ينادى كعادته بصوت مرتفع جاد :

محكمة ! فتدخل هيئة القضاء ليسمع ما تصدره من أحكام على اللصوص والمدمنين والقتلة والعاهرات وعلى افرازات هذا المجتمع .. ومنذ عمل محجوب حاجبا بالمحكمة والمجتمع يفرز صـــديده دائمـــا وباستمرار كل يوم .. كل يوم .. منـــذ خمس سنوات .. وكـــان المجتمع عبقريا فى هذا الافراز ، بحيث لم تعرض لمحجوب قط حالتان متشابهتان ، دائما كان الافراز من نوع جـــديد وغريب وفظيع وبـــــلا انقطـــــــاع ..

وبالامس ــ ولسابع مرة فى هذا العام ــ يسمع حكم الاعدام .. ولم يكن سماعه حكم الاعدام يعنى لديه سوى بضع كلمات يقولها القاضى ، لولا انه اتضح له بالامس فقط انه يمكن أن يكون هو ذلك الشخصالمحكوم عليـــه بالاعدام ولا يزال يمكنه ان يكون الشخص الثامن ..

كان المحكوم عليه بالأعدام فى الثانية والثلاثين ــ اى فى مثل سنه تقريبا ــ رقيق التقاطيع ، خجولا ، حييا ، له انف دقيق كانه أنـــف فتاة ، وعيناه عسليتان تدوران فى أرجاء القاعة كانما تبحثان عن منـــقذ أو معز له فى بلواه .. وكانت تلك هى خامسة جلسات هذه القضـــية وآخرها .. وكانت الدلائل والقرائن على جريمة الشاب واضحة ..

كان الزوج قد دخل وهذا الشاب يضاجعها ، فلما هم الرجـــل بخنقه بيديه ، أمسك الشاب خنجرا كان يحمله معه تاهبا لما عســـاه يحدث ، وظل يطعن الرجل حتى مات .. وكانت المرأة تولول فى هـــذه الاثناء جزعا على زوجها وعلى عشيقها ، فاقبل اكثر من جار وشهدوا بعيونهم الشاب وهو يطعن الزوج طعناته الاخيرة ، واعترفت المـــرأة

بالقصة وحاول الشاب الانكار فى أول الامر ، لكنه ما لبث أن اعترف فثيابه الملوثة بالدم ، وبصمات اصابعه على الخنجر وشهادة الشهود كلها ناطقة بجرمه ..

وتذكر محجوب موعده مع حسنية فى عصارى اليوم ، وماذا يحدث لو دخل عليهما أبوها ؟ أما يمكن أن يكون هو الشخص الثامن الذى سيقف فى القفص المرة المقبلة ويسمع حكم الاعدام على نفسه من فم القاضى .

وعندما صحا من نومة الظهيرة كانت أمه العجوز تتشاجر مع بائع الفجل .. ولم يكن هذا جديداً عليه .. فقد كان محجوب يسمعه فى حارة الزرايب كل يوم من أمه ومن الجارات مع بائعى الفجل والفول ومع الست أم حسن بائعة الطعمية على طرف الحارة الشرقى .. ومع ذلك فقد انصت اليوم فى دقة آلى النقاش الدائر بين امه وبائع الفجل.. كانت أمه تريد شراء ست حزم بعشرة مليمات وكان البائع يصر فىصوته الاجش الغاضب على أن يبيعها باثنى عشر مليما .. وكان حجة امه فى رأيها انها ستشترى بسعر الجملة وكان الرجل مصرا على أن يبيع كل حزمة بمليمين مهما كان مقدار ما يبيع .. واثار هذا الشجار فى نفسه مجموعة من الأحاسيس المتشابكة المختلفة الممتدة كانما الى اعماق سوداء مظلمة لا اخر لها ، احساس بالاشمئزار وبالحقارة وبالضعة التى تبلغ حد الجريمة ، وبرطوبة الحارة وقذارتها والوحل المتراكم فيها ومجموعات الذباب المزدحم على انوف اطفالها وعيونهم وأفواههم ، وبالشجار الذى لاينقطع خارج البيوت وداخلها ، وبالكابوس الجاثم من الازل على معدته وعلى روحه .

وتذكر موعده مع حسنية .. كان يحلم بهذا الموعد منذ اكثر من اسبوع ، وان كان يمهد له ويعد العدة منذ شهور .. كان الرجال ينقسمون امامه الى قسمين : رجال لهم نساء ورجال بلا نساء ، وكان يعذبه انه من رجال القسم الاخير .. وانه ليحرم من الطعام ليلة ويعيش أشهرا على الفول والطعمية والفجل ، لكن الناس جميعا يأكلون ، أما هذا الجوع الجنسى فهو أزلى لايتساوى فيه الناس .. وتذكر حكم الاعدام بالامس ..

وعبر محجوب على ام حسن فلاحظ انها علقت فوقها اليوم لافتة قديمة قذرة كتب عليها « هذا من فضل ربى » ، ووصلت أنفه رائحة الطعمية .. أما هى فكانت مشغولة بضرب طفلها محمد ضرباً سريعا متلاحقا ، وطفلها يزعق زعقات متقاطعات متحشرجات .

وظل يسير من حارة الى حارة ومن زقاق الى زقاق ، حتى وصل الى الطريق العام حيث وقف ينتظر الترام .. وملا رئتيه بالهواء المضىء الجاف وملا عينيه بمناظر الفتيات المتأنقات الناعمات .. حتى اقبل الترام مزدحما ، فتعلق بسلمه واخترق الواقفين حتى وجد نفسه بالدرجة الاولى .. لم يكن بها سوى رجل بدين يرتدى جاكتة بيغماء ، راسه صلعاء وقد برزت فوق جبهته كرة صغيرة من اللحم ، فدفع الباب الى الدرجة الثانية . واوجد لنفسه مكانا بين المزدحمين ، وحدثت المعجزة .. فقد قام شخص بدين تفوح منه رائحة العرق ليجلس مكانه محجوب وكانت جلسته الى جانب فتاة رفيعة متبرقة قد كشفت عن احدى ذراعيها فبدت من خلال الملاءة السوداء بيضاء ناعمة طرية واحس محجوب بالدفء وطراوة اللحم الى جانبه ، واخذ يتحسس - فى حذر - طريقا لذراعه الى جانب ذراعها حتى التصقت بها ولم تحرك الفتاة ذراعها ، فاطمأن محجوب الى انها راضية بهذا اللصاق مما اضاف الى لذته الحسية لذة خفية سعيدة بالانتصار .

وكان على جانبه الآخر شاب فى بذلة عمالية بها بقع من الزيت هنا وهناك ، يقرأ باهتمام احدى الصحف المسائية ، فلم يلهه التصاق ذراعه بالحسناء المتبرقعة من ان يقرأ الصحيفة على طريقته التى تعودها كل صباح .. ذلك ان يمد بصره الى العناوين الضخمة فى الصحيفة التى يقرؤها الجالس الى جواره او الواقف قبالته فى زحمة الترام ..

كان ابوه من اهالى دمياط ، وانه ليذكرها حين يصحبه فى صغره اليها ، ولا يزال يذكر سوق الحسبة والشيخ محمد الذى يحمل السلاسل والحديد حول عنقه ويدور وسط الميدان والناس يتباركون به .. وكان يصحب اباه الى راس البر وقت اعدادها للمصيف .. ولم يكن يحسب انها فى حاجة الى مليم واحد .. اما حارة الزرايب !!

وافاق من تفكيره حين لمح الفتاة الى جانبه تقوم لتغادر الترام وحين اخذ يتعالى شجار قاطع التذاكر مع احد اولاد البلد ، ونزل اخيرا من الترام فى طريقه الى حسنية ، وقد بدأ يحس حاجته الى الحماس كى يواصل سيره .. فقد بدأ يغادر الطريق العام الفسيح المضىء ويخترق الازقة من جديد .. وراودته الرغبة ان يقفل راجعا الى الحوش يصب الماء ساخنا يغلى هذه المرة .. واحس انه لايطيق صبرا حتى يذهب الى حسنية ثم يعود ليجرب تجربته الجديدة ومر على عم على والد حسنية .. كان منهمكا فى ترقيع احد الاحذية القديمة فى مكانه المعهود بجوار الحائط الخشبى ، ووقف الى جانبه احد الاهالى كانما ينتظر اصلاح حذائه ، وتفرس محجوب هذه المرة جيدا فى عم على ، كان رجلا

هزيلا كث اللحية ابيض الشعر .. أن في الامكان قتله لو انه فاجاه مع حسنية .. وعاوده الاحساس بالاشمئزاز والحقارة والضعة والكراهية، ثم الحرمان ، الحرمان الضخم المخيف الذى يدفع الى كل جريمةوالى كل جنـــون ..

ورآها واقفة على باب الدار تستقبله بابتسامة عريضة ، وفيعينيها شهوة وفى وجهها الم وفقر وحرمان ، وكانت تفوح من مدخل الـدار رائحة كريهة قذرة ، بينما كان أخوها الصغير محمود يزحف علىتراب الارض .. واختفت حسنية لحظات ثم عادت تنظف آلارض بقطعة من الورق .. كان شعرها غزيرا ناعما ، وبدأ عجزها ، وهى منحنية تنظف الارض ، مستديرا ملفوفا خلف ثوبها الاحمر المتمزق .. وعادت حسنية ترحب به .. ومرت أمامه صور من المدينة الباهرة ، فاجلسها اليجانبه وهو يقص عليها قصة أمس وحكم الاعدام الذى سمعه كأنمـا يريد ان يخيفها .. أما هى فكانت تقترب منه فى تهالك واستجداء تريده أنيقبلها

منذ خمس سنوات وهو يقوم بمثل هذه المغامرت .. ولم يحس فى يوم واحدانه حصل على أمراة .. وتذكر راس البر ، ماذا لو كـان الان مع واحدة من حسناواتها هناك ؟ أنه لايرقى ولا يتغير ولا يتحـرك .. ولقد ظل حاجبا بالمحكمة منـذ خمس سنوات وهو لا يأمل ان يكون خيرا من ذلك فى مقبل الايام ، ولقد ظلت حارة الزرايب بوحلها وذبابها وشجار اهلها هكذا منـذ خمس سنوات ، بل منـذ تاريخ لايعرفه متى بدأ .. ولقد ظل يضم اجسادا كجسد حسنية فى جنح الليل ، أو بعيدا عن العيون كالمجرمين واللصوص ومع دلك فلم يكن له بيت ولا اطفـال كما يكون للاخرين .. انه يدور ويدور لايتقدم ولا يتطور .

وكانت حسنية لاتزال تحاول مداعبته فنظر الى عينيها التعبتـين المتألمتين والى الشهوة التى تضج فى جسدها أمامه .. وتذكر فكرة الماء السـاخن الذى سيصبه على بيـوت النمل فى «الحوش» بحارة الزرايب فضمها الى صدره ضمة قصيرة عنيفة ، وطبع على جبينها قبلة ، ثمخرج يهرول ..


القيظ

محمود شاب مثقف ، وهذه لعنة كافية فى هذا العصر .. فهو شغوف بأن يخلق الصعاب زاعما انه سيتغلب عليها ، فمثلا ، عندما صحا صباح هذا اليوم تخيل ان تدخينه للسجائر اصبح عادة سخيفة تسيطر عليه ، وهو يحب أن يكون حرا ، فالحرية عنده لاتكون احيانا الا محاولة الافلات من عادة كتدخين السجائر .. ولهذا قرر ان يمتنع عنها منذ اليوم .. وهو لايدرى لماذا اختار هذا اليوم بالذات من هذا الفصل من العام . فهو يزعم انه لولا هذا القيظ الملعون الذى غمر النهار كله منذ الفجر ، وجثم على انفاس المدينة ومنازلها الضيقة المزدحمة ، لاستطاع ان ينتصر فى معركته التى خلقها ، غير ان شدة الحر سببت له صداعا شديدا ، وأضعفت قليلا من هذه الرغبة فى اقامة أى نوع من المقاومة .. وهكذا عدل عن محاولته بعد ساعة واحدة من قراره ، ظل فى كل دقيقة من دقائقها يذكر أنه لن يدخن ، لن يدخن .. حتى تضخمت امامه كل الاشياء ، ورقصت الحروف التى كان يقرؤها ، وسال العرق فى خفة على جبهته ، وامسك بالسيجارة فأشعلها ثم ذهب فى شبه غيبوبة نشوانة .. لكن هذا لايحدث للمثقفين فقط ، بل هو يحدث لكثيرين ممن يتنبهون فجأة فيجدون عادة قد سيطرت عليهم ، وبذا يقررون ان يقيموا معركة بينها وبينهم ، وما من سبب الا ان يثبتوا أمام انفسهم أنهم أمام قوى لا يخضعون لها ، وهم يجدون فى هذا مرانا لذيذا لارادتهم ، غير انهم يدركون بعد ساعة واحدة ، أو ربما بعد شهور أنهم خلقوا معركة كى يثبتوا فيها هزيمتهم على أنهم يحتفظون على اية حال بذكرى ذلك الصراع ، ويقصونه حين تتقدم بهم السنون ، فهو قد دام ساعة أو ثلاثة عشر يوما أو سبعة شهور وهكذا .

وفى الضحى كان الطريق المهجور يتعذب من الظمأ .. وفى زاوية من زواياه برز شاب يجفف عرقه وهو يتجه نحو بائع السجائر .. وفى المساء كان عليه أن يقابل (الهاما) — وهو اسم جميل بلا شك — ويخبرها انه سيخطبها ، غير انه سيعلق خطبتها على شرط عليها أن تنفذه .

وفى المدينة كان الثلج قد نفد ، فكنت لا تستطيع الحصول على شىء مثلج الا بثمن مرتفع ، وكانت اعمدة الترام النحاسية لايمكن لمسها .. بينما اكتظت الفتيات وهن يمسحن عرقهن ومساحيقهن محشورات بين رجال ثارت غرائزهم ، وفى الطريق كان السائرون يتجمعون كالذئاب حول بائعى الغازوزة وعصير الفواكه والقصب يجففون عرقهم ويلهثون كالكلاب ..

اما أمه فكانت قد نسيت أن تغلى اللبن ففسد ، وأخته تعانى مغصا ، بينما وقفت حمارة فجأة وسقط الطريق المهجور وافسحت مابين قدميها

الخلفيتين ثم دوت قليلا هذه الارض المعذبة .. ووراجت اشاعة في المدينة مؤداها أن العالم كله أصبح شبرا ، فرأى الله أن يوفر على نفسه عمليـة نقل الناس الى الجحيم بأن جعل من الارض نفسها جحيما ..

على أية حال ، كانت فى حياته ثلاث فتيات ، احتللن بؤرة حيـاته الواحده بعد الاخرى كعربات القطار .. أما على هامش حياته فكان ثمة عدد اكثر قليلا ، وهو لا يفصل بين الحب والشهرة .. ذلك الفصـل الذى شاع بين شباب العصر وفسره علماء النفس بانه تعلق بالام .. فكل من كان محمود يحب روحها فهو يحب جسدها كذلك .. غير أن هؤلاء اللاتى يضعهن على هامش حياته قد أحب منهن اجسادهن دون التعلق بأرواحهن .. ومن الغريب – فى رأيه – ان الفتيات الثلاث بخـلن عليه بأرواحهن واجسادهن بينما بذلت له الاخريات ما اراد بغير ما مقابل الا اللذة العابرة..وكان ما يدهشه ويحيره فى حياته حقا ..

وقد اضطر اصحاب الموتى فى المدينة ان يعجلوا بدفن احيائهم الموتى فى هذا اليوم قبل أن تزكمهم رائحتهم النتنة .. وعندما جاءت الظهيرة كانت المحال العامة تروى ظمأ زبائنها .. بماء يكاد يغلى لان المياه الباردة اتى عليها رواد الضحى .. ورجال الحريق كانوا على استعداد لتلقى أى نبأ ، بينما ازدحمت الحمامات وارتفعت فيها الاسعار ، واعلن الراديو أن المدينة لم تعان مثل هذا القيظ منـذ أكثر من نصف قرن ..

وكان على محمود أن ينتظر حتى المساء .. ولن يخلصه من ملـل الانتظار والحرارة الا التدخين .. وكان القيظ فظيعا حقا ، فعندما ارسل غلامه الصغير كى يشترى له السجائر ، عاد يزعق .. فقد كان حـافى القدمين ، وأرض الطريق قد اكتست بالجمـر .. فاضطر أن يخـرج بنفسه الى الطريق المهجور ، وهو يحس انه يسير وسط اتون ، وان ثمة دوامات نارية تنبعث من أسفل ومن فوق ومن شمال ومن يمين ومـن الوراء ومن الامام ومن هنا وهناك ومن كل مكان .. لكنه واصل سيره بشجاعة حتى وصل الى بائع السجائر .

وكان بائع السجائر شابا صغيرا ضاعت احدى عينيه فى حـادث ما – ربما اقصه عليك فى قصة اخرى – فوضع عليها زجاجة لنظارة سوداء ربطها الى اذنيه بقطعتين من قماش ، وترك العين الاخرى تتمتـع بحريتها ، وكانت هذه الطريقة – فى رأيه – كفيلة بأن تخفى عاهتـه أمام الخادمات اللائى يأتين بقباقيبهن ليشترين منه السجائر لاسيادهن ، غير ان هذا لم يكن رأيى ، فقد كان من المؤكد أن جميع الذين عبروا عليه لاول وهلة ، يدركون ان خلف هذه الزجاجة السمراء شيئا مخجـلا لصـاحبه ..

وكان اسم بائع السجائر ايضا محمود .. وكان محمود ــ بائع السجائر ــ قد رأى محمودا ــ المثقف ــ آتيا من زاوية الطريق وعرف انه يقصده ، فأبعد الجريدة من أمام عينه ــ السليمة طبعا ــ وقد جمع منها محصولا لاباس به ظل عالقا منه بذهنه شيئان : النظام الجديد للتجنيد الاجبارى فى مصر ، والحرب العالمية الثالثة .. وكان ككل الذين حوله ــ يهتم بالموقف العام كى يرى أين هومنه ، وقد ربط ربطا آليا بين التجنيد والحرب ففزع بعض الشيء ، ولو انه اطمأن آلى انه لن يجند بسبب عينه « الفاسدة بالطبع هذه المرة » .

غير أن محمود كان يبتسم ، وكان يفكر فى نفس ما يفكر فيه محمود وكان مثار الابتسامة على شفتيه فكرة فلسفية .. ذلك ان التجنيد والحرب سيخلصانه من اشياء كثيرة متعفنة فى نفسه ، وسيغيران من حياته الخاملة الرتيبة ..

واقترب محمود من دكان محمود ، وظل يسير وسط اللفح واللهيب فى الطريق المترب ، حتى رأى نفسه مقبلا نحو نفسه فى المرآة التى علقها أمام دكانه ..

كان محمود البائع سيعقد خطبته الليلة .. والواقع انه كان ينوى الزواج الا انه لم يوفق فى العثور على مسكن باجر مناسب بسبب أزمة المساكن .. وقد رأى أن يدعو محمودا ، لعل الدعوة كانت للاخبار فحسب .. قال له :

ــ ستاتى الليلة يامحمود بك ؟

ــ وكان محمود (بك) مشغولا يتطلع باحثا عن سيجارته المفضلة فالتفت الى محموود وقال :

ــ لاحضر كتب الكتاب ؟

ــ بل مجرد خطبة فى الساعة الثامنة من مساء اليوم .

ــ ولن تعلق خطبتك على شرط معين ؟

ــ ماذا ؟ .. آه .. ماأكثر الشروط والاشتراطات يا سيدى فى هذه الامور وهى من جانب اهلها اكثر مما هى من جانبى .

ــ وهل عندك اليوم تبغ بدلا من اللفائف

ــ نعم ياسيدى ، بلا شك ، هاك

لقاطعه محمـــود :

ــ ما هذا الحرارة ؟ لقد قال المذيع اننا لم نعرف مثل هــذا منذ حوالى ســـــتين عاما . .

وعبرت عليهما موجة من اللهيب، ثم غمرت الطريق كله ، واستقرت بعض اللحظة ، ومحمود يعرض على محمود أصناف التبغ . .

ولم يكن فى امكان محمود أن يلحظ نفســـه فى المرآة المعلقة وهو يبتعد شيئا فشيئا عن نفسه .

وفى مساء ذلك اليوم رئى محمـود وهو يدخن غليـونه فى مشرب مارلى بشارع قصر النيل أمام مكتبة كتان .

كان قد تحرج من رفض الدعوة فوعده بالحضور . . وكان يدرك انه فى مثل هذه الساعة تماما سيذهب ليفقد فتاته الهام .

ولسنا نعرف ما هو اسم عروس بائعنا محمود ، وليس من المستبعد أن تكون الهام كذلك ولكن لا تتسرع وتظن أن هناك حيلة قصصية تجعل من الهام عروس البائع هى نفس الهام الفتاة الثالثة فى حياة محمود شابنا المثقف ، فوجود الهوات بين هذه الفئات تجعل حدوث هذه المصادفات أمرا نادر الحدوث . . ولماذا نذهب فى الاستدلال بينما الواقع يقول لنـا أنه فى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم كانت هناك فتاتان ، احداهما تزف او تخطب الى محمود فى حارة المغربلين رقم ٣ حيث أضيئت الكلوبات فأضافت الى الحر حرارة ، والاخرى تجلس مع محمود وهو يدخن غليونه فى مشرب مارلى .

لم يكن محمود واثقا من نفسه الى هذا الحد الذى به يعلق خطبته لفتاة على شرط تنفذه هى أولا . . فهو يدرك أنه ليس أسهل من فقـده الفتيات ، فلقد فقد من قبل فتاة وفتاة غير أنه كان يحس أن حياته اليوم قد وصلت الى مأزق ، وكان هذا هو الذى يقويه ويجعلنا نتوهم أنه واثق من نفسه كل الثقة ، بينما هو لا يملك ما يضمن به شيئا . ثقة اساسها الاستهتار . . وهى أن نفذت هذا الشرط فلربما نجا من المأزق ، فان لم تنفذه فاما ان يظل يحيا حياته المنحرفة المظلمة الكئيبة ، واما ان يتزوجها فيرتبط بها ارتباطا سخيفا من نوع ارتباطه باللفائف والتبغ ، حيث يقيم معركة بينه وبينها من حين لآخر كى يجرب شخصيته ويمتحن ارادته . . اذن لم يكن يرى الحرية ــ مثلما يراها بائع السجائر وأمثاله ــ فى الارتباط بعادة يحبها ويألفها . . واذن لم يكن بينهما ما يمكن ان نسميه بالحب بل هو نوع من العملية الحسابية التى قام بها محمود وحده ورأى أن يشمل فيها الهاما أو يدعها الى الابد .

ولم يكن هناك غيرهما فى المكان غدا أصحاب المشرب وخدمه .. وطلبا شرابا مثلجا ثم شرابا ساخنا ثم آخر مثلجا .. ونضح العرق من وجهيهما وملابسهما وهما يتحدثان حديثا فيه الضحكات حينا وفيه الارهاق اكثر الاحايين .

اما سكان المدينة فكانوا قد اكتظوا رجالا ونساء فى دور السينما التى تعرض قصصها وضجيج موسيقاها فى الهواء الطلق ، وعندما ارتفعت درجة الحرارة بحيث سجل مقياسها اربعين درجة أصبح يخشى ازديادها فيتعرض بذلك خمسمائة على الاقل من سكان المدينة للموت بضربة الشمس .. وفى الساعة الثامنة والنصف أذاع المذيع للمرة الثالثة تقرير مصلحة الطبيعيات ، ويقول ان درجة الحرارة تستمر أربعا وعشرين ساعة ثم فى فجر اليوم التالى يعتدل الجو .

ولن أوهم القارىء بأننى لا أعرف ما دار بينهما من حديث ، بل اننى لادرك الآن مبلغ الرغبة فى تعرف كنه هذا الحديث . ولكنى اخلص اذا قلت انه حديث ليس من المستبعد أن يبدو تافها سخيفا ، فما اكثر ما يجعل الآخرون سعادتهم تتوقف على شروط تبدو لنا من وجهة نظرنا تافهة سخيفة ، وفى مجرد سردها املال ومضايقة لنا .. أليس من الافضل أن تجعله انت أى شرط يمكنه أن ينال من تقديرك بحيث يصبح أهلا لخلق مأزق اذا لم يتم تنفيذه ؟

على أية حال لقد رفضت الهام هذا الشرط ، رغم انها لا تمانع ــ ان لم تكن ترغب ــ فى الزواج من محمود ، فقد كان هذا الشرط يحتاج منها الى أن تبذل قليلا من الجهد ، وهى ترى ألا تبذل اكثر مما بذلته فى فى سنواتها العشرين الماضيات .. كان يطلب منها أن تكافح بعض الشىء لكى تصبح أكثر نضوجا وثقافة ، وهو مطلب غامض لا معنى له لديها .. وما كان ليطلبه الا مثقف مثل محمود ، فهو يرى انهما بهذا فقط يستطيعان أن يعيشا معا خيرا مما يعيش سيد مع خادمه .. أما الهام فقد شكت فيما اذا كان محمود جادا فى علاقته القصيرة الماضية بها ، وجادا فيما يطلبه منها الآن .. كان كل منهما حرا مستقلا عن الآخر ، لم يعرفا بعد الحرية التى لا تحيا الا فى الضرورة .. عندما يصبح كل منهما ضرورة للآخر .

وخرجا وذراعه ملتصقة بذراعها ، والعرق ينضح كثيرا من جسده وأقل قليلا من جسدها ، كان يمكنه أن يتزوجها ، وكان يمكنه أن يدعها ، غير أن العقبة التى خلقها من أجل أن يحصل على الهام لم يستطع التغلب عليها .

وهو يمكنه الآن أن يستمر يحيا حياته الممزقة الكئيبة ، وهو يمكنه أن يرتبط بها ارتباطا أسخف من ارتباطه بلفائف الدخان .. وحاول عبثا أن ينام .. كانت غرفته شديدة الحر ليست أقل لهيبا ، فالقيظ يندلع فى كل مكان ، وعب كل ما فى المنزل من مياه باردة حتى سبح فى بحر من العرق فاضطر أن يخلع كل ملابسه وينام عريان .. ومع ذلك فقد ظل ساهرا وهو يذكر أنه عد فى تلك الليلة مائة نجم فقدها فجأة فبدأ يعد من جديد .

وفى الصباح التالى أخذ الجو يعتدل .. فبدأ يغفو قليلا قليلا ،بينما فتح محمود دكانه ومضى يرقب العابرين .


الطريق



ميدان العتبه يكاد يكون ازحم ميادين القاهرة ، لا سيما فى الصباح، حين تكون الكتل البشرية المتراصة فى ا لترامات والسيارات اخذت تزحف نحو المكاتب والمخازن والمصانع .. ويختلط الضجيج بالحركة كأنك تشهد فيلما أمريكيا عنيفا ، فالسيارات مع العربات مع الترامات مع الكائنات البشرية ما بين باعة وموظفين وسيدات من كل نوع وجنس ، يعبرون هذه الطريق دفعة واحدة ، حتى اذا أشار شرطى المرور بيده وأطلق صفارته وقفت حركة هذا الطريق دفعة واحدة ، وزحفت حركة الطريق الآخر تكتسح الهدوء المؤقت الذى ساد فيها بعض اللحظة .

ومن الميدان تمتد عدة طرق تبتلع هذا العدد الزاخر من الترامات والسيارات والخلائق البشرية المنطلقة على اقدامها ، وتصب فى الميدان كتلا أخرى .. وفى الطرف الشمالى من الميدان تمتد احدى الطرق الكبرى ، تأخذ من الوافدين على الميدان بقدر ما تدفع اليه .

وكان محمد افندى عجور – وهو اسم قد يبدو مضحكا – يسير مسرعا كأنما يهرب من الميدان منطلقا فى تلك الطريق ، وهو يبحث عبثا عن سبب لاحساسه بالقرف ، وأمامه تماما – وعلى بعد ثلاث خطوات منه – كان الاستاذ قدرى يسير بسرعة اقل .. والاستاذ قدرى هو أستاذ علم الجراثيم باحدى كليات الطب ، وقد أتيح له – بما له من علم – أن يدرك الى أى حد يزدحم الهواء والطعام والملبس بالجراثيم ، والى أى حد تتربص الاوبئة والامراض فى كل مكان لتفجائه ..

وقد حدث أن التقى الاستاذ الطبيب بعجور افندى من قبل فى غير هذا المكان وفى غير هذه الظروف ، ربما كان ذلك منذ عشر سنوات ... عندما ذهب عجور افندى مع قريب له يعرف الاستاذ الطبيب ليحقن باللقاح الواقى من مرض معد كان منتشرا فى تلك الايام .. وقد أبدى الاستاذ الطبيب فى ذلك اليوم كل مواهبه واحتياطاته .. وافاد كل الافادة من علمه وسعة اطلاعه ، فقد كشف عن ذراع عجور افندى ومسح بالمحلول المطهر على مكان الحقنة ، ثم لم يعجبه ما فعل فعاد من جديد يمسح على ذراع الرجل كأنما هو فنان ناشىء يرسم على لوحة زيتية ، وعجور افندى مغمض عينيه يتوقع ولوج الابرة فى ذراعه فى اية لحظة ، ثم طهر الابرة على النار ثم غمسها فى محلول مطهر ، فهو يعلم الى أى حد يزدحم الهواء بالجراثيم .. وقد انصرف عجور افندى وقريبه وهما يحملان ذكريات يتندران بها كلما جمعهما مجلس .. ورغم ذلك فلا تحسب أن هناك الآن أية صلة من التعارف بينهما ، فقد كانت القصة منذ زمن بعيد ، وعجور افندى قد يتذكرها ولا يتذكر وجه الطبيب ، وكان مشغولا بقرفه بحيث يصرفه عن تذكر اية نادرة مضحكة ذات ماض بعيد فالصلة بينهما الآن هى صلة الطريق فى هذه الساعة المبكرة من الصباح .

وكان يمكنك ان تستدل بسهولة على أن ذلك كان فى الصباح لان الطريق ـ كما يقولون بلغة المجاز ـ كانت تستيقظ ، فالمطعم الذى يبيع الفول والطعمية يكاد يزدحم بالعمال يتناولون فيه طعام افطارهم ، والحلاق لا يزال يفتح صالونه فى تثاؤب ، وبائع السجائر ـ والحشيش احيانا ـ لم يمر به غير عشرين من زبائنه ، والهواء بكر لم يلوثه بعد عرق الكادحين ولا جهدهم المتواصل المستديم .

وكان الآن عجور افندى قد حاذى الاستاذ قدرى وأوشك أن يسبقه حين تذكر فجأة سبب استيائه واحساسه بالقرف .

ولسنا ندرى ابدا ما الذى حدا بهذين الشخصين أن يسيرا فى مثل هذا الوقت المبكر فى تلك الطريق .. فالساعة الآن السابعة والثلث،وعجور أفندى موظف بالحكومة المصرية ، ويبدأ عمله فى تمام الثامنة ، وقد أمضى فى هذا العمل نحو خمسة وعشرين عاما بين شبابه وكهولته ، كان فىخلالها مثال الموظف الامين ، يستيقظ متأخرا دائما ، ثم يقوم فى عجلة ليرتدى ملابسه ، فاذا لم يجد أمامه فسحة من الوقت فليس من الضرورى أن يغسل وجهه بل يكتفى برشه بالماء رشا خفيفا ، ثم يهرول حاملا افطاره تحت ابطه ، ليصل دئما فى الميعاد .. اما الاستاذ قدرى فمحاضرته فى الجامعة تبدأ فى تمام التاسعة وليست طريقه من هنا أبدا ، فهو لا يسكن هذا الحى ، ولا تقع هذه الطريق بين مسكنه والجامعة ، وهو يدرك ان الشوارع المزدحمة بالناس هى أزحم الشوارع بالجراثيم .. فضلا عن أن اليوم كان يوم الجمعة ، وهو يوم عطلة للاساتذة والموظفين .

وكان ثمة شىء هام جدا يشغل الاستاذ الطبيب ، ذلك ان أحدهم تقدم مساء الامس بالذات ليخطب منه ابنته عفاف ، وعفاف وحيدته ، وهو يدرك أنه يحبها أكثر مما هى تحبه ، وكان يعلم انها ستفارقه يوما ما ، غير انه لم يكن يحب أن يواجه نفسه بهذه الحقيقة ، كما كان يجيد تأجيل التفكير فيها.. حتى زاره بالامس شاب انيق اناقة ظاهرة ، لا يزيد عمره فيما يبدو عن الحادية والعشرين ، يضع عوينات أمريكية وينتعل حذاء لا صوت له ، واخبره أنه سيتزوج عفافا خلال الشهر القادم ، وأفهمه بطريقة غير مباشرة انه لم يأته لطلب موافقته بل لمجرد التبليغ ومن باب الذوق وكى يتعرف به ، فهو متفق معها وهى متفقة معه ، ثم حياه فى ادب وانصرف ، وكان هذا أمرا غير مألوف فى مصر فى ذلك الوقت وكانت عفاف قد أشارت الى شىء من هذا القبيل لوالدها ذات مرة ، غير أنه لم يحسبها جادة فى الامر . ولم يكن ثمة قرار معين قد استقر عليه رأيه وتشغله الآن طريقة تنفيذه ، بل مجرد حيرة لا يعرف لها حلا .. فهو لا يدرى هل يوافق على زواجها أم لا يوافق ، واذا مانع فهل تراه يستطيع السيطرة على الموقف أم لا يستطيع ، وهل تراه يفرح أم يكتئب،

وهكذا انطلق يسير متظاهرا بقراءة واجهات المحال ومراقبة وجـــوه العابرين .. فهنا عمامة وهناك طربوش .. وهذه عربة وتلك دراجـــة وهذا عابس ، وذا باسم ، وهذه لحية وذلك شارب ، وثمة مقهى وثمـــة مطعم ، ودكان صابون ومخزن خشب ومحل قماش فأحذية فســـاعات فجبن وزيت وزيتون ، فرائحة تفاح ، فرائحة خبز ، فصوت ســـوط ، فأرض الطريق ، فطرف البنطلون ، فوجهان فوجوه فوجوه فوجوه ،فوجه عجور أفندى — بغير أن يعرف اسمه طبعا — بظهره المنحنى قليلا ،ولحيته البيضاء النامية قليلا ، وخطواته المسرعة كثيرا ، وكانت هذه هى اللحظة نفسها التى اكتشف فيها عجور افندى سبب قرفه .

والواقع أنه كان هناك أكثر من سبب باعث له على قرفه ، لـــكنه كان يريد أن يختار واحدا بالذات يراه هو المفسر الحقيقى لحالتهالنفسية وقد ظن أولا أنه ربما يكون نفاد المرتب ، فهو فى الايام الاخيرة من الشهر، وهو يعرف مصير المرتب.. سيكون ما بين الخباز والجزار والبـــدال وايجار المنزل وبوفيه المصلحة ومصاريف الاولاد ومطالب الزوجة .. غير أنه أبعد هذا السبب — رغم وجوده — وفكر فيما وجهه اليه رئيســـه الجديد بالامس من كلمات اعتبرها اهانة لكرامته بغير أن يستطيع الرد عليه .. قال له رئيسه ما نصه : انك مهمل ولا تؤدى واجبك كاملا .. وقد آذته هذه الكلمات أشد الايذاء ، واعتبر هذا تجاهلا من رئيســـه للسنوات الطوال التى أمضاها فى خدمة الحكومة بغير أن يوقع عليه عقاب ولا يقدم اليه انذار ، وفجأة عرف السبب الحقيقى لاشمئزازه ، وكان ذلك أمام مكتبة العرب ، عندما اضطر أن ينحنى فى خط ســـيره ليتفادى السائر أمامه — وهو الاستاذ قدرى — ثم يعود فينحنى ليسير فى طريقه مسرعا من جديد .

فى هذه اللحظة وقف الاستاذ الطبيب ثم عبر الطريق ، ففىالجانب الآخر كان قد استلفت نظره محل لبيع المصوغات ، وكانت الالوانالفضية والذهبية والزمردية تبدو كأنها منداة ، فوقف يتأملها ، وقد أشـــاعت هذه الحركة المفاجئة بعض الاضطراب فى سير عجور أفندى ، لكن سرعان ما انتظم خطوه ، واختفت مؤقتا قامة الطبيب الفارعة من مجالهالبصرى، وان ظل ظلها عالقا بمجاله الذهنى .

ولمح الفقاقيع تتصاعد من نرجيلة أحد الجالسين على مقهى ، وهم اثنان أن يتشاجرا ثم عدلا ، ونادى رجل وأجابت امرأة ، واصطدم به طفل وكاد يصطدم بآخر . وأخذت الطريق تزدحم وحركة الســـائرين والراكبين تسرع فيها ، ومما لا شك فيه أنه كان هناك فى الطريقأشخاص كثيرون ليسوا أقل أهمية من الموظف الحكومى والاستاذ الطبيب ، غـــير أنهم ربما كانوا أقل حيرة وأكثر وضوحا فى حل مشاكلهم اليومية ، ومن

بين هؤلاء كان العمال الذاهبون الى مصانعهم ، ومنهم ذلك الصـــانع النحيف الوجيه الذى فتح لتوه دكانه وكان أول الداخلين فيه هو الاستاذ الطبيب .

وسأله عن سعر الذهب اليوم ، وفكر لحظة أن يبيع مصوغات زوجه التى توفيت منذ زمن غير قريب ، ثم استنكر هذا الراى ، ثم عاد يسأل عن ثمن الاقراط والاساور والخواتم ، وتحير فيما عساه يختار .. فلمـا خرج كان يحمل فى جيبه سوارين دفع فيهما كل ما كان معه من نقود .. فلقد كان يحب أمها، وعفاف اليوم شديدة الشبه بأمها .

ومرقت سيارة ومن خلفها دراجة .. وانبعثت فجأة موسـيقى صاخبة من مذياع ما ثم عادت وتلاشت ، ونادى البائع على صحف الصباح ووقف عجور أفندى وأشعل سيجارة وتأمل لهب الثقاب لحظة ثم سرعان ما أطفأه وعاد يسير ، وهو كلما تذكر تفاهة السبب ــ وهو يمسح احدى عينيه التى تطـــاير فيها بعض دخان السيجارة فآلمتـــه ــ زاد هذا فى قرفه .. فالمسألة كما بدت له فى ظاهرها بدأت هكذا .. «وهنا حـك ظهره لسبب ما» ففى المساء عندما حان وقت العشاء أحضرت له زوجه بيضا مقليا ، وهو لا يذوق البيض المقلى أبدا ، وصاح فيها مؤنبا : هــل تعرفين أنى آكل البيض المقلى ؟ .. وأنت ترى من هذا أنه كان مؤدبا فى غضبه عن كثير من الازواج فى ذلك الوقت ، غير أنه لم يكتف بهذا بل تظاهر بقذف الصحن ، وكان ينوى ابعاده عنه فحسب اظهارا لسخطه وتعبيرا عنه «وهنا شاهد رجلا ينزلق فى الطريق فانطلق ضاحكا بصوت مسموع» غير أن الصحن الملعون ظن أن عجور افندى جاد فى غضبه ، فاندفع يتدحرج من فوق المنضدة على الارض ، وظل يتقلب ويدور محدثا صوتا متكررا مزعجا حتى استقر وقد تناثر ما فيه من البيض والسمن ، وكان عجور أفندى جائعا كل الجوع غير انه لا يستطيع التراجع الآن لا ســيما وأن امراته بدأت تدافع عن نفسها . وكان هذا هو أفظع ما فى الموضوع ،فلماذا يتاح لها أن تدافع عن نفسها امامه ولا يتاح له هو الدفاع عن نفسه أمام رئيسه ؟ وهكذا صرخ آمرا أن تصمت ، غير أنها لم تصمت ، وكان قـــد تزوجها منذ خمسة وعشرين عاما ، منذ اليوم الذى تسلم فيه عمـــله تسلمها هى من أبيها ، وتذكر الآن فقط انه كان قد قرأ فى الصحف أن ثمة حركات نسائية ظهرت فى البلد «وهنا شم رائحة كعك ولمح غبارا يتطاير وراء عربة» غير انه ما كان يحسب أن اثر هذه الحركات سيصل الى منزله فيرى زوجه تثور أمامه وترد على كلماته بمثلها . وتزعزع مكانته وهيبته أمام الاولاد الذين رآهم اذ ذاك يتسللون فى خوف وحذر يراقبون المعركة من بعيد .. وعندما حان وقت النوم لم يدعها معه على الفراش ، واغاظه

منها انها لم تبد أى رغبة .. وكان هذا ــ فيما يبدو له ــ سر قـــرفه الحقيقى .

وفجأة وجد نفسه وجها لوجه أمام مصطفى بك رئيسه الجـــديد وكان شابا فى مقتبل العمر ، جميل الوجه أنيق الهندام شامخ الطلعة . يصلح أن يكون زوجا ممتازا لكبرى بناته .. وشوهد عجور أفندى وهو يسرع ويسلم منحنيا ثم يشعر بنوع من الحيرة لانه لا يدرى ماذا يمكنه أن يفعل فى هذا الظرف المفاجيء اكراما لرئيسه .. وقد سأله مصطفى بك متلطفا عن سبب وجوده فى هذه الطريق ، وكان هذا فى الحق ســؤالا محرجا للغاية ، وعجور أفندى ليس حاضر البديهة فيما يبدو ، فكان عليه أن يفكر قليلا .. حتى ســأله مصطفى بك مرة أخرى عن الاولاد وصحتهم .. وكان من الواضح انها أسئلة لمجرد التلطف فى الحديث ولا يهتم صاحبها بأية اجابة ، الا أن عجور افندى بحث عن اجابات دقيقـــة مخلصة .. ورغم أنه لم ينس كلمات الامس الا أن هذا التلطف فـــى الحديث أثلج صدره واشاع الغبطة فى روحه وجسده وازاح عنه مؤقتـــا ذلك الاحساس بالقرف والهم والشعور بالشيخوخة والنقص ، حتى لقد شوهدت ثمة ابتسامة عريضة عالقة بشفتيه عندما انطلق يسير وحـــده من جديد .

فى هذه اللحظة ــ وعلى الجانب الآخر من الطريق ــ كان الاســـتاذ قدرى قد عاد فسبق عجور أفندى ، وكانت خطواته الآن قـــد انتظمت بعض الشيء واسرعت قليلا عن ذى قبل ، وفى تفكيره لم يكن قد استقر بعد استقرارا تاما فيما يتعلق بمستقبل عفاف ، وفى جيبه كان يحمل سوارين كمفاجأة وتهنئة ، ثم أصبح تتبعه عسيرا وسط الزحام المتكاثر ، فكان يختفى حينا ويبدو حينا ، ثم أصبح يختفى أحيانا ويظهر لماما .

وسعل رجل وبصق آخر ، وتدلت الذبائح الحمـــراء المشوبة بالبياض وقد خرجت برتقالات صفراء من عربة تنهب الارض ، ومرت فتاة واقبلت أخريان ، فثلاثة رجال فأربعة رجال ، والمنازل تقل والحيوانات تتكاثر ، وجانبا الطريق يزدحمان ويزدحمان ، ثم تمتليء الطريق نفسها وتزدحم حتى يكاد يقف المرور ، ويتكاثر الناس ، ويتجمعون فى شبه دائرة ، ربما هو شروع فى مظاهرة ، أو لعلهم يلتفون حول صبى جريح يتأملون فيــه الموت وينزعجون ، وفجأة انطلقت أيديهم بالتصفيق ووجد عجورافندى نفسه أمام الاستاذ قدرى وجها لوجه ، وتفرس فيه قليلا ، وتذكرشيئا غامضا أقلقه لحظة ، لعله شيء قريب جدا ولعله شيء بعيد جدا ، ثم عاد يمد قامته عساه يلمح شيئا وسمع بعضهم يقول انه مزاد أوشـــك أن يبدأ ، ثم سمع آخر يستخف ؟ هذا اراى ويقول بل هو خطيب يستريح لحظة ليعاود الصباح ، وقال ثالث مؤكدا .. بل هو أيها المغفل حاو من

الحواة .. وود عجور أفندى أن يتأكد مما يزدحم حوله الناس فى مثل هذا الوقت من الصباح ، فقد كان يحسب الناس فى مثل هذا الوقت من النهار وفى مثل هذا اليوم من الاسبوع لا يزالون جميعهم يغطون فى نوم عميق .. ومد قامته ومد أذنيه ومد عينيه .. وفجأة أخذت السماء تمطر رذاذا خفيفا – فقد نسيت أن أقول أنه كان يوما من طلائع الخريف – وقبل أن يعرف عجوز أفندى حقيقة الزحام كان الجمهور قد تفرق مسرعا ، فلما انجلت الطريق كانت الارض قد ابتلت بللا خفيفا ، والشمس عادت مشرقة اشراقا هينا رفيقا ، والاستاذ الطبيب قد انغمر فى الزحمة الهاربة ..

وفاحت رائحة عطر فرائحة شواء فرائحة عطر ، وأقبلت فتاة فأخرى ، ثم فتى وفتاة ، ثم فتى وفتاتان ، ثم فتيان وفتيات ، ممتلئين صحة وأملا .. أما هو فكان يحس أنه قد استنفد ، وكان واثقا أن الشيخوخة شاعت فى روحه وجسده ، وانه عبر الطريق من اخرها منذ خمسة وعشرين عاما ، منذ اليوم الذى طلق فيه مدرسته ووجد وظيفته وتزوج .. منذ ذلك الحين وهو يحس أن حياته كبندول الساعة تتحرك من تلقاء ذاتها ، نفس الحركة مرة كل أربع وعشرين ساعة. أما هؤلاء فلما يبدأوا طريقهم فى الحياة بعد ، وهم يستطيعون أن يفاضلوا بين شتى الطرق ويختاروا منها واحدة تلائمهم ، ويجدون فيها أحلامهم ، ويعثرون فيها على كنوزهم المخبأة فى نفوسهم ..

ولسنا نعرف ما الذى أغرى محمد افندى عجور على هذا النوع من التفكير المعقد الحزين ، فهو قد يشيع فى دمائه كسديم عاطفى أسيان ، ولكنه قلما يتضح له هذا الوضوح .. لعله رؤيته لرئيسه الشاب ، ولعله مراقبته حقا للفتيان والفتيات الممتلئين صحة ونضارة ، ولعله قرفه مما حدث له بالامس ، ولعله أن يكون سيره الذى لم يتعوده فى هذه الطريق فى هذا الوقت الحى النابض من النهار ..

وكان ثمة خادم فى الطابق السابع تنظف سجادة على رأس المارين ، وأخرى تدلى بسلتها وتصرخ ، وسائر يقرأ صحيفة ، واخر يحدق فى الفراغ ، وهذا رأسه صلعاء ، وتلك شعرها مسترسل ، وسيارة بوقها يدوى ، ومذياع قرآنه يعلو ، ورجل يسرع وامرأة تتحدث ، وكلب يجرى وطفل يزعق ، وهذا يحيى وذاك يجيب ، وعجور افندى يتذكر أسئلة مصطفى بك ويتساءل حقا عن سبب وجوده فى مثل هذا الوقت فى هذه الطريق ، وأخرج ساعته فاذا هى السابعة والنصف .. وخشى أن يتهم عقله بضعف ما ، فأصر على انه كان ثمة سبب واضح لديه حين غادر منزله هذا الصباح ووصل الى الميدان واتجه فى هذا الطريق .. غير أن حوادث الامس الملعونة ، وغبطته الفاجئة حين التقائه

برئيسه الناقم عليه منذ الامس ، ثم هذا التفكير المعقد الحزين ..

كل هذا ضيع منه هدفه ، فوقف وعصر ذهنه يحاول أن يتذكر ، فلما يئس قفل راجعا الى الميدان وهو يتطلع الى ما فى الطريق عساه يكون ذا صلة بما حمله على المجيء هنا فيعينه على التذكر ..

ومر فى طريقه بالعطر ولحظة المطر ومكان الزحمة والذبائح والغبطة والقرف والكعك والمكتبة والدراجة والمذياع وبائع المصوغات والنرجيلة والمذياع والصابون والقماش والساعات والاحذية والجبن والحلاق والعطر والسيارة والغبار والمطعم وبائع السجائر ــ والحشيش أحيانا ــ ثم الميدان والترامات وزرقة السماء وشرطى المرور وقلقلة العربات وأبواق السيارات ، وانحرف الى الشمال ، واخترق زحام احد الطرق الكبرى الاخرى ، وانطلق يسير عسى أن يكون هدفه هناك ..


الوباء

كانت فى الثلاثين من عمرها ، وهو عمر بدأ منه عظمـــاء كثيرون رسالاتهم .. اذن فقد زلت عندما كانت فى العشرين من عمرها ، عندما كانت قد غادرت سن المراهقة وأصبحت ذات ارادة وذات جمال .. وكانت من أسرة من الطبقة الوسطى ، حيث الحدث الجنسى مرتبـــط بالخطيئة والله والجحيم ، ولما كان الخلاص الوحيد من الجريمة أمامها هو أن تظل مجرمة بقية حياتها ، فقد فرت لتقع فى يد سيدة تديرمتجرا للاشلاء البضة يقصده المحرومون والمعوزون .. غير أن أخلاق الطبقة الوســطى كانت قـد تركت ضمـــيرا عالقا بها ، ظل يزعجهـــا فى الليل وفى النهار ..

وقد مرت الايام ومرت الشهور ومرت السنون وضميرها لا يزال عالقا بها .. واعتادت هذا اللون من الحياة الصريحة العارية المستخفة ، ورات من حولها لا يهزأن بشىء مثلمـــا يهزأن بكل من يحاول اقناعهن بفساد حياتهن ، ومع ذلك فقد ظلت تحس أن هذه مرحلة مؤقتة من تجربة حياتها وعليها أن تمر بها ثم تنفصل عنها الى الابد .. وكان هذا حقا غريبا وشاذا ..

وقد بدأ الامر هكذا .. كان مندبو هيئة الامم المتحدة يهاجمـون بعضهم بعضا ، وفى باريس عقد أكبر مؤتمر دولى فى تاريخ السحر،حيث اشترك مندوبو أربع عشرة دولة نجحوا فى خداع بعضهم بعضا ، فـكان الماء يتحول الى خمر ، وكانت تبدو فى الهواء النقود والسجائر وكرات البلياردو والات الكمان ، وكانت المناديل الحريرية تربط نفسها فى عقد بينما العصى السحرية تمر فى الاجسام ..

وفجأة ظهر الوباء .. بدأ أولا بعشرة أشخاص كانما هو رســـالة شخص عظيم : توفى طالب فى الجامعة وسيدة حبلى وطفلان وخمســـة فلاحين وصبى عبيط أعرج .. وكان هؤلاء هم شهداء الرسالةالجديدة، بموتهم حملوا الخلاص الى بقية الشعب .. ظلوا يتقيأون ويتبرزون برازا سائلا أبيض كالارز حتى جفت أمعاؤهم وتثلجت أطرافهم .. وقد ظن أول الامر أن وفاتهم بالاعراض الواحدة نتيجة للصدفة الخالصة أو هى حوادث تسمم متشابهة ، لكن سرعان ماكشف الطبيب المختص عن الحقيقة التى روعت ملايين السكان ..

وفى الصباح قيل لتلاميذ المدارس أن يعودوا الى منازلهـــم .. وصدر أمر باغلاق الاسواق ، فحملت كل فلاحة دجاجاتها ، وشـــد الفلاحون رباط بهائمهم الهزيلة المعروضة للبيع واقفل الجميـــع الى قراهم .. وكف المثقفون عن جدالهم حول معنى الحيـــاة وعدلوا عن رغبتهم فى الموت ، وتملكهم تشبث مجنون بالارض وانفضت المـــوالد ،

وسارعت الحكومة الى منع الاجتماعات العامة ، وخلت دور السينما من روادها ، واقفرت المطاعم والمقاهى ، وأغلقت الحمامات ومحـــال بيع البوظة .. وأصبح كل فرد ما بين يأس وأمل ، يأس أن يصيبه المرض هو دون باقى الناس ، وأمل أن يصيب باقى الناس دونه هو .. ورأى بعض المتدينين أنه أمر أعمار فى لوح القدر ، ليس الوباء سوى وسيلة اليهـــــا ..

فلما انحدرت شمس ذلك اليوم كانت صـــحف المساء قـد أعلنت انه صدر الامر بوقف الحج هذا العام .. وهكذا رفض الله محاولتها ..

كانت تعتزم فى كل عام أن تحج لتكفر عن حياتها الملوثة ، وتعـود تعرض بضاعة غير جسدها ، غير انها كانت تعدل فى كل مرة ، وفى هـذا العام صامت رمضان ، وقررت الســـفر ، وأعدت الجواز واشـــترت التذاكر ، وسافر من قبلها فوج وفوج .. وعندما أوشـك ان يقـــوم حاجز كبير بينها وبين ماضيها ، ادركت أن الله رفض نقودها ومحاولتها.

وفى اليوم التالى ذكرت الصحف أن الاصابات تسع وعشرون والوفيات سبع ، وفى اليوم الثالث كانت الاصابات أربعا وتسعين والوفيـــــــات احدى عشرة ، وفى اليوم الرابع كانت الاصابات مائة وخمسين والوفيات سبعا وعشرين ، وفى اليوم الخامس هرب أحد الملوثين من قريته الى عاصمة القطر الثانية مخبأ فى برميل بسيارة نقل تنقل البضائع : فمـا ان وصل هناك حتى ارتمى يتلوى ..

وهكذا أفلت الزمام وأعلن ان القطر كله منطقـة موبوءة .. وبدأت المعركة الجبارة بين الناس وعدو صغير منتشر فى الاطعمة والاجساد لكنه لا يرى ، مما مده بقدرة خارقة على ارعاب الناس وازعاجهم ..

ومنذ أكثر من الف عام جاء (فى ذيل الروضتين لابى شامة المقدس الدمشقى) أنه لم يزد نيل مصر واشتد الغلاء والوباء حتى مات أكثـــر الناس جوعا وأكل بعضهم بعضا ..

وفى الوقت الذى كان الناس يتزاحمون فيه حول مكاتب الصحـة يطلبون اللقاح الواقى ، كانت نعمات تستعد للعودة مع أفواج الحجـاج الذين لم يقدر لهم أن يروا بيت الله الحرام هذا العام .. لكن أحدا غيرى لم يكن يعلم شيئا عن معنى الحج فى حياة هذه المرأة ، ولا كان ثمة آخر يدرك أن هذه المحاولة ان هى الا رغبة بلورتها سنوات عشر من الذهب والقذارة والدم ..

وفى ضحى اليوم السابع من الشهر الاول للوباء حاول رجل بدين ان يركب احد القطارات المتجهة الى العاصمة ، فرأى فيه زحمة الناس

وتكالبهم على نحو لم يسبق له مثيل . ادرك انه لايمكنه ان يجد مكانا لشخص واحد فضلا عن انه يحتل مكان شخص ونصف شخص ..

وعندئذ وضع أصبعه فى فمه ، ورآه الجميع يتقيأ فهرولوا فى ذعر

هامسين أولا ثم صائحين :

ــ مصاب .. مصاب ..

ولم يكن فيهم بخيل واحد يحرص على مقعده ، ولا قديس يبقى الى جانب الرجل .. بل تدافعوا جميعهم الى العربة واخلوها كلهاله.. أما البدين فجلس واضعا يده على بطنه كما بدا له من العربة الاخرى وجه فضولى ينظر ليتحقق انه ما يزال على قيد الحياة .. فلما وصل المسافرون الجبناء الى المحط النهائى هرولوا الى الضابط المختص ينتقمون من هذا الذى ازعجهم واخذ منهم مقاعدهم ويبدون له أعمق الاشفاق وأعمق الرثاء ، غير ان البدين سرعان ماخيب اشفاقهم حين فهم الضابط انه استغل مقتضى الحال كوسيلة لايجاد مقعد له ، فما كان من كرم الناس الا ان وهبوه عربة كاملة ..

وهكذا شل الرعب الجميع ..

فى ذلك الوقت كنت انا قد أشرفت على الثالثة والعشرين ، حين كان العالم قد أصبح مهددا بالقنابل الذرية ، وثمة مذابح فى الهند ومجزرة فى اليونان لا تنتهى ، أما مؤتمر السحرة فكان قد انفض ..

فى ذلك الوقت كانت الليمونة تباع بمليمين .. ثم نشرت احدى الصحف أن عصير الليمون الحمضى يقى من المرض .. وسرعان ماارتفع سعر الليمونة الى خمسة مليمات ثم الى سبعة مليمات ثم الى عشرة مليمات ، وأخيرا نفد الليمون من كل مكان وقطف وهو لما يزل أخضر على شجيراته ، وبعد أن كوم كل فى منزله كومة من الليمون عادت احدى الصحف ونشرت أنه قد اتضح عدم دقة هذه المعلومات ، وسرعان ما عاد الليمون الى الظهور ..

وأنا لم أتحدث بعد عن نفسى .. وهذا أمر لاشك متكلف ، فلئن كان من الانانية أو الفردية ان تجعل نفسك محور الحديث فانه من غير الطبيعى الا تذكر نفسك أبداً ..

هذا الى انى كنت صديق نعمات ، بل لعلى أكون حبيبها المفضل .. فحين زرتها لاول مرة مع صديق لى أعطيتها كل ماكان معى من نقود، فمانعت فى أول الامر وأبت أن تأخذ الا أجرها ، لكننى أصررت ان تقبل

كل ما اعطيتها ، ويبدو انها تأثرت بذلك كثيرا مما يرجح انها لم تلق من قبل مثل هذا التعبير عن الامتنان .. أما أنا فلم ابادلها حبها لسبب بسيط ذلك اني متعلق بفتاة أخرى .. فتاة لست أقابلها ولن أتزوجها ولا أحبها ، ولكنني متعلق بها ..

فمنذ السادسة عشرة من عمرى حتى العشرين كنا نتبادل الحب أو هكذا كنا نظن ، أربع سنوات كاملة كأنها مدة أمضيتها فى وظيفة ما.. ثم حدثت أزمة ، أزمة سخيفة ، أبعدتها عنى ، لكنها لاتزال باقيةفي حياتي مسيطرة عليها ، تحطم لى كل محاولة ان أعش سعيدا ..

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعرف نعمات .. قامت لى بأعظم خدمة فى الوجود ، فهناك عندها أردت أن أنسى ولو أنى ما نسيت !!

وكانت تعلنني بين حين واخر برغبتها فى الانصراف عن هذا اللون من الحياة (وهو مالا تقوله أبدا لاحد غيرى) ثم أراها تتردد وتعدل .. ولما كانت تربط هذه الرغبة بالسفر الى بيت الله الحرام ، فانني ما دهشت حين اخبرتنى ذات مساء بما أزمعت عليه من سفر ، تعود بعده لتجد عملا بين جيش العمال والعاملات الذى اخذ يملأ المصانع الناشئة هنا وهناك ..

وفكرت أن اتزوجها ، لكن منعتنى انعام (وهى الفتاة التى كنت أحبها ، وأنت تلحظ قرب اسمها من اسم نعمات) اذ زارتنى فى الحلم، وكانت رقيقة معى كل الرقة ، لطيفة معى كل اللطف ، قبلتنى قبلتين : احداهما فى جبهتى ، والاخرى على شفتى ، واذنت لى ــ رغم الفرقة التى بيننا ــ أن احتضنها قليلا فأحس بدفئها .. ورغم أننى عندما صحوت حاولت أن انفذ ماكنت قد اعتزمته ، الا أن الاثر العاطفى الذى خلفه الحلم كان قويا للغاية : بحيث اننى عندما نمت الليلة التاليةتمنيت أن أحلم حلما آخر ..

وفى الطرق والأزقة والحارات كان رجال الشرطة يطاردون الباعة المتجولين ، ويقلبون لهم الفطائر والبلح والترمس والحلوى وفصائل الذباب تتطاير امامهم، فيهرول الباعة ويختفون عن الانظار من حارةالى حارة ، حتى اذا غادر المكان رجال الشرطة عادوا وافترشوا الارض كما كان ثلاثون فى المائة منه قد اختنق وبقيته تترنح وتعانى سكرات الموت،

كانوا يفعلون وعاد الذباب معهم من جديد

وفى فجر اليوم الرابع عشر من الشهر الاول للوباء بدات الطائرات بالقاء الغازات على الاماكن المزدحمة بالذباب ، وفى ضحى ذلك اليوم فلما كان الغروب أعلن أن ابادته قد تمت ..

ولشد ما دهشت حين رايتني أمام نعمات .. وكان مبعث الدهشة هو أنى سبقتها الى الحج بخيالى .. فرغم أنى لم أحج أبدا ــ وربما لن يتاح لى ذلك ــ الاانني استطعت أن أتخيلها بين هذه الزحمة من الحجاج وأتخيل هذا الاثر العظيم الذى يمكن أن يحدثه فى امرأة مثلها ما تفعله وما تراه وما تفكر فيه هناك .. غير أنى وجدتها امامى فجأة ، فى نفس الوقت الذى كنت اتخيلها فيه على سطح الباخرة ، وفى نفس الوقت الذى كنت أتأمل فيه معنى الحياة ومعنى الموت .. وكان ذلك يوم عيد ميلادى ، يوم أتممت الثالثة والعشرين ، فرأيت أن أحتفل به مع نعمات ..

وفى القرى كان الفقراء يحملون موتاهم على الجمال ثم يذهبون بهم الى الجبل كى يدفنوهم .. لكن المشيعين ــ كالموتى ــ لا يعودون ، يبتلعهم الجبل بعد مايتقيأون ويتبرزون بضع ساعات .. وعندما تمر بقية الاحياء فى أحياء القرية الضيقة ويلمحون علامة على أحد الابواب المغلقة يدركون أن الوباء قد غزا هذا المكان ولا مكان فيه الانسان ..

وكان المساء قد اقترب . قلت لها :

ــ تعالى نكفر عن ذنوبنا ، هيا نطهرها ..

قالت :

ــ كيف ؟ ..

وتذكرت طريق الحج وأماكنه المقدسة الرهيبة .. قلت :

ــ نمشى على جسر من جسور النيل ..

فحملقت عجبا .. كانت تعلم أن مصيرنا الذى نحياه أقوى من أن تنتزعنا منه مشية على النيل ، انه ليس مستقلا عن الارض ، فمن هذه الارض تنبعث قيود وعلاقات تجذبنا دائما نحو مصيرنا الذى نحياه ونحاول الفرار منه .. وهى تعرض والناس يشترون ، حتى اذاعشنا لحظة معا نسينا قصة البيع والشراء ، هى ترضى هنا أنبل عواطفها التى تئدها أمام بيئتها ، وانا أحاول أن أنسى مالا يمكن نسيانه ..

وانت اذا مررت بهؤلاء النسوة فى أحد أحيائهن وهن منتشرات فيه كالذباب لم تشهد غير الاستهتار الذى يزعجك كانسان مهذب ، فاذا اقتربت منهن وجدت أن الامر لايعدو نوعا من التجارة الجادة التىلاهزل فيها ، فاذا اقتربت أكثر من احداهن عرفت تاريخا مؤلما يخلق فى صلتك بها نوعا من الحنان الذى يشيع بعضا من روح الانسانية فى نظرتك اليها ..

قالت انها تشعر ببعض التوعك .. وكنا نسير فى طريق من المدينة شبه مهجور .. وقالت أنها تخاف ، ووضعت يدها على بطنها ومالبثت ان تقيــــأت ..

لا تنزعج ، سأطمئنك ، لم يكن ما أصابها سوى تقيؤ هستيرى وهو نوع من العدوى التى لا تمس الجسد لكنها تصيب الروح . وكان هذا كافيا لالفات نظر رجل الشرطة ، وكان كافيا لان يولى هاربا فلا يعود الا ومعه ضجة من الشرطة والمرضين ..

وزعمت أنها اختى أو زوجى (لست أذكر تماما) وهـكذا وجدنا أنفسنا فى غرفة متسعه بها فراش على الارض قيل لنا انها المعزل ريثمـا يعدون لنا مكانا فى المستشفى القريب .. وكنا وحدنا ..

ولم يأتنا طبيب .. وكان من المتوقع أن يفصلوا بيننا ، فهى مريضة وانا ملوث ، وهى امراة وانا رجل .. لكن لم يجرؤ احد على أن يقترب منا . فقط سمعنا احدهم يصيح قائلا ان اصابتين حدثتا الليلة بالمدينة: احداهما حيث كنا والاخرى بمستشفى المجاذيب !!

وكنت احسبنى فى ذلك الوقت ملوثا ، وكنت أحس اننى قوى بما احمل من مرض ، اننى أخيف بمرضى كل هؤلاء الاصحاء أستـــطيع أن اقترب منهم فأنشر العدوى بينهم وتتساقط جثتهم كأوراق الخريف.. وكانت هى وحدها التى لاتخاف ، لانها المريضة الوحيدة الى جانبى ، ولانها تحبنى ..

ويبدو أننى نمت وقتا غير قصير ، فعندما فتحت عينى كانتالظلمة تغمرنا ، وكنت قد أخذت اتساءل عن قيمة اللحظات التى نعيشــــها لاسيما اذا كان الانسان قد انفصل عن المراة التى ربط وجوده بوجودها .. وفكرت أن أقوم وافتح الباب وانبه الواقف به الى هذه الحقيقة .. لكننى ادركت اننى ملوث ، وانه لن يسمح لى أحد أن اقترب منه لئلا يأخذ منى العــــدوى ويمـــوت ، فلن يلبث أن يهـــرب اذا رآنى ، وحسنـــا يفعـــل ..

واردت ان اتأملها ، فاشعلت عود ثقاب أضاء وجههـا لحظـــة ، وتراقصت الظلال على جدران الغرفة الخاليـــة المتسعـــة .. كانت مستيقظة ، وهى مستلقية الى جانبى فى ثوبها القـاتم الشـــفاف ، وكانت قد تحسنت كثـــيرا وعصـــبت راســـها بمنديل حريرى أزرق ولمحت على وجهى عـلامات كآبة ، وانطفأ النور وعـدنا نتنفس فى الظـــلام .. وكان ايمانهــــا بالحيــاة قد ساعدها على أن تدرك انهـــا ليست مريضـــة ، وكنت قد اشرت اليها من قبـــل أنه قد

يكون مجـــرد تقيؤ هستيرى .. وكانت الان قد تأكدت من صـــحة ما اقول ، فسمعتها تقول ضاحكة :

ـ لماذا انت واجم ياأحمد ، هل أصابك الوباء انت أيضا ؟ ..

ـ بل أنا مكتئب لأننى أقضى ليلة ميلادى هنا ..

ـ بل هيا نحتفل به ! ..

ـ كيف ؟

ـ بأن ادغـــدغك فتضـــحك !

وانفجرت فى قهقهة عالية ، وفجأة صمت ..

ففى ذلك الوقت كان العالم يستعد لحرب جديدة بغير أن يحـاول التخلص من آثار الحرب الاخيرة ، وكان كثير من المفكرين قد اقتنعوا بأن الحياة لا مغزى لها ، وكان الفقراء والبغايا يزحمون العالم ، بينما انتشر الوباء يزحف وينشر الموت والرعب بين الجماهير فى كل مكان ..

وكان هذا هو سر قوتى ، فلى القدرة ان استمر فى قهقهة عالية ، ولى القدرة ان اصمت فجأة فى أى وقت .


المعذبون في الأرض

عندما ولدت له زوجه طفلته الاولى اطلق عليها اسم ربعة ، فلما ولدت في المرة الثانية طفلة اخرى ، رغبة عن التشاؤم فقال زين ما اعطى ، وهكذا اصبح اسمها زين .. ثم ما لبثت زوجه ان ولدت له مرة ثالثة ورابعة وخامسة .. حتى العاشرة ما بين ذكور وإناث ..

وكان عبد الصمد واسرته يسكنون قرية من قرى المنيا هي جزيرة وسط النيل فكان عليهم أن يعبروا النيل كلما قصدوا المدينة غربا في يوم من أيام الثلاثاء حيث يقام السوق فيبيعون بعض ماعندهم ويشترون بعض ما يريدون .. وكان عليهم كذلك أن يعبروا النيل شرقا كلما قصدوا جبل القطم يدفنون فيه موتاهم أو ينقبون بحثا عن الملح أو عن كنز من هذه الكنوز التي تركها لهم قدماؤهم الفراعنة هناك ، كي تصنع المعجزة في حياة شخص أو شخصين من أهل الجزيرة كل قرن من الزمان ..

وهكذا نشأت زين واختلطت بأطفال القرية وتعفرت بترابها . وقد حدث ذات يوم أن داستها جاموسة وسال الدم منها وظنوا انها اصيبت بضر عظيم ، ثم تبين أن طرفا من احد اصابعها قد قطع فحسب ..

وفي سن السادسة اصيبت بقرع خبيث ذهب بشعرها وكان مأساة حياتها حتى بلغت الحادية والعشرين .. وقد حاول أبواها كل الطرق المستعملة وغير المستعملة لازالة هذا القرع فلم ينجحا .. وأخذاها الى طبيب المدينة غربا والى العرب في الجبل شرقا ، واكتوت بالنار ووضعت القطران فوق رأسها ولكن ذهبت عبثا كل هذه الجهود ..

وكانت ربعة فتاة المنزل المدللة ، لاتكاد تقوم بشيء من عمل المنزل او الحقل .. اما الولدان فكانا انانيين مسرفين في الانانية اذا حدث أن اشتريا لحما في يوم ما — ونادر ما يشتريان — فانهما يستأثران به من دون أطفالهما ما عدا ربعة .. وهما لا يعطيان اطفالهما الا ما بلى من الثياب ، ثياب الام للفتيات ، وثياب الاب للاولاد .. أما القماش الجديد فهو يفصل لهما اولا ، تفصله زين منذ بلغت الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ..

ولما كانت الام مكسالا نؤوما ، فان عمل البيت كله القى على كاهل زين ..

كانت تقوم فى الفجر ان شتاء وان صيفا ، وشخير امها لايزال يعلو وينخفض ، ثم تحمل جرتها ــ التى كانت صغيرة اول الامر ثم اخذت تكبر كلما كبر جسدها وكبر تحمله لمشاق الدنيا وهمومها ــ وتذهب الى النهر حيث تقابل خادمات العمدة وتحسر عنها ثيابها حتى فخذيها .. وتعوم الجرة قليلا ثم تملؤها وتعود الى منزلها على مسير ثلث الساعة من النهر لتعاود ملء جرتها من جديد .. ولما ازدادت حاجة المنزل الى الماء جعلت تحمل جرتها وتسوق أمامها حمارا يحمل فوقه جرتين .. ثم لاتلبث بعد عودتها أن توقد الموقد لتعد الشاى الاسود المر ، وتتركه يغلى وهى تحلب العنز أو الجاموسة .. وفى هذه الاثناء يعلو النهار ويستيقظ اهل البيت تباعا وفرادى ، لايجتمعون للطعام ، بل ياكل كل منهم عندما يريد ما يريد .. هذا يتبلغ بقطعة من « البتاو » يغمسها فى «المش» أو اللبن الخاثر ، وذاك يكتفى بقليل من الشاى مع قليل من اللبن ..

كان على زين أن تنظف المنزل وأن تروى الجاموسة من النهر كل عصر ، وأن ترج اللبن وان تصنع قوالب الجبن والزبد ، حتى اذا ما اجتمع منها عدد كاف قامت ببناء غرفة للاسرة التى تنمو وتزداد .. وكان عليها أن تذهب الى السوق يوم الثلاثاء كى تبيع البيض وتشترى الحناء والمناديل المحلاة بالترتر .. وكان عليها ان تعنى بالاطفال ــ بطعامهم ونظافتهم ونومهم ــ وفى كل شهر تقوم بالعبء الاكبر عند عمل الخبر حتى لقد اشتهرت بمهارتها فى ذلك فى القرية كلها .. فكانت تشارك الجارات يوم يخبزن فى مقابل بعض الدقيق تصنعه خبزا لاسرتها .

وكانت زين تقوم بكل هذا لانها تعتقد أن شعرها ضاع منها ذات ليلة ، ولن يعود اليها الا فى ليلة اخرى من الليالى القمراء كما اخترتها بذلك « أم دهب » قابلة القرية الزنجية ..

لهذا عندما يكتمل القمر بدرا فى كل شهر كانت زين تتطلع فى أمل ويأس الى راسها ، وتنزع المنديل الذى تخفى به علتها وتتحسس راسها .. فلا تجد غير البثور وبقايا رائحة الدهان الاخير ..

.. وهكذا امتزج لديها ضوء القمر باحساس انساني غريب ، هو مزيج عنيف من الامل واليأس .. كانت تتوق أن تصحو ذات ليلة ، وهى راقدة فى ضوء القمر المكتمل فتجد شعرها منسدلا على كتفيها ، غزيرا ناعما ..

وكانوا يخصصون لها فراشا لا يقربه احد غيرها .. وكانت ربما تأبى أن تمس زين مناديلها الحريرية .. وكانت زين ترتب شعر

اختهـــا الناعم المسترسل ، وها هى قد اوشـــكت ان تتم السادســة عشرة وستزف الى ابن عمها مفتاح ، وقد تدلى القرط الذهبى من اذنيها .. أما هى فكانت تعلم أنها نجســـة ، وأن رجلا لا يأبه لها ، وعليهـــا ان تشكر هذه الاسرة لمجرد تحملهم وجودها وهى ترجو ان تـــكفر عن وجودها البغيض بما تقوم به من خدمة لاتسمع عنها كلمة شكر اوتقدير ـ فما اشترته بالامس ليس الصنف المطلوب ويجب أن تعيده ، والطعام لبس شهى المذاق ، وهذا المـــاء الذى جلبته اليوم من النيل ليس كافيا والطفل قد تركته ملقى على الارض والشاى ليس اسود مرا كمـا يجب أن يـــكون ..

ولقد بكت زين كثيرا فى وحدتها التى قلما كانت تحصل عليهـــا ، وفكرت كثيرا فى أن تموت ، لولا أن أملا يائسا يداعبها كلما مرت بمنـــزل العمدة أو كلما قابلت خادماته على البحر يملان جرارهن ، وهن يتحدثن عن ميهوب ابن العمدة الغرير وعن مغامراته النسائية وهو لما يبلغ الثامنة عشرة ..

كانت تحب فيه عبثه وخشونته .. وكانت تعلم انه على استعداد ليضم اليه أى جسد نسائى .. فهو فى المدينة لا يأنف أن يتصـــل بشحاذاتها وعاهراتها ، وهو فى القرية لا يتورع عن مغازلة الفتيـــات الاجيرات وهن يجمعن القطن .. وكان يداعبها الامل أن يقترب منهـــا يوما ، وهى تدرك خطورة هذا المعنى ، كما تعرف استهتار ميهوب بكرامة الناس، وتعرف طيشه ونزقه،وانه لن يلبث أن يقص القصة على أصدقائه وغير أصـــدقائه ..

اما الفجر فما أجمله فى ريفنا المصرى ، واما الليالى القمراء فمـــا أروعها ـ وبين الفجر واعماق الليل يكدح الفلاحون فى أرضهم السوداء منـــــذ اجيــــال واجيـــال ..

وهذه زين قد خرجت الى الحقل وهى فى العشرين ، تتمـــايل وراءها ضفيرتاها الطويلتان المستعارتان وهى تحلم باللذة المفقودة العارمة .. وكانت الريح شديدة ، والبرد لاذعا والعيدان الصغـــيرة الخضراء ترتجف والقمر يتدثر بين السحب .. اما هى فقد كانت تنتظر بلا يأس، كما ينتظر كل منا نهايته ..

وفى ضوء القمر الناعم رات فرسا آتية ، فاقشعر جسدها اذادركت انه ميهوب ، ودوت فى اعماقها صرخة مرعبة : قرعاء ..

قالها اليوم اخوها لها ، وطالما سمعتها من قبل حتى لـــكانها أصبح اسمها : قرعاء .. قرعاء .. قرعاء ، وظلت الكلمة تعلو وتتضخم وتعلو

حتى رأتها تسبح امامها فى ضوء القمر ، ثم تدور فى دوائر حلزونيــــة : قرعاء .. قرعاء . قرعاء ، والدوران يشتد ويشتد ويرتفع ويرتفع فى السماء صاعدا نحو القمر - حتى عبر ميهوب .. أما القمر فكان لايزال يرتج كأنما كان يغتسل لتوه فى مياه تضطرب ، ثم اخذ يهدأ قليــــلا قليــــلا ..

فى هذه الليلة الباردة المقمرة هبط القرية رجل من هؤلاء الشــــعراء المشردين ، يغنى على ربابته ويحمل سره فى حقيبته . حمله القــــارب الاخيرالذى رسا على شاطىء الجزيرة الشرقى عند مغيب الشمس ومطلع البدر من وراء تلال المقطم .. وقد رآه أهل القرية وهم يعودون مساء الى منازلهم يقودون ماشيتهم ويحملون بعض حصادهم .. ورووا انه يضع عمامة بيضاء ويرتدى عباءة ملونة مأخوذة اجزاؤها من الف ثوب وثوب ، وقد هبط أولا ضيفا على العمدة ، حيث استأثر به ثلاثة أيام ، ثم نزل يطوف بالقرية ويعود كل مساء ليبيت فى منزل العمدة .. وقد لمح زين اثناء تجواله وغنائه ، وعرف علتها وعرض أن يشفيها لقاء مبلغ زهيد من المال لم يكن يستطيع عبد الصمد أن يجده ..

كان عبد الصمد يؤجر الارض من العمدة ، وكان الايجار مرتفعــا قاسيا لا رحمة فيه ولا مفر منه ، وما يتبقى من ثمن المحصول لا يــكاد يكفيه لان يعيش وأسرته التى تتضخم حتى المحصول الجديد ..وسرعان ماتبتلع المدينة المحصول ويبتلع العمدة الثمن .. وقد شك اهلهافى قدرة هذا الرجل على شفائها ، أما هى فكانت تحس انه لو ذهب بغير أن يحاول وسيلته فستتعذب عذابا لايطاق .. فهى تدرك أن شفاءها ســـيتم فى محاولة من الف محاولة ، وستظل تذكر أن هذه ربما كانت فرصتها التى لن تعود الا بعد عشرات السنين ..

لهذا ظلت ثلاث ليال ترقب القمر وهو يتأخر فى صعوده وينقص فى حجمه حتى عرفت وسيلتها الى الشفاء .. او الموت ..

وقد قامت فى اليوم التالى بواجباتها المنزلية باضطراب ، لــكن بلا ذلة ولا انكسار ، وسمعت الشتائم والاهانات لكن بلا بكاء .. وفى المساء سرقت القرط الذهبى الصغير الذى لاتملك أمها سواه فحق أن يــكون لها قرط مثل الذى كان لاختها يوم زفافها .. ثم خرجت فى عصر ذلك اليوم تروى جاموستها كعادتها وتخفى القرط بين ثيابها ، غير انهـــا لمـــا عادت كانت تحمل معها دهانا ستدهن به رأسها شهرا كاملا ، ثم ينمـــو شعرها سريعا أسود ناعما غزيرا .. ومنذ هذه اللحظة اختلط الحـــلم بالواقع فى حياتها ..

وفى أحلام المعذبين تتحقق اللذة والتكفير عن هذه اللذة بعجـــــلة

وبنفس العنف والقسوة .. لهذا عندما اتمت الحادية والعشرين كانت قد اقتربت من لحظة خلاصها المروعة ، فنزعت منديلها الكريه ومزقت شعرها المستعار ، وفضحت للناس سرها ، اذ انسدل شعر ناعم رائع طويل ، وبدا وجهها مشرقا وضاء يفيض بالحيوية والحياة والرغبـــة العربيدة الجامحة .. وكان القمر قد اكتمل اذ ذاك .. ولفحت الرياح الباردة عيدان الحقول الفضة ..

في تلك الليلة ادركت الام أن انسدال شعر ابنتها على هذا النحـو المباغت المغوى يحمل معنى خطيرا .. غير انها ضلت بحثا عن هذا المعنى .. لعله أن تتزوج ابنتها فتفقد بذلك شيئا من كسلها الذى ظلت تتمتع به منذ بلغت زين الثالثة عشرة ، ولعله شيء اخر اخطر من هذا .. آه، لعله يفضح سر اختفاء القرط الذهبي في ليلة باردة كتلك من ليـــالى الشتاء الماضي ،عندما كان القمر يصاعد متأخراً قليلا وناقصا في حجمـه قليـــلا ..

وكان قد شاع في القرية أن زين سرقت قرط امها الذهبي ، وذهبت الى دار العمدة حيث كان ميهوب والشاعر المتطبب يجلسان فاقتسما جزئي القرط بينهما ، الواحد ليشفيها والاخر كي يصمت .. وهذا السر كانت زين هي التي اشاعته اولا على حكرش عبيط القرية .. ومالبث حكرش أن أذاعه على الحلاق مرزوق ، وهو بدوره نقله الى زوجه،وهكذا سرى الخبر حتى وصل الليلة ـ وبعد شهر ـ الى منزل عبد الصمد..

وثارت غريزة الام الاقتصادية وأدركت فجاة بشاعة الفقر الذي تحيـــا فيــه وقيمة القــرط الذهبي ، وانهـــالت ضربا على ابنتها وهي تصـــيح :

ـ أين قرطي ، اين قرطي ؟ ..

وزين تنكر وتبكي ، أما الام فلم تعد تأنف من رأس ابنتها ، بل اقتربت وأمسكت بشعرها الطويل الناعم .. ثم شدته وشدته حتى غمره ضوء القمر ..

في تلك الليلة تسللت زين هاربة من منزلها تسعى مكرهة الى منزل اختها ربعة وهي تجفف دموعها .. غير انها كانت تحس لاول مرة أن هناك انيسا معها ، يغمر راسها وكتفيها نوراً وحنانا .. فلم تعد تخشى البرد، ولا الضباع التي دخلت القرية في عام جفت فيه مياه النيل واحتـــرق الزرع ، والتي يزعمون انها ترتاد الطريق الواقعة على حدود القرية التي تسير فيها زين الان ، فهذه الطريق وحدها هي التي تأذن لها أن تمر على منزل العمدة المضيء ، لعل ميهوب ان يلمحها بوجهها المشـــرق ورغبتها الجامحة ، فيعجب بها وهي تعدو خجلى بغير أن يعرفها .. ورأت العيدان

الصغيرة الخضراء ترتجف ، والقمر يتدثر بين السحب ، وحلمها الكبير يملا الارض والسماء حتى احست انها تسير فوق الهواء .. وفجـأة سمعت وقع خطوات فرس مقبلة ..

فى تلك الليلة أشبعت زين رغبة بلورتها سنواتها الاحدى والعشرون، واذن فقد حق عليها ان تموت .. وكانت امها قد علمت بالسر ، قـاله ميهوب اولا لحكرش عبيط القرية وحكرش قاله لمرزوق حلاقها ، وهذا بدوره نقله لزوجته .. وهكذا سرى الخبر حتى وصل منزل عبدالصمد

وقد انتشلت جثة زين من النيل فى احدى الليالى المظلمة ، حين لم يكن هنالك قمر ولا ريح تلفح العيدان الفضة .. ولم يكن لها كفن سوى شعر طويل منسدل فاحم .. اما القمر فقد ظهر من جديد بعد هذا بأيام قلائل ، مكتملا وصامتا ومبتسما ..



دفاع منتصف الليل



كان ذلك عند هبوط المساء الا قليلا ، حين كنت ابحث عن شيء احك به جسدي ، وكانت الليفة هي حاجتي الحقيقية للخلاص مما انا فيه ، وانا أؤجل ذلك من يوم الى يوم ، حتى أدركت أخيرا أن الامر اصبح ضروريا لامفر منه ..

ولقد صدق حدسي حين هبطت الطريق التى توسمت انهم يبيعون فيها امثال هذه الحاجات ، فقد عثرت اخيرا على الليفة الاخيرة فى دكان بائع متآكل الانف ، وكانت ليفة كبيرة فى غير نفع ، فهى ممزقة كئيبة ومليئة بالثقوب كانما اكلتها الفئران .. ولكنى لا احب الجولان فى الطرق ، واخشى ان تثير كثرة السؤال شبهة حولى ، كما انى ما احب ان اعود من رحلتى فارغ اليدين .. فدفعت الثمن فى غير جدل، ولاحظت البائع وهو يلفها لى فى كثير من ورق الجرائد فى عجلة وبغير كبير عناية ، ثم يمد قامته نحوى قليلا ويدسها تحت أبطى ..

فلما خرجت وسرت وجدتنى — وعلى بعد خطوات قلائل — امام واجهة زجاجية تزدحم خلفها ادوات مختلفة وكثيرة للزينة ، فبدأ لى أن اقف لاسرح فيها البصر .. وكانت زجاجات العطور والوان الصابون وأرقام الاسعار تنتشر وتنتصب وتستلقى ، والى جانبى معطف من الفراء يطل منه وجه حسناء وتنبعث منه رائحة نفاذة ، وشاب يحادثها وهما يتصنعان تامل العطور والصابون والاسعار ثم يلتفتان يمنة ويسرة كانما فى حذر ، فلما داخل الدكان احسست أن شيئا يشدنى بخيوط لزجة نحوه كانه المادة الكريهة المتراكمة على جسدى .. ولم ادرك ذلك الشيء فى اول الامر ، لكن حين استدرت لاعبر الطريق وسط زحمة السيارات والناس كنت قد امتلات رغبة عنيفة فى الاختفاء ، فأسرعت نحو طريق يهدأ فيه النور قليلا وتهدأ فيه الحركة كثيرا ، ولما اصبحت على مبعدة من هذين الشخصين استدرت خلفى فجأة ، وكان الطريق يكاد يكون خاليا ، الا انى كنت موقنا ان ثمة عينين لزجتين تنتظراننى فى مكان ما وتتعقبان طريقى لسبب ما ..

فانحنيت نحو احد الشوارع الخلفية ، وكانت اللفافة تعوق حركتى وهى تحت ابطى ، فنقلتها الى يدى اليمنى ، وهكذا اصبحت اكثر حرية .. ثم اصبحت اكثر انحناء واسرع مشيا وانا اخطو فى حذر الى جانب المنازل الضيقة المتراكمة المعتمة ، باحثا عن طريق للفرار .. غير ان طريقى الضيق سرعان ما افضى بى الى اخر متسع ، يضج بالنور

الباهر والحركة والناس والعطور ، وينعكس الوهج على عينى ويملاالعطر انفى ، واحسست بجسدى يخوض فى قطع اللحم المتحركة المسرعة المتعطرة ، وادركت اية سهولة يجدها فى مهمتهم من يقتفون اثرى حين ينتشرون فى هذه الزحمة الكبيرة المتسعة ، وهكذا أشرت الى سيارة من سيارات الاجرة ، فلما انحنى بها سائقها نحوى لمحته يتردد قليلا ، وحين وقفت سيارته امامى تماما اخذ يفحصنى بريبة وينظر الى اللفافة فى يدى ، فادركت ان ثمة ما يقلقه مثلى ، وثمة ما يقلقه منى ، وفكرت ان افتحها لهواريه ان مابداخلها ليس سوى ليفة مما يستحم بها الناس ، غير أنه لم يكن ثمة مجال للنقاش ، فلوحت له بحافظتى ، ،وفى لمحة واحدة كنت قد أغلقت بابها على نفسى وجلست وحيدا وأمامى سائقى الاسود ..

وكان عليه أن يتجه الى مكان ما .. وكان هذا غريبا وضروريا وصعبا للغاية .. فأين يمكن أن أختفى فى غير هذه السيارة ؟ ولكن السيارة كانت منخفضة لغاية وجسدى منحنيا فى داخلها كأنما أتأهب للصلاة بغير أن أصلى .. ولقد كرر السائق سؤاله عن الجهة التى أقصدها وهو يلمحنى فى مرآته التى أمامه منبعجا الى هذا الحد الفظيع فى سيارته الصغيرة الخانقة .. فلما عبرنا طريقين مزدحمين وتأهبنا للانحناء فى طريق ثالث أحسست السيارة ترتج فجأة كأنما تزلزلت الارض تحتها ، وسمعت صوتا مزعجا ، صوتا غير انسانى ينبعث من أسفل سيارتى ..

ولمحت راس السائق كأنما تتأرجح فى الهواء ، بينما أصطدم جانب السيارة بشدة فى ذراعى اليمنى حتى لقد حسبته قد أصبح كتلةخالصة من دم متجمد ، فلما اطللت من زجاج النافذة المرضوض وجدت ما يشبه بقايا رجل كأنما أجبر على أن يزحف بنصفه الاسفل تحت عجلات السيارة ، والدم ينزف من ذراعه اليمنى ، والقوم يتجمعون ويتفرجون وينزعجون ..

وخيل لى أن ذراعى أنا أيضا ـ وبغير حق ـ تقطر دما .. فأمسكتها بيدى الاخرى وانا اضغط اللفافة بينهما . وكان على أن أجد مخرجا ، وانا انظر فى عينى سائقى ، وهو مشغول بالاجابة على غضب الجماهير التى تزاحمت حتى اصبح مجرد انتسابى الى السيارة شيئا خطرا للغاية .. وهكذا كان على أن اتخلى عن سائقى فى هذه اللحظة الحرجة من حياته لئلا يكتشفنى أحد الذين يتعقبوننى ويجدون الفرصة ملائمة لهم ، فيشركوننى فى اتهام لا يد لى فيه .. وهكذا حملت لفافتى وتسللت من السيارة وانا احس ارتجاجا فى ذراعى حيا ومؤلما ونظيفا للغاية ..

وتركت سائقي وحيدا وله في عنقي بضعة قروش لم ادفعها له ، واتجاه لم أخبره عنه ، ومعونة ماقدمتها له ، ونظرات الذعر في عينيه لا تمحى من عيني ..

وكان على الا استسلم والا اسلم ابدا لمطاردي .. لهـذا عنـدما وجدتني أمام باب للسينما وفي مقابل الجمهور المزدحم تماما ، عرجت ناحية النافذة الحديدية المربعة ، حيث جلست عجوز مصبوغة الالوان تقضم اظافرها وتتأملها في سرعة وقلق ، فانحنيت واشتريت منهـا تذكرة بغير ان أعرف اى الافلام سأرى ولا من ذا الذى سيجلس على المقعد التالى بجوارى .. وحين انحنيت وانا داخل من الباب المنخفض لمحت قاطع التذاكر يهمس شيئا في أذن زميله ، ولا ريب ان اللفـافة أثارت شيئا من ريبة في نفسيهما ، مما أحزنني حزنا شديدا ،، لانى كنت واثقا انه اذا قدر لاحد ممن يقتفون اثرى أن يسألهما عنى ، فلا شـك انهما يستطيعان تذكرى ويدلانه على رقم مقعدى ..

وكان الفيلم قد بدأ وانا داخـل على اطراف أصابعي ، والاشـياء تبرز قليـلا قليلا من العماء التام الذى واجهنى حين دخـولى

وحين أصبحت اكثر ألفة مع العتمة لمحت سقف القاعة يكاد ينحنى فوق الناس وقد ازدحموا ازدحاما لامثيل له كأنهم مذعورون يلجأون من غارة .. وقد حشرت بين رجلين عن يمينى يتحدثان بصوت خفيض كأنما يقلقهما امر ، واحدهما دائم التمخط ، وسيدة عن يسارى تحك ذراعها وهى تهمس شيئا في اذن زوجها على مايبدو ، مما اغرانى لحظة أن احك أنا ايضا ظهرى المكبد بالعرق ، ولكنى ماكنت أجرؤ على ذلك لئلا ألفت الانظار وابعث الاشمئزاز من حولى .. وكان في همسهما شيء من كآبة كانما انتزع ابن امس منهما .. أما وجودى المفاجيء فيبدو انه قد اثار حولى شيئا من التأفف لاننى احدثت شيئا من ضجة وقطعت عليهـم صمتهم وانصاتهم كأنما ازيز الطائرات فوقهم .. ولا شك أن الجالس خلفى كان سيء الحظ تماما ، فقد سمعته يبدى بعض التبرم ، ويهمهم بكلام غير مفهوم راجيا أن يصلنى منه شيء ، فقد كان يبدو انه قصير القامة وعليه أن يميل ان يمينا وان يسارا اذا حرص الا يفوته انتحار احد أبطال القصة ، ولقد انتحر البطل فعلا ، ولكنه لم يكن البطل الرئيسى بطبيعة الامر ، والواقع أن هذا كان البداية فقط .. وكان مقعدى منبعجا الى الامام قليلا بحيث اكاد انكفيء على وجهى في احد جانبيه انخفـاض شديد .. وحين حاولت أن اعدل من جلستى المضنية سرت طقطقات في المقعد وانتشرت حتى آذت القوم من حولى واحسستها تسرى في اسنانى فآثرت أن اظل ساكنا لا التفت يمنة ويسرة منحنيا الى الامام متشبثا حتى النهاية بمسندى مقعدى .. وبينما كانت السيدة تحك الآن فخذها

بأظافرها الطويلة المصبوغة وبصوت خشن مسموع كان البطل الحقيقى يطبع قبلة على شفتى حسناء تصاحبها موسيقى عاطفية حـــالمة .. وفجاة وعلى الشاشة ، بدأ ضجيج موسيقى كتفجر القنابل ..والسيدة الى جانبى ماتنفك تحك ساقها اليمنى،ثم تمسك منديلا به تجفف دمعتين فلا ريب أن البطل كان يستحق كثيرا من الرثاء ، بحيث لم أستطع انا ايضا أن أمنع عن نفسى احساسا فجائيا بالكآبة .. فلما لمحت زوجهـا يشاركها دموعها ادركت أن شيئا هنـا ـ مريرا كئيبا ـ يمس حياتهما

غير أن هذا لم يكن كل شىء ، فقد كانت النهاية السعيدة مقبـلة بلا ريب ، فرغم هذا الخطر الحقيقى الماثل ، ورغم هذه الكآبة الضرورية الفجائية ، فقد كان يملؤنى ايمان استمده من كثرة الافلام التى رأيتها من قبل أن هذا ليس الا السبيل الى الاحساس بالنصر الحقيـــقى السعيد .. وهكذا سرعان ما انشرحت الاسارير ـ التى أكتأبت مـدى ثمانين ثانية كاملة ـ ثم ضجت القاعة بتصفيق متقطع اجوف ، وقهقهات منبعثة من اماكن بعيدة ومجهولة ، والرجل ماضى يحدث صديقه حديثا هاما ، اكثر اهمية عما كان عليه من قبل ، بحيث مال تماما على اذنـه واصبح خفيضا ومتصلا وجـديا ..

وكان يبدو ان البطل يبحث الان عن حسنائه ليقبلها القبلةالتقليدية الختامية على ما أعتقد ، او لعله سيبدأ معها دورا جديدا من أدوارالقصة غير أن صوت الاظافر الخشن عن يسارى وحركة الرجل القصـير القامة من خلفى ، وتوقعى وجود شخص أو اشخاص حولى ممن يبحثون عنى، وتمخط الرجل عن يمينى ثم مقعدى المنحنى المتكسر كأنما سيهبط بى نحو الارض فى كل لحظة جعل المدة التى عشتها فى هذا المكان كافية تماما .. والعتمة والانفاس الحارة والصمت والتوقع .. جعلت مغادرتى لهذا المكان حاجة ضرورية وجدية للغاية ..

ـ ٢ ـ

فلما خرجت اهرول قبل أن تفرغ السينما جمهورها ، كانت الطرق قد ازدادت اظلاما ، والناس يمشون فى حذر فرادى بجوار الحـــوائط كأنما سيلتقون بفاجع عند نهاية الطريق ، أوهم يتدحرجون على حافـــة الارصفة تماما كأنما يعدون خطواتهم ، وقد وجدتنى اسير خلف رجل اعرج وأنا أعد خطواتى ايضا كأنما أقيس بها الطريق ، وكان الاعرج يهرول وقد جذبنى خلفه وفى دائرته ، بحيث حرصت ـ وبغير أن احرص ـ على أن ابقى المسافة بيننا بلا زيادة ولا نقصان ، فاضطررت أن اهرول مثله، ولما تنبهت الى ذلك أشعت الاضطراب عامدا فى سيرى ، واســـرعت

قليلا فى خطوى ، فقد خشيت ان يحسبنى الرجل انى اتبعه وما كنت احب أن أعرضه لمثل هذا الاحساس المحير الخانق ، فعبرته ومضـــيت أسير أمامه حتى أثبت له حسن نيتي ، وان الامر كان مجرد صــــدفة خالصة وليس ثمة خطة مبيتة على الاطلاق ، وهكذا رضيت لحظــــة عن نفسى لانى قد اكون أزحت عنه احساسا لاشك انه لازمه لحظـة ، فهانذا الان أسير أمامه وهاهو ذا يخب ورائى مرتفعاومنخفضا باستمرار وهاهى ذى المسافة بيننا تبتعـــــد حتى لنكاد نفترق .

وكانت اللفافةماتزال فى يدى ، وقد ضمرت وتهلهل بعض ورقها لقبضتى المتشبثة بها ، الا انها اصبحت مبعثا حقيقيا للريبة والخطر، فان أحدا لايمكن ان يدرك ابدا ــ وعلى وجه يقينى ــ ما بداخلها ، فهى تثير للسائرين معى شتى الظنون ، حتى لقد فكرت اكثر من مرة اناتخلى عنها والقى بها فى اقرب زاوية . الا ان ذلك كان اكثــر خطرا بالنسبة لى: لئلا تستحيل ريبة العابر الى يقين ، ويدركون ان شيئا خطرا وفظيعا حقا بها ، مما يسبب لى مضايقات لانهاية لها ، وكنت اكافح كفاحا هائـــلا حتى أقتنع أخيرا ، لحظات معدودات ، بان احدا لايهتم بما فى يدى ، وهكذا كنت بين شعورين متناقضين يتبادلانى الواحد بعد الاخر ،كأنهما يدان متوحشتان تلطمانى على وجهى بالتنــاوب ، فكنت أرى النـــاس ينظرون ــ ولا ينظرون الى اللفــــــافة .

فكلما انزلقت فى شوارع أكثر اظلاما ، كنت اسمع بين حين واخــر قهقهات وهمسات تنبعث من زوايا ومنحنيات مجهـــولة . .

وكنت اخشى دائما ان يصلهم وقع أقدامى فيحسبونى سأفاجئهم لاستجوابهم ، فافسد عليهم ــ وبمجرد هذا الشك الذى يصيبهم ــ لحظة من حياتهم . ولهذا كنت اتعمد أن أضرب بقدمى الارض وبصوت واضح مسموع ، حتى اعطيهم المهلة الكافية لتدبير أمورهم . ولكن ماأن بدا لى أحدب متآكل الوجه ، يدخن سيجارا على مهل وبطء عنـد بدء الطريق المفضى الى الميدان التالى ، حتى وجدتنى انكمش واسرع واخفف من وقع اقدامى ، حتى لقد نظر الى فى ارتياب ، وصعد بصره نحوى ، مما زاد شكى انه قديكون فى أثرى او فى اثر آخرين . فها هو ذا شـــــخص لايخاف وقع أقدام فى الليل ، وفى مثل هذه المدينة المتسعة الكئيبة ، ويدخن سيجاره بهدوء ، وينظر الى فاحصا ، حتى اذا ما استقر بصره على اللفافة احسست اننى احمل فى يدى خطيئة ملموسة وحقيقــــة يستطيع ــ اذا شاء ــ ان يدينني بها . وهكذا عشت ثلاثين ثانية فقـط شخصا يقتفى الناس . ثم سرعان ما أصبحت موضوع ذلك الاقتفاء .

وكان على أن اجتاز ميدانا صغيرا قبل ان أصل الى الطريق النهائى

.. فسلكت جانبا كانت قد نصبت فيه مراجيح قلائل متفرقة ومهجورة غمرها صمت ووجوم . ورأيت على ضوء المصابيح الخافتة ظلى الطويل ينعكس على أرض الميدان المغطى بالحشائش الجافة والتراب ، حـــتى يصل الى ما وراء المراجيح . وثمة عابرون قلائل يتهامسون ويتلفتــون، والاشجار الساكنة تلقى ظلالها كانما فى تراخ وملل . ولم يكن امامى ان اختار ، فقد كانت الظلمة هى ملجئى الوحيـد . الظلمة التى يفــور فى نهايتها منزلى قابعا ومستكينا للفجيعة التالية .. فمضيت اتـدحرج واصوات القوم تتقهقر من اذنى شيئا فشيئا امام نباح الكلاب المخشوشن الجاف وهو يرتفع وينداح ، وكان هذا علامة على اقترابى من منــزلى . فلما سمعت صوت الكلب الاسود الضخم على السطح التالى لمنزلى ينطلق اجوف منخوبا فى الظلمة ادركت اننى وجها لوجه أمام باب بيتى .وترامى الى سمعى وقع اقدام بعيدة ، فلما تلفت لمحت مايشبه الظل المتـــكور البعيد ، ما أن رآنى حتى انحنى نحو الارض كانما يبحث عن شيءمجهول فتفرست ابحث لعل احدا يتصنع التنزه حول جدران بيتى ، او لعــل الظل ان يقترب متصنعا الســـــؤال عن طريق اجهله .

وكنت أعلم ان خادمتى « نور » لابد أن تكون قد نامت منـــذ زمن بعيد ، فها هى ذى قد أطفأت انوار المنزل جميعه ، وهى ما تعودت منى المجيء فى مثل هذه الساعة المتاخرة من الليل ، ولولا مرضها لكانت قد ذهبت واشترت الليفة بنفسها ، وكنت احب الا ازعجها ، وكنت ادرك انى سازعجها ، وذلك عند محاولتى فتح الباب فى مثل هذه الساعة من الليل ، فهى — مثلى — رقيقة حساسة ، تتوجس خيفة من كل طـارق فى الليل ، فهى لن تسمع الحركة الحذرة للمفتاح فى الباب حتى تهب مذعورة من نومها .

ويزدحم راسها بخليط رائع — انا الفه تماما — من الاوهـــام والحقائق ، وستكون الحركة الخافتة الحذرة هى اقرب الى حـــركة الغريب المتلصص منها الى حركة صاحب البيت المطمئن ، وســـتعانى لحظة انتظار واستسلام هائلة كالقضاء . لهذا بدا لى ان ادخل البيـت فى حركة مسموعة مطمئنة . غير ان هذا أيضا لم يكن اقل خطرا مــــن المحاولة السابقة . وفكرت أخيرا الا ادخل على الاطلاق وانه من الخير لى ولها أن افضل البقاء خارج بيتى ، غير ان هذا التفكير لم يســـتمر أكثر من عشرين ثانية . فقد كانت هناك قلقلات بطيئة خفية تشرئب فى الليل حولى ، لايخفيها تماما نباح الكلب الاسود الضخم وانقياد الكلاب له ، فلا انا أعرف مكانها بوضوح ولا هى تختفى تحت ستار هذا العـواء المتصل المستديم . وكان نباح الكلب قد ارتفع واتجه نحوى — ومعــه جوقة الكلاب الاخرى — متصلا ومؤلما عن ذى قبل ، بحيث لابد وان يثير

ريبة السكان فى وجود غريب يتلصص قريبا من بيوتهم .. وهكذا اتضح لى ان محاولة البقاء خارجا ان هى الا محاولة خيالية ليس من سـبيل الى تنفيذها . لهذا جمعت اطراف شجاعتى وأولجت مفتاحى فى الباب فانفتح على الاثر ، ودخلت وانا اتلمس الضوء بيد واقفل بيد - فى بطء وانصـــات .

وانصت .. فسمعت مواء قطتى ممطوطا ومبحوحا كانه نواح . فقلت لاشك انها جوعانة ، وأن خادمتى المريضة السمراء ذات العـين الواحدة قد نامت بغير ان تطعمها لما ألم بها من تعب هذا النهار .

فما أن اضأت النور حتى وضعت اللفافة على المنضدة ، واسرعت انزع الورق ، ورقة ورقة ، بغير أن اصل الا الى فراغ ! فـــلا شك ان الليفة - وا أسفاه - قد سقطت منى اثناء هذه المطاردة المضنية .. . وفكرت أين يمكن أن تكون قد سقطت . فى السيارة ام فى السينما ام فى الطريق حين نظر الاحدب فى ريبة نحوى ؟. ولم أستطع أن أفهم شيئا ، وما كان يمكن لى أن اتذكر أو أفهم .. لقد كنت أحس بكتلتها داخـــل الورق حين اشتريتها وكذلك حين وقفتى أمام الواجهة الزجاجية .. لكن متى بدأت افقد الاحساس بكتلتها ؟ ليس ثمة سبيل الى معرفة ذلك أبدا ، هذا اللغز مجهول الى الابد ..

لقد كنت أمنى النفس بحمام رائع هذه الليلة ، حتى أتخلص من هذا العرق الذى يتسرب ، متلكئا فوق جسدى ، ويزحف فى خطـوط متعرجة من منابع تنضح باستمرار وبلا انقطاع ، وحتى أنام - لاول مرة منذ ليال - فى سعادة عميقة .. فانا شخص عندما ينسكب فوقه الماء المتدفق أحس احساسات عظيمة رائعة ، وأقوم بمشروعات ضخمـــة وحقيقة ، وتتفتح أمامى كل معانى الحياة المقدسة ، واتشـبث بالارض وبالانسان ، وأحس اننى كائن عظيم وسعيد .. فهنا ، وفى الحمـــام ، ادع الماء ينهمر فوقى حتى يتشرب شعرى وعينى وكل مســام بدنى ، ويظل يعلو فى داخلى احساس سماوى يرتفع شيئا فشيئا وانا اصـيح واغنى واقفز ، حتى أصل الى قمة فيها تقترن العظمة بالسعادة كأنمـا لاول مرة ولاخر مرة .. وكانت هذه هى حاجتى الحقيقيـــة الى الليفة فى حيـــاتى ..

فألقيت نظرة جد آسفة على هذا الورق الكثير الفارغ الراقد فوق المنضدة بلا منفعة ، وعلى هذا الجهد الضائع الذى بذلته مخلصا طوال هذه المرحلة الشاقة المضنية .. وادركت أننى أمام قوى تسلبنى كل شىء وتفقدنى فى عراكى معها كل شىء ، حتى الليفة التى كنت أحلم بما ستنعم به على من حمام رائع وسعادة مطهرة .. وأدركت اننى فى معـــركة

غير شريفة ، ولكن على الا اياس ، ولا القى اسلحتى أبدا ، وان استعد للدفاع عن نفسى ، وأن ادرك الخطر المقبل .

وكان مواء القطة مايزال ينوح فى جنبات البيت ، ولم اكن اعرف اين يمكن أن يكون طعامها ، فذهبت نحو — نور — علها تكون مستلقية متيقظة متعبة ، ولكنى وجدتها نائمة ، نوما عميقا وبلا قلق ، فلما اصبحت أكثر اقترابا منها لاتأكد من ذلك ، لفحتنى انفاسها المنتظمة على وجهها ، وثمة عرق كريه — اكثر كرها من عرقى — فابتعدت عنها . . ثم اتجهت الى المطبخ ابحث للقطة عن طعام . .

وانحدرت نحو المطبخ اتلمس الضوء ، فلما اضأته ، لمحت على المنضدة طبقا فيه ما يشبه الجبن وخطوطا هندسية من النمل تذهب وتجىء منها واليها ، فاشعت الاضطراب فى هذه الخطوط بنفخة من فمى حتى ابعدتها عن الطبق قليلا ثم قلت : هاهو ذا قد وجدت لك ايتها القطة المسكينة ما تتبلغين به فتواصلين اطعام صغارك حتى الصباح . . غير انى لاحظت ان قطعة الجبن تموج بالدود خلالها وحواليها وينتشر منها ويقفز فى اتجاهات مختلفة لامعقولة . . وحاولت عبثا أن أغرى بها القطة فلا شك أنها تعرف مكانها وتأنف الاقتراب منها ، وها هى ذى تعاود المواء وتتشمم زوايا المطبخ واثداؤها المدلاة تكاد تلمس الارض . .

فلما خرجت من المطبخ ادركت ان نوافذ بيتى لاتزال مفتوحة وكنت قد لاحظت ذلك منذ دخولى ، وكانت النوافذ المفتوحة تثير فى قلقا خافتا ظللت اقاومه واقاومه حتى اتضح واتضح ، فقد كانت النوافذ منخفضة بحيث يمكن للعابر فى ظلمة الطريق ان يرانى وأنا مغمور فى النور بغير أن أراه . .

وكانت بها قضبان حديدية تمنع اللصوص ، وشباك سلكية تمنع الحشرات التى قد تسعى خارجا فى الليل ، ولكنها — ما دامت مفتوحة — تبيح للنظرات الخارجية أن تنفذ الى داخل بيتى حين يغمر النور تتأمل مافيه من أثاث وما فيه من حركات وهمسات . . وكانت نافذة الردهة امامى مفتوحة على مصراعيها وخيل لى — وربما بغير حق — ان ثمة خيالا قد مر ، فاسرعت أطفىء النور حتى يخفينى عنه الظلام وتضل عنى عيناه ، فلما انطفأ النور رايت الطريق الآن من خلف نافذتى الحديدية مغمورا فى ضوء لاهو بالعتمة ولا هو بالنور ، وكان كل شىء ساكنا كأنما الحركة التى سمعتها قد ربضت تتحفز حتى اضىء النور من جديد . . وكافحت كفاحا هائلا وحقيقيا وأنا اتجه نحو مفتاح النور لاضىء الردهة من جديد ، ولكن الكلب كان دائم النباح ، والقلقلات تنبعث من خلف نافذتى ، حتى مرت دقيقة ولعلها عشرون ، وكانت هذه نهاية طاقتى

الانسانيه ، فاتجهت نحو النافذة واغلقت بحذر نصفها الخشبى على ان اخفى جسدى فى المكان الذى يحميه هذا النصف من الغرفة ، وكافحت من جديد وانا أوجه نظرى ما بين حين وآخر الى النصف المفتوح فاذا حولت بصرى عنه أرهفت اذنى نحوه . .

ومرت ثلاثون ثانية ثم قمت أغلق نصفها الاخر وانا إنصت لما عسى ان يكون خلفها تسائلا عما اذا كان هنالك من راى حركاتى وهواجسى . وما اذا لم يكن قد ارتاب فى لمجرد هذه الحركات وهذه الهواجس . . لقد اغلقت الان النافذة ووضعت بينى وبينه حاجزا يمنعه من العمل فى الظلام والتستر فيه ، فاذا كان ثمة من يتتبعنى فليطرق الباب وليواجهنى فى نور بيتى وليحدد لى شكله وصوته ومهمته فهذا خير من تحركه فى الظلمة خارج بيتى كانه هاجس شيطانى اعرفه ولا اعرفه كانه قريب جـــدا منى وبعيد جدا عنى ، كانه موجود ولا موجود . . وهنالك ذلك الكلب الاسود الضخم يعلو نباحه ويشتد كأنما هناك من يزمعون اقتحـــام بيتى فى كل لحظة أو كانما هناك الاف المارة الغرباء يسعون ذهابا وجيئة فى حارتنا المتواضعة هذه الليلة . .

— ٢ —

وسمعت طرقا ناعما على الباب كانه وقع حوافر الدواب فى ليـالى الحصاد او كانه تساقط المطر فى أوائل الخريف او كانه تكسر احطـاب جافة تحت أرجل حيوان ، فوجف قلبى ، فقد كان هذا هو ما توقعتـه تماما ، ثم عاد الطرق من جديد شديدا متعاليا ومغمورا فى الظـــــلام كانه احجار يلقيها أطفال على شجرة التخيل أو كانه اظافر كلب تبحـث عن عظمة بين التراب او كانه الريح تصفق حطام منزل خرب . . وعـاد الطرق يشتد حتى اهتزت له جدران المنزل وتململت « نور» فى فراشها فادركت انه يجب الا اتاخر اكثـــر من ذلك وان الطارق يريدنى جديا أن اسـرع اليـه فليس على الا أن أفتح البـاب ثم اكـون على اهبـــة الاســـــتعداد . .

فلما فتحت الباب وجدتنى امام ذلك الاحدب البشع الذى عبـرته فى الطريق منـذ لحظات ثم برز وراءه من الظلمة شخص انيق الهنـدام رائع الوجه حتى لقد حسبته فى أول الامر حسناء يصحبها الاحـدب ، وكانا يرتديان ثياب السهرة السوداء . . ودخلا بلا استئذان وانحـرفا ناحية المخـدع فهما — كما يبدو — يعرفان الطريق . . وكان الطـرق قد ازعج «نور» فرأيتها تفتح عينيها ، الا انها ما لمحت الاحدب بوجهـه

المتآكل حتى أغلقت اجفانها من جديد ، وشدت على وجهها الغطاء بحيث ظهرت اصابع قدميها ، فلما حاولت الدخول وقف الرشيق الى جانبى يمنعني ويقول لى موضحا أن تحقيقا سيجرى معى وبشأنى هذه الليلة وهما يبحثـــان الان عن ادلة الاتهـــام . .

واتجه الاحدب نحو الدولاب يقلب فيه ملابسى ، ثم اتجه نحـــو

صندوق فى زاوية سفلية منه قد علاه التراب وكنت قد نسيت ماذا وضعت فيه . . فلما اقترب منه اخذ ينفض عنه التراب . . وتذكـرت ما به وعرانى وجوم ثم ضحكة خافتة انبنى عليها الرشيق بنظرة منه . . ورأيته يفض الرسائل القديمة يقرؤها واحدة واحدة ، وكنت قد حرصت أن أضعها بعيدا – حتى عن نفسى – فى مثل هذا المكان ، حتى كـــدت أنسى أمرها تماما ، ولو انى تذكرتها اخيرا لاحرقتها فيما احرقت من صور وذكريات ما كنت لاطمئن الى عدم وصول كائن اليها . . وهكذا قدر لى أن ارى رجلا احدب متآكل الوجه يقرأ قبل منتصف الليل أعز ذكـرياتى ويفض الاسرار التى تكون مقومات حياتى والتى ذخر بها شبابى ، والتى حرصت على أن تستمد قداستها من علاقتها الصامتة القائمة بينها وبين نفسى . . وكان الاحدب يبحث حينا فى دقة . . ثم يبدو أن نباح الكلب المستمر يضايقه فتضيق عيناه وينظر نحوى ثم يعاود القراءة من جديد، وكان عجزى هو أنى لم أستطع ان أشاركه ولا أن افهم التيارات الخفية التى تعتمل فيه وهو يقرأ رسالاتى القديمة العزيزة ، ثم اتجـــه نحـــو « نور » – بعدما ادرك عبث قراءته – وتأمل فيها قليلا ، وخشيت ان تصاب المسكينة بسوء ، فقد أزاح الغطاء عنها ، ولا ريب أن المســـكينة كانت تقشعر الان ، فقد انحنى – حتى اصبح منبعجا كنصف الـــكرة – وادركت أى فزع يتملكها ، وانا ما استطيع انقاذها ، فعلى قيد ذراع منى يقف الشاب الانيق ومعه ما يشبه مسدسا فى يده ، وانا حريص على حياتى بل أنا حريص الا اصاب بجرح ولا بألم سخيف ، كان يكون لكمة مثلا . . ولكنى تساءلت فى هذه اللحظة ما اذا لم يكن حرصى على حيـــاتى بهذه الصورة يفقدنيها ، وكان ذلك عندما انحنى الاحدب يقبـــل «نور» ويحتضنها ، قبلة حقيقية لاشك فيها هذه المرة ، رغم الرائحة الكريهـــة النفاذة ، ورغم ما رآه بوضوح من جحوظ أحدى العينين جحوظا بشعا مشوها تفقده كل شهيـــة نحـــوها . .

فلما انتهى من هذه المداعبات المريبة ، أخذ يعدل من ياقته البيضاء ثم أخرج مايشبه المذكرة ودون ما يشبه الملاحظات ، ثم مضي يقلب تحت السرير ، ورأيته يخرج نصلا ذا حدين ويغوص به فى الوسادة حيث كانت المريضة «نور» راقدة ، ومضى يعبث بقطع القطن المتلبدة وينثرها امـــام عينيه ثم ينفخ فيها وهو يتأمل محاولاتها الفاشلة للصعود ، ثم يبعثـــر

بقيتها على الارض .. فلما ابديت شيئا من اشمئزازى القى به فـى وجهى .

وخرج من المخدع وانا اتبعه مع حارسه الانيق ، حتى وصلت الى باب المطبخ ، فمنعت كذلك من الدخول ، واكتفيت بأن اقف بحيث أستطيع أن أرقب كل شيء ، فلقد ذهب الاحدب يقلب بطرف سبابته فى القطعة التى كانت جبنا واستحالت ـ منذ الامس على وجه التقريب ـ الى مجموعة من دود ، وكان النمل قد عاد اليها من جديد .. ثم مضى يقلب فى القمامة ، وبها فضلات من طعام وبقايا خبز جافة واوراق متسخة يحاول ان يقرأها بعينيه الكليلتين ، ولاحظ القطة وهم تموء فنظـر اليها بارتياب فى أول الامر والى اثدائها المدلاة ، وتتبعها وهى تتشمم زوايا المطبخ ، ثم مالبث ان انصرف عنها وقام يقيس عرض المنضدة ، وهـو دائب يدون ملاحظاته الهامة الدقيقة ، ويرفع يده اليمنى نحو اذنه اليمنى كانما يطرد بها الذباب كلما تنبه الى عواء الكلب المتصل فى الظلمـة الخـارجية ..

ثم خرج من المطبخ ليعد نوافذ المنزل واحدة واحدة ، وأبوابه ، ثم بدا لى أنه يعد قطع البلاط فى كل غرفة ، ولو انى ما تاكدت من ذلـك أبدا فقد اغفلوا ذكر ذلك فى التحقيق .. وكان هذا هو كل ما يحتـويه منزلى : غرفة للنوم ومطبخ للطعام وردهة فيما بينهما .. فلما أوشكا على الخروج لمحا الاوراق الفارغة منثورة وممزقة فوق المنضدة بالردهة ، وكانت لاتزال بها بقايا العرق من آثار قبضتى التى تشبثت بها طـوال هذه الليلة ، وقد اثارت هذه الاوراق اهتمامهما البالغ ، فأدناهـا الاحدب من انفه ثم ادناها الى أنف زميله يتشممها معه ، فلما لم يقنعا بذلك اخذا يقرآنها بعناية ، وما لبثا ان وضعاها فى ظرف كبير ونظيف ثم رأيتهـما يتنحيان ويتهامسان ، كل منهما يهمس بدوره كأن ثمة مؤلفا وضـع لهما حوارا وهما يشيران الى ما وضعاه بالظرف ، وقد عددت المـرات التى تكلم فيها كل منهما فوجدتها اثنتى عشرة مرة ، فقد همس الاحدب فى اذن الرشيق اثنتى عشرة مرة وهمس الرشيق ردا على الاحدب اثنتى عشرة مرة .. ثم دون كل فى مذكراته ما يشبه الملخص العام وما يشبه الرأى النهائى فى الامر .. وانتزعانى من بيتى ، ثم اقتادانى الى الخارج حيث ظلمـة الظلمـات ..

— ٤ —

وكانت غرفة التحقيق ـ بعكس ماكانت السينما ـ مرتفعة الباب شديدة النظافة ، قوية الاضاءة ، خالية صامتة كانما تنتظرنى .. وقـد

دفعني الرجلان الى الداخل بغير ان يدخلا ، ولم اجد مقعدا واحـــدا فاضطررت أن اجلس القرفصاء على الارض متأملا ظلي المطمئن الـى جانبي .. وجعلت أنتظر .. كان ثمة منضدة مستطيلة ومرتفعة ونظيفة جدا امامي وليس عليها شيء على الاطلاق ، ومن خلفهـا ستارة مزركشة يغلب عليها اللون الرمادي كالتي يضعونها في بعض الهياكل ، ثم اربـع زوايا وسقف وأرض خشبية كلها نظيفة ومضاءة ومعني بها عنـاية فائقة .. ومضيت انتظر وارقب ما عسى ان تكون الحركة التالية . .

وسمعت صوتا يناديني ، فاستدرت ابحث عمن يكون مصـدره لكنه كان يبدو آتيا من خلف جدار ، أو من خلف الستارة على وجـه التحديد .. وهكذا ادركت إني لن ارى وجه محققي ، ولكني عرفته رغم هذا الجدار المصطنع القائم بيننا فلا شك أنه كان صوت ذلك الشـاب الرشيق الذي كان يحرسني ، بينما بدا لي أن الاحدب يقوم الان بـدور ثانوي هو دور الكاتب ، فقد سمعت حفيف القلم اكثر من مرة وهـو يحاول اللحاق بي حتى لايفوته شيء مما أجيب .. وكان واضحا ان المحقق يعرف كل شيء عن حياتي ، فقد مضى يلقي اسئلة كثيرة وسريعة ومتلاحقة ، على ان أجيبه عنها جميعا بلا تردد ولا غموض .. وقـد بدا لي أكثر من مرة أن أفاجئه بمعرفتي له ، أو على الاقـل أن أطـرد فيما بيني وبين نفسي ـ سلطته ، وانتزع من قلبي الايمـان بقـدرته التامة على اتهامي وعقابي ، وبهذا وحده استطيع أن أضع بيني وبينه حجابا حقيقيا وكثيفا لايستطيع ان ينفذ من خلاله الى ما يجد من اسرار في حياتي .. كان ضعفي أمامه وخوفي منه وايماني بقدرته وحـرارة الغربة المعذبة هي التي تساعده على الحصول مني على كل ما يريد ... سالني عن اسمي وعن وظيفتي وعن أقربائي ، وسمعت الاحدب يكتـب جميع الاجابات في سرعة فائقة ، ثم عاد يسالني عن سبب اختيـاري لهذا المسكن في هذه الحارة ، وعن سبب وجود هذه الخادم بهذا الاسم في منزلي وما اذا كان لي بها علاقة .. ثم عاد يسألني : ما الذي كنـت تحمله معك مسـاء اليوم ؟ واجبته : ليفة ما يغتسل بها الناس .. . فقهقه قهقهة مدوية وسالني : أين اختفت اذن ؟ اجبته : لقد ضاعت مني اثناء الطريق .. قال : اذن فها أنت تعترف .. ثم زاد ضحكه رعبـا ودويا ، كما يبدو أن الاحدب رمى قلمه واستلقى على قفاه ليشـترك معه في الضحك .. ثم سألني عن معنى الكلام الذي كان مكتوبا فـوق ورق الجرائد ، وعن لون مخـدعي الازرق ، ولماذا أخذت سيارةالاجرة ثم هربت منها ولماذا شاهدت ذلك الفيلم بالذات وجلست بين السيدة والرجلين ولماذا انحنيت على أرض الطريق ، ومـاذا التقطت اذ ذاك ـ وهذا أمر لااذكر اني فعلته هذا المساء الا اني لم استطع أن انكر احتمال

ذلك ، بل وتصديقه ، فقد كان يبدو انه يعرف اشياء اجهلها أنا عن نفسى وهو لايريد حقائق فهو يعرفها ، لكنه كان يريد ان يحصل على اعتراف وهكذا بت على استعداد لان اؤيده على اقتراف اعمال بمجرد ذكـرها لى .. فمضى يسألنى عن القط الذى كان يموء ، والجبن والدود والكلب الذى يملكه جارنا والخطوات التى كنت اقيس بها الطريق ، ولماذا لاادخن ولماذا لم استطع الزواج ولماذا لاأستطيع الاختلاف آلا الى مقهى واحد ؟ .. كان يطلب منى تفسيرا لاشياء لاأجد لها تفسيرا ، وكان هذا عجزا حقيقيا منى فقد توهمت اننى هيأت نفسى بكل ما املك من دفاع ، لكن سرعان ماثبت لى خطئى الفاحش وانى مجرد أعزل من كل شىء أمام هذا السيل المنهمر من الاسئلة الدقيقة التى تخصنى تماما والتىكان يجب أن أعرف اجاباتها جميعا .. كان المحقق يضعنى موضـع المسئولية من كل ذلك ، وأنى لمسـئول عنه جميعا . .

وحين انقطع حفيف القلم ادركت ان التحقيق قد انتهى ، وعلى أن اخلى المكان فقمت اتجه نحو حارسى الذى كان ينتظرنى فى الظلمة الخارجية ، متذكرا كيف كنت فى جبن أتحايل على التهرب من الاجابة الصحيحة ، لانه كان يبدو لى انه لم يكن ثمة اجابة لكثير من هذه الاسئلة .. لهذا ادركت أنى قصرت تقصيرا شديدا ، تقصيرا يكاد يدنينى من العدم .. ففى استطاعة هذا المحقق أن يلصق التهمة بى ، ولهذا اعددت عن نفسى هذا الدفاع .

فغدا سيجلسون لمحاكمتى ، وسيلقون على التهمة تلو التهمه ولن ادعهم يستمرون .. سادافع عن نفسى ، وسأجعلهم يدركون ان شيئا مما فعلوه لم يكن ليفاجئنى .. سأخبرهم كيف نشأ لدى ذلك شيئا فشيئا وانا اعبر طرقات هذه المدينة المزدحمة فى طريقى الى عملى صباحا وفى طريقى الى مقهاى مساء وفى طريقى الى منزلى صباحا ومساء .. سأقول لهم أن زحمة الطريق كانت تضايقنى ، وحتى المقهى الذى اخترته لان به شيئا من هداة ، كان احيانا ما يزدحم فى بعض الاماسى ، فينعكس ضجيج الناس ووهج النور فى عيونهم وفى رائحة دخانهم ، فيصيبنى انقباض ويأس شديدان .. لقد كانت المسألة فى أول أمرها مجرد رغبة فى الهدوء ، ثم اصبح شبه احساس بالخوف بلزوجة فى اجساد الناس وكلماتهم ونظراتهم .. وأخيرا ادركت وانا اعبر شوارع هذه المدينة أن هناك من يتبعنى وسط الزحمة ، وكان هذا أبعد مما وصلت اليه مخاوفى ، فانا رجل مسالم لا اصدقاء لى ولا زوج ولا اطفال ، فلماذا يتعقبنى شخص أو اشخاص وانا سائر فى هذه الزحمة الكريهة؟ وهكذا نشأت لدى رغبتى المستمرة فى الانكماش والتضاؤل ، حتىاصبحت

كانى فأر فى مصيدة عليه ان يتجه ان يمينا وان شمالا حتى يدمى وجهه وينهـــــك عبثا قواه ..

لقد كان كل املى فى الحياة هو ان اعيش فى هدوء ، بعيدا عن كـل صخب وضجيج ، ملتصقا بعمل هادىء لامجال فيه للمغامرة والمقامرة ، وظيفة ذات اجر ثابت ، حين تتبلور كل آمالى فى ان يزداد اجرى جنيها أو جنيهين كل بضع سنين ، لهذا نفضت يدى من الحب وتحاشيت الزواج ، وتجنبت اسراتى منـذ زمن بعيد ، وحاولت ان اختار مسكنا هادئا وخادمة مطيعة فى منعزل عن الناس ، ومضيت ادبر شئون حيـاتى باقل قلق مستطاع ، لكن هاقد ذهبت كل محاولاتى ادراج الرياح ،وبالرغم من كل هذه المحاولات فقد وجدت اخيرا من يتتبعنى فى شوارع المدينـة وازقتها ، ومن يعرف كل اسرار حياتى ، ومن يحاول ان يسد على كـل منافذ الخلاص ، ويتدخل فيما حرصت ان اخفيـــه عن كل انسان .. حتى وضعت اخيرا فى مكان مظلم تذهب فيه الخفافيش وتجىء طـولا وعرضا وصعودا وهبوطا ..

سأعلن على الجميع انى ما اردت يوما ان اكون بطلا ولا رجـــــلا مسهورا ، وسيكون شهودى على ذلك هى اولئك الذين شاهدونى لاخر مرة هذا المساء ، وسأستشهد بالبائع المتآكل الانف ، وبالحسناء والشاب الذى يحادثها كأنما فى حذر ، وبالسائق المذعور والمصاب الذى وطئته العجلات ، وبقاطعى التذاكر والسيدة التى تحك جسدها فى كآبة الى جانبى ، وبالذين كانوا يتهامسون وبالذين كانوا يتلفتون ويتامرون ..ثم استشهد بخادمتى «نور» وبالقط الذى يموء وبالكلب الذى ينبح وبلون غرفتى الازرق ، فكل هؤلاء معى ، وهم يدركون ان كل ما اردته هو ان اكون مطمئنا ــ ولا اقول سعيدا .. ولقد كانت طريقتى اليوم الى ذلـك هو ليفة أحك بها جسدى المتلبد ، وسأحلف بنوافذ بيتى السبع ــالتى دون عددها الاحدب ــ وبحق البطل الذى انتصر على الشاشة ، اننـى حين اشتريت هذه الليفة ماكنت ادرك ما يترتب على ذلك من خطـورة بالغة ومعركة مضنية .. ساشهد هؤلاء امام الناس مكررا انى ما اردت ان اصبح عظيما ولا زعيما .. ولا غنيا . بل مواطنا تطمئن اقـــــدامه للخطوة التالية .. وانا اعلم ان هذا هو موطن الضعف الوحيد فى دفاعى ولكنى سادافع عن نفسى حتى نهاية النهاية ..



الطريق إلى الصحة



كنا على أهبة الاستعداد ، وعندما انحنت على أمى لتودعنى بقبلة، لمحت بعينيها شبكة من الشعيرات الدقيقة القاتمة الحمراء فأسلمت لها وجهى وانا احس بمذاق القبلة الباهتة على جبهتى . ثم مضيت أتبع والدى ، وكل منا يحمل حقيبة مثقلة متآكلة كأنها حق قديم ..

وأمام الباب وقفنا ننتظر . كانت عيوننا تمتد الى نهاية الطريق المتعرج كأننا نستعجل قدوم السيارة المقبلة ، وهى ما تنفك ترتفع مع ارتفاع الطريق وتنخفض مع انخفاضها .. وامامها — وعلى بعد ذراع واحد — كان ثمة طفل قد رفع يديه وجعل يعدو كأنما يفسح لها الطريق أو كأنما يشدها نحوه بخيط رقيق خفى ..

فلما وقفت نزل منها سائق عملاق قد لوحته الشمس ، ثم فتح لنا فى انحناءة باب السيارة الخلفى .. ونظرت الى والدى اتهيب الدخول الى مثل هذا المكان ، أو كأنما اتهيب ما أزمعنا عليه من أمر .. ثم انحنى والدى حتى كون ما يشبه القوس المتعرج ودفع امامه حقيبته ، ثم انحنيت خلفه ووضعت قدما داخل السيارة ورفعت الاخرى .. فلما أرقدت حقيبتى بارض السيارة أدخلت قدمى الاخرى ، وحين استوينا على المقعد المبطن المهلهل دفع الطفل وراءنا باب السيارة فى عنف ، ثم تقدمت السيارة الى الامام قليلا ثم كأنما عادت فعدلت فجأة عن امر ما فتقهقرت بشدة الى الوراء حتى لقد ارتطمت ذقنانا بحافة المقعد الامامى ، وكان السائق قد استقر عليه ، فجعلت أتأمل الان رأسه السوداء المنحنية امامى فى الفراغ ..

وربما لم يحدث منذ سنوات ان اختليت بوالدى مثل هذه الخلوة كان كل منا مأخوذا بمشاغله مندفعا مع جيله ، لايكاد يجد وقتا يهبه للاخر ، أما الان فقد كانت قسوة الحدث ووحدة الطريق تربط بيننا .. وقد فصلنا عن السائرين والعابرين باب انصفق فى عنف وقلقلة السيارة المترنحة وهى ما تزال تدفع احدنا لصق الاخر بشدة ثم تعود تفصلنا لتلصقنا من جديد ، وثمة رأس شجية هلامية قد استقرت فى عيوننا..

وقد بدا لى فى أول الامر ان هناك مجرد احمرار مجهول يشوب هذه الرأس السوداء ، ثم فجأة فغرت فمى .. فقد كانت اذن السائق اليمنى — ومن نهايتها السفلى تماما — تقطر دما .. وكأنما هناك قطعة صغيرة من اللحم قد انتزعت حديثا بلا رحمة ، والتفت الى والدى لاريه كيف تذوب الاذن الكبيرة الماثلة امامنا ، وكيف ينسكب منها الدم كأنما يسقط فى هاوية .. ولكن والدى كان جالسا مطمئنا وقد عبر بنظراته الى ما وراء الرأس وما وراء الذين فى الطريق يعبرن الخطر أمام زجاج السيارة . وكانت الاذن تذوب شيئا فشيئا ، وقد امسك السائق

عجلة القيادة بكلتا يديه ، وأبى كانما لاينظر فى شىء ، وانا لااستطيع أن اشيع الاضطراب فى التسلسل اللامتناهى للافكار المتداعية عليه .. وكان السائق قد رفع الان يده اليمنى يتلمس إذنه حيث يقطر الدم ووضع هناك كفه لحظة أو بعض اللحظة فلما اطمأن الى تلوثها عاد يضعها أمام عينيه كانما يبحث فيها عن شىء ، ثم نفخ فاتسعت النقطة ، وتناثرت على اجزاء الكف ثم عاد يضغطها فى العجلة التى امامه .

وقلبت فى جيبى بحثا عن منديل . فلعل المنديل أن يكون ضمادا مؤقتا ، ولكننى ادركت اننى نسيت كل المناديل على المنضدة بالمنزل حيث اعدتها لى أمى قبل خروجى .. وكان ثمة منديل يشوبه الاصفرار يطل باحدى زواياه من جيب والدى ، ولكننى خشيت ان أسحبه فاقطع الصمت الضرورى المتصل بيننا فآثرت الانكماش والانتظار . وكان الدم قد اخذ يتلكأ الان حول نهاية الاذن المقضومة ، ويتكاثف ويقتم ، ثم يتجمع فى نقطة كبيرة تسقط على مهل فى الفراغ .. وفجاة مال على والدى وهمس قائلا :

ــ لقد اقتربنا ..

ولمحت التجاعيد المرتسمة على وجهه كأنما اراها فى مجهر ونقطتين من العرق توشكان على السقوط من جبهته ، ومن خلفنا كانت الابنية ترتفع ، والطريق تتسع ، والعابرون يندفعون كانهم قطيع مجفل متفرق بلا راع .. وكان واضحا أن السائق الاسمر يبحث الان عن مكان ملائم يقف فيه بسيارته .. وفجأة ــ وبلا توقع ــ وقفت السيارة كأنما على غير ارادة من سائقها ، وانفتح الباب ودفعنى والدى امامه الى الخارج ، فنزلت أحمل حقيبتى ومن خلفى ابى وهو يجر حقيبته على ارض السيارة ، وأطل السائق من مقعده ، وبسط كفه يقبض فيها الاجر ، ثم صفق باب سيارته الخلفى بشدة وغاب عن انظارنا . وكان الضحى اذ ذاك قد ارتفع ..

وارتقينا الدرج . ودلفنا بين الاعمدة الكثيرة المنتصبة وعرج والدى جهة النافذة الحديدية الضيقة ، وامتصته الزحمة وسمعنا صفير القطار ، ونفذنا من باب ثم من باب ، ثم انخفضنا فى دهليز رطب مستطيل ، ثم عدنا فارتفعنا على سطح الارض ، ونفذنا من باب ثم من آخر ، وشاهدت الرصيف يطفو بالحمالين والحقائب والباعة والمتعانقين والاطفال والسيدات ، ثم ازدحم القطار بحيث بدا كأنما عزم ألا يزدرد اخر ، واحتشدت فى نوافذه وممراته وأبوابه رؤوس وأيد ومجموعة من المناديل المترنحة القذرة ، وبدا بعرباته الست الضيقة المنخفضة

ونوافذه الكثيرة المتعددة وسطحه المقوس كانما هو سلسلة فقــــرية لحيوان جيولوجى هائل بائد ، قد علاها فجأة جيش كبير من النمـــل

واقتربنا من أحـد الابواب وقد احتشدت فيه مجموعة من الاجساد المنضغطة المستطيلة ، تدلت منها أقدامها وأذرعتها .. وكان لابد من ايجاد مكان ما ، فالقطار ما ينفك يطلق صفيره كانما يوهم الراحلين فى كل لحظة بانه على وشك التحرك .. وقد تقلقل عن مكانه قليلا فشـاع ما يشبه التفصم بين المحتشدين على الرصيف وبين الاذرع المتشابكـة بالنوافذ ، ولكنه عاد فوقف . وشقت الحقيبة طريقها بين الاجســـاد الملتصقة اللزجة ومن خلفها والدى ، وكنت اود أن اعود الان لحظــــة لاعرف ما تم فى امر السائق واذنه ، لكن يبدو أن تفكيرى فى ذلك قد جاء متاخرا جدا ، فما لبث والدى ان جذبنى معه الى الداخل . ثم شــق لنا طريقا خلال الاذرع والارجل حتى وجدنا لاقدامنا مكانا داخـــل العربة ، ثم صفر القطار صفيرا متقطعا ثم آخر متصلا رفيعا وامتـلات السماء بالدخان الاسود المتناثر .. ثم شاعت القلقة بين العربة من جديد واســـتأنفت العجـلات دويها ..

ويبدو انه كان فى الزحمة شىء من الوهم ، فما أن تفرســنا فى العربة بحثا عن مكان بين الاجساد المتناثرة ، حتى وجدنا مقعدا يسع شخصين امام رجل وسيدة وصبى فى الثامنة أو التاسعة يبدو أنه طفلهما ،فجلسنا ووضعنا الحقيبتين بيننا حيث لم يكن ثمة مكان اخر . وكان يبدو ان الرجل فى نحو الاربعين . أشيب الشعر ، لايفتأ يتمخط بين حين واخر ، وفى هندامه شىء من عدم الاكتراث ، أما السيدة فكانت اصغر منــــه قليلا ، على شىء من الملاحة ، ولكن أنفها طويل للغاية ، وعجيزتها ضخمة جــدا . وكنت لااعلم هل هما فى حالة من الهيام او من التعب فالسيدة لاتنفك تميل برأسها وشعرها على ذقن الرجل وعنقه ، والرجل ما ينفك يداعب شعرها بانامله مداعبة هادئة احيانا ، عنيفة احيانا اما الطفل فكان فى أول امره مشغولا بالنظر من نافذة القطار ومداعبة الغبار والفراغ ،ثم عاد فاعتدل فى جلسته ونظر نحوى وجعل يبتسم ، ولم يكن لابتسامته فى اول الامر معنى محدود ، فهى قد تكون رضاء وقد تكون ســخرية. لكن شفتيه استطالتا وعينيه ضاقتا حتى قاربت البسمة ان تكــون سخرية فتحولت بعينى ، وتلفت الى والدى لارى الاثر المرتسم عليه ، وعيســـانى أخلق الان معه حديثا ما ..

ولكن والدى كان مشغولا بشىء غريب ما توقعته .. فقد كــان ثمة بقعة كبيرة سوداء قد انطبعت الآن على أسفل جاكتته ، وكان من الواضح أن شيئا مما فى داخل الحقيبة قد انسكب داخلها وتسرب بعضه

على ملابسه ، وكان الان منشغلا يمسح فى هدوء هذه القبعة المبتلة بمنديله الاصفر الباهت ، وانتشرت رائحة فريدة فى المكان ، ربما كانت رائحة سمك ، وخيل للزوجين ـ بغير حق ـ انها تنبعث من هذه القبعة المستديرة السوداء ، فانقطع ما كان بينهما من هيام ، وبدا على وجهيهما شيء من التأفف والاشمئزاز ، واستطالت من جديد شفتا الطفل وضاقت عيناه .

وتمخط الرجل وانحنى نحوى وهو يقول مشيرا الى الحقيبة :

ـ هل بها سمك ؟

فأجبته :

ـ سمك ؟ كلا ، ان هذه الرائحة تنبعث من مكان اخر ..

هذا مجرد خل ..

فطأطأ راسه وقال :

ـ ولكن ماذا يفعلون بالخل فى المصحة ؟

فقلت له فى دهشة :

ـ ولكن كيف عرفت اننا نقصد المصحة ؟

فاجابنى وهو يبسط يديه :

ـ كيف ؟ هذا بسيط للغاية ، فانت ترى كل الراكبين بلا حقائب وانتما وحدهما اللذان تحملان حقائب مثلنا ، ومعنى هذا انكما لن تقصدا الميناء الجوى ، ولا يوجد مكان آخر سوى المصحة !!

فاجبته مندهشا :

ـ ولكن ما امر الزوجات والاطفال اذن الذين كانوا بالرصيف ؟

فتمخط من جديد وقال :

ـ هؤلاء كانوا يودعون ركاب الدرجتين الاولى والثانية ممن يقصدون الى مابعد المطار والمصحة ..

وكأنما لمح على شفتى شبه سؤال حائر فاستطرد فى شيء من السرعة :

ـ انني ذاهب مثلكما الى المصحة ، هناك ابننا خليل ، فتى لايزيد

عن السابعة عشرة ، لاتدرى كيف اصـــيب بهــذا الــداء الوبيل .. وانتمـــا من تقصـــدان ؟

فاجبتـــــه مطـــــــرقا :

ـ اخى صـــالح ..

فصـــــاح قائـــلا :

ـ آه صالح ، لقد رايته فى الزيارة السابقة لابنى ، ان حالته مثـــل ابنى من حالات الدرجة الثـانية .. لاتكتئب ، سيخرجان من المصحة اكثر سمنة مما دخلاها ..

فرفعت راسى الى الرجـــل قائلا :

ـ ان اخى صالح قد فقد شهيته منــذ عشرة ايام ..

ـ وابننا خليل كذلك ، وانا ذاهب مع امه اليــوم لنقنعه بضرورة الاكـــــــل ..

فســـــألته فى تردد :

ـ ولكن اليس خليل عنيدا ؟

قـــــــال :

ـ انه عنيد الى حد ما ، ولكننا احضرنا ما يفتح له شهيته ، انظـر هنا فى الحقيبة حلوى وكنافه ، وفى تلك لحم وســـــمك .

فصـاحب فى تأنيب :

ـ سمك ؟ اذن هذه الرائحة تنبعث من حقيبتكم ؟ ..
فأجاب فى طمأنينـــــــة :

ـ لا ، لا لقد لففناه بكثير من الورق ولا يمكن ان تنبعث منـــــه رائحـــة ما .. انها تنبعث من مكان آخر بلا شك .. انظـــر .

ورفع الحقيبة الثقيلة وكاد يدسها فى وجهى .. وهنـــا انحنت السيدة بأنفها الطويل على ابنهـــا ، واقبل والدى بوجهه ولا يزال يمسح بمنديله على البقعة الكبيرة السوداء وقال :

ـ اذن إنتما جئتما لزيارة هذا المـكان من قبـــــل وتعــرفان الطـــريق ؟ ..

ـ نعم لقد جئنا من قبل بغير شـك . وسيقف القطار بنا بعــــد

خمس دقائق ، ثم يمتد طريق رملى صحراوى لمدى نصف ساعة ، حيث تبلغــــان ابواب المصـــــحة ..

ولقد هدأ بالفعل دوى العجلات قليلا ، فقام والدى يحمل حقيبتـه المبتلة ، واندفعت وراءه .. ولكن المرأة ضحكت ضحكة خافتة ، وطلب منا الرجل أن نتريث فالقطار يهدأ هنا بسبب انحناء الخطوط الحديدية ولا يزال أمامه اربع دقائق كاملة ليقف .. ثم اردف قائـــلا :

وسيغادره معظم الراكبـــين ، فلا داعى للعجـلة .

ومع ذلك فقد ظل والدى واقفا وجلست انا على حافة المقعـــد متأهبا للقيام ، وقد بدت ابنية المطـــار وطائراته الجاثمة من بعيـد ، ثم عاد القطار يهدأ قليـلا قليـلا ، والراكبون من عمال المطار يقفـــزون تباعا من أبوابه ونـــوافذه .

ولم يكن هنـاك ما يشبه المحطة فى شىء ، بل مجرد اعمدة اربعـة من الخشب كانها نصب فوق قبور لمجهولين ، ثم رمال وتلال تمتـــد الى نهاية البصر .. وكان ثمة سيارات كبيرة واقفة كانما تنتظر ،وسرعان ما قفز اليها العمال ، فما مرت لحظات حتى كانت الارض قد ابتلعتهـم جميعا .. وكان واضحا ان الرجل وطفله وزوجه ذات العجيزة والانـف قد قفزوا الى احدى هذه الســيارات مع العمال ، أما نحن فكان علينـا أن نقطع بقية الرحلة سيرا على الاقدام فى هذه الارض الغريبة ، ولن نستدل من حـين لاخر بانسان هنا او نصب هناك .. وقد وقفنـــا وحيدين أمام الرمال المترامية والرحلة المجهولة والفـــزع الغامض ، والظهيرة ما ينفك قيظها يعلو ويشتد .

***

وكان القطار قد ابتعد الان فكون مايشبه الخط الاسود الغامض فى الافق البعيد .. ومضى كل منا يحمل حقيبته ، ونحن نقتفى اثـــر السيارات المتدحرجة عنا وسط الصمت والقيظ ، وكانت التــــلال المنخفضة ومسارب السيل القصيرة الجافة المترددة كانما تمتد حتى تلتقى نهايات الافق بنهايات الارض ، وكانما هناك دعاء مرير ينبعث حوالينـا من السماء الزرقاء ، ومن الارض الفسيحة المنبسطة ، ومن الريح التى تهب بين حين وآخر ، غريبة وبلا توقع ، فتثير الحصى والقذى ، ثـــم تعود فتهمد كانما الى الأبد .. كان مكانا يضطرنا الى العزلة ، وهى عزلة موحشة لاقداســـة بها ، فهو يعزلنا حتى عن انفسنا .. وكان السراب

يلوح لنا على بعد فنلتقى هناك ، ثم يرتد بصرنا فينحسر عن اثر العجلات ومواطىء الاقدام .. وكان لايبدو لى شيء من امل ، فالطريق ما تنفك تزداد طولا ، والقيظ ما ينفك يشتد اندلاعا ، والصخور من حولنا ما تنفك تزداد قتامة وتوهجا .. وعندما انحنى بنا الطريق لمحنا رجلين يصلحان أسلاك البرق فى هذه المنطقة ، فلما اقتربنا منهما صاح احدهما بصوت كالرعد :

ـ انتما ذاهبان الى المصحة بلا شك ..

فاقترب منهما والدى وقال :

ـ حقا نحن ذاهبان الى ذلك المكان .. فهلا تعرفان الطريق ..

فضحكا معا كأنهما يقومان بدور فى مسرحية او جوقة ، ثم اشار احدهما الى الافق وصاح :

ـ وكيف لانعرفه ؟ ربما كان هناك ..

فآثرنا الابتعاد وعدنا نستأنف المسير ..

وكان الحوار الصامت قد اخد يتصل الان بينى وبين والدى - حوار تتداخل فيه عناصر الصخر والرمل ، والاذن التى جمدها الدم ، والاخ الراقد فى المكان المجهول ، وفزع الوقت وكآبته .. كان بيننا حوار يملا ثلاثين عاما فصلت ووصلت مابين جيل وجيل ، ونحن نوغل فى هذه المنطقة من الوجود حتى التقينا بنقطة يتفرع عندها الطريق ..

وكنت اذ ذاك قد بلغت قمة الاعياء ، ودب الضعف الى ، وخيل الى اننى لن أصل ابدا ولن اعود .. ورأيت فى هذا التفرع ما يبرر لى عدولنا عن رحلتنا التى لاتنتهى ، فنظرت نحو والدى وهو يبتسم .. ثم اندفع فى احد الطريقين لايلوى على شيء .. ولوح لى يشجعنى فهناك ما يشبه الحياة على مسافة من الطريق ، فتحركت من جديد ، وبكارة التجربة تربطنا بغاية واحدة ، ثم تعود تفصل بيننا السنون والرؤى والاساطير .. وكنت اود الان لو اقطع هذا الحوار بكلمة او همسة فأثير الشك فى نفس أبى وأستعيد منه شيئا من الايمان ، لكن شيئا من التهيب كان يدفع الحوار فى طريقه فلا تقطعه كلمة ولا همسة .. وهكذا اندفعنا نسمع وقع اقدامنا ، ونجفف العرق ، ويستبدل كل منا حقيبته من يد الى آخرى متى امتلات كفه باللزوجة والعرق

ولاح لنا هيكل لسيارة صغيرة متداعية ، ينحنى تحتها رجل قد اخفى نصف جسده هناك كانما يصلح من عجلاتها او يستظل من حرارة

هذا القيظ .. فلما اقتربنا ، واصبح لاقدامنا وقع فى مسامعه ، زحف برجليه الى الوراء ثم رفع راسه نحونا وانصت قليلا وهو ينفض يديه مما علق بها من رمل وحصى . وفغرت فمى وامسكت على يد والدى اشدها ، فعلى بعد ثلاثة امتار منا كان يقف السائق ذو الاذن المقصومة والذى تركناه خلفنا بالمدينة .. وصحت فى فرح ودهشة :

ـ كيف وصلت ايها الرجل العظيم الى هذا المكان الميت القائظ .. وكيف قطعت هذا الطريق الشاق بسيارتك تلك ؟
ولم يبد انه استاء من حديثى بل ضحك قائلا :

ـ اننى احمل كل يوم الوانا من الناس الى مختلف الانحاء ،ولشتى الاغراض ، وسيارتى سليمة على ما بظاهرها من القدم ، وانى لارى انكما ذاهبان الى المصحة ، فهلا تتفضلان ؟

وانحنى امامنا يفتح باب سيارته لنا ، وانحنينا نحن ودخلنا ، وصفق الباب وراءنا ، ثم جلس الى عجلة القيادة .. وكان الدم قد تجمد الان حول الاذن ، وكون ما يشبه السواد وسط الجرح ، أما بقية الاذن فكانت شديدة الاحمرار كانما تلتهب ..

ومضت بنا السيارة ترتفع وتنخفض ، وتشابك امام زجاجها المسارب الجافة ونهايات الافق ، وتنتشر على جانبيها قبور لجنود أجانب مجهولين اقبلوا من أحضان امهاتهم وزوجاتهم ليموتوا فى هذه الصحراء المحرقة فلا يعودون .. وكانت النباتات الشوكية الرمادية الحادةتفجؤنا بين حين وآخر ثم سرعان ما تختفى وراء كثبان من الرمال لاتنتهى ، والريح واللهيب وقلقلة السيارة كانما تاتى الان من عالم متباعد نهائى .. والسيارة تشق طريقها فى فراغ برىء طاهر ، يفضى بنا الى نهاية قريبة مرجوة .. فها قد لاحت لنا البوابة العظيمة من بعيد ، وهدأت سرعة السيارة قليلا وهى تعبر بقايا الطريق الصخرى .

لقد اوشكنا على نهاية الرحلة ، وبقيت امامنا المغامرة الاخيرة، فها نحن نغادر السيارة ، وبعد قليل سنعبر هذه البوابة الضخمة ثم نجتاز الممرات الكثيرة المتعددة والقيظ والصخر ، ونلتقى بالاخ العزيزفىمكانما، ونقبله فى عنقه وفى وجهه ، ثم نبلغه سلام الام ، ونسأله ذلك السؤال الذى لايجيب عليه أحد : لماذا اصبح من المصدورين ،وكيف انتقلت اليه عدواه ؟ فلقد القينا هذا السؤال مرارا على انفسنا وعلى الجالسين الى مكاتبهم وعلى العابرين فى الطريق ، فلم نحظ بجواب حتى الان ، لكننا ما مللناه ..

اننا سندخل المصحة الان ايها السائق العملاق الاسمر ، فانتظرنا

حتي نعود ولا تمل الانتظار ، سنضاعف لك الاجر ، ونداوى لك اذنــــك حالما نعود ، وربما حملنا اليك هذه السيدة ذات الانف الطويل والعجيزة الضخمة لتجلس الى جانبك وتداعب بشعرها عنقك .. لقد استيقظنا مع الفجر ، واعددنا هذه الحقائب الثقيلة ، وقطعنا طريقا شاقا طويلا ، وحرصنا ان نقبل فى الميعاد تماما ، وهاقد اشرفنا على المصحة فرأينـــا منها اسوارها البيضاء ، ومرضاها الناقهين ، فانتظرنا لكى تحمينـــا من الصخر والرمل ، ومن مخاوف السراب والافق ، ومن شرود هــذا التيه . فنحن بدونك لن نبلغ اخبار الاخ الراقد الى الام القلقة فى المدينة بانتظارنا ، ولن نجـــد ما نستتر به رأسنا عن وهج الشمس ، ولا من يدلنا على المنحنى التالى فى الطريق ، ولا من يحمينا من قلق هذا الزمن وكـــــآبته ..



سياحة البطل

مؤمن عبد السلام عيد ، استطاع ان يحصل على وظيفة كاتب بمصنع للدخان بمرتب شهري قدره اربعة عشر جنيهات ، كما خطب الى نفسه اخيرا فتاة استطاع اقناعها بان تشاركه حياته ، واسمها — على سبيل المعرفة — عنايات . لكنه ما لبث أن قال : وما فائدة الوظيفة وما فائدة الخطيبة اذا لم يكن لى بيت ؟ ..

لهذا فى صباح كل يوم من أيام الجمعة ، يوم عطلته الاسبوعية ، يقوم كانه ذاهب الى عمله اليومى ، يقوم كانه يؤدى واجبه الدينى ،يقوم كأن امامه رحلة طويلة شاقة ..

ونظر الى الرجل الذى شاركه غرفته هذه الليلة . كان شخيره

لايزال يعلو وينخفض ، ورائحة الريف تنبعث من ثيابه ، وصياح الدجاج ورائحته تنتشر فى المكان . ففى مساء الامس أقبل هذا الرجل يحمل أقفاصا من الدجاج ، حين كان النعاس قد أخذ يتسلل الى عينيه ، وحين كان المكان قد هدأ الا من صوت الارانب التى يربيها صاحب الفندق وهى تقفز فى الظلمة وتحت السرير من حين لآخر .. ثم جمعتهما الغربة والوحشة والظلمة المغرية الخبيثة ، فمضى يدلى باعتراف كامل عن تاريخ حياته ، وكيف تدرج حتى أصبح اليوم تاجرا للدجاج ، وها هو ذا قد اقبل بهذه الاقفاص جميعها يرجو أن يبيعها فى سوق المدينة صباح اليوم .

وإمام باب الفندق كانت هناك نصف دائرة تنحنى نحوه ، تتكون من زجاجات الكازوزة المقلوبة ، قد دفنت منها رؤوسها فى التراب وبقيت بقية اجسامها متساندة منحشرة بعضها الى بعض على هيئة نصف دائرة تنحنى نحو طرفى الباب .

وكان صاحب الفندق يقصد بذلك — فيما يظن — الى زركشة المدخل العام وجذب أنظار العابرين . وكان هذا هو — على ما نعلم — جهده الوحيد الذى بذله للاعلان عن فندقه العظيم .

وعبر نهاية الحارة ، وفكر لحظة ان يقف عند مطعمه المفضل ليتناول شيئا يستعين به على رحلته الطويلة المقبلة خلال أزقة المدينة وشوارعها . لكن لم تكن له شهية على الاطلاق . وكان المطر قد هطل غزيرا فى تلك الليلة وتبقى منه الآن برك وأوحال مضى أطفال الحارة يتسابقون فى خوضها فتفاداهم وهو يواصل سيره .. فقد كان يعرف اليوم الى أين يتجه ولو فى الساعات الاولى من النهار ، فقد كان عليه أن يمر بمنزل صديقه صلاح ليدله على مسكن متواضع عساه يروقه وتروقه عروض صاحبه . وكان مطلبه — كما يبدو من اخفاقه المتتالى — عسيرا للغاية ، فهو لا يريد سوى مسكن متواضع بأجر متواضع ، مسكن به يؤدى غرائزه الاولى

غرفة للنوم وأخرى للاستقبال ومطبخ للطعام ومرحاض ، وكان هذا ــ فيما يبدو ــ عسيرا للغاية .

فما أن وصل الى منزل صاحبه وعلا الدرج المعتم المتكسر ، طرق الباب طرقا خافتا متواليا ، فقد كان يبدو كأنما النعاس لا يزال يملأجنبات البيت . وحين أعاد الطرق من جديد ، أعلى صوتا وأكثر جراة ، ترامى الى سمعه وقع أقدام مقبلة . فلما فتح الباب وجد نفسه أمام الزوجة الشابة وهى لما تزل فى قميصها الليلى ، وكتفاها تبدوان مستديرتين ناعمتين . ولما لمحته تراجعت الى الوراء قليلا ، وصاحت معتذرة : لا تؤاخذنى ، ظننتك بائع اللبن . ثم اذنت له فى الدخول .

ولقد راى صديقه جالسا فى الردهة يتناول افطاره . وبدا له انه شخص متطفل يزعج الناس فى بيوتهم فى مثل هذا الوقت المبكر وفى يوم راحتهم الاسبوعية ، لكن ما كان له أن يتردد ، فاندفع وصاحبه يصيح به : تفضل يا مؤمن ، فأنت لم تأكل بعد بلا شك . وأحس أن شهيته تتفتح الآن حقا ، ولكنه ادعى انه أفطر ، وتمتم متشكرا ، وهرول متجها نحو غرفة الاستقبال ، ولكن صديقه صاح من جديد يريده أن يجلس معه ويشاركه الحديث . وهكذا جلس أمامه ، وهو يود لو ينتهى من طعامه سريعا ، فوجوده فى مثل هذا الوقت قد قيد حركات الزوجة قليلا بلا شك ، ولعله ازعجها حين رآها وهى لما تنفض عنها النعاس ، وهناك البيت الذى يود لو يحصل عليه سريعا . ولكن الحاح صديقك يا مؤمن وهدوؤه وعدم اكتراثه لما بدا عليك من خجل ، لم يدع لك مجالا للاعتراض ولا لابداء شيء مما يعتريك .

ــ هل لك يا مؤمن فى سيجارة ، ما أخبار عملك يا مؤمن ، هل لك يا مؤمن فى قدح من الشاى ؟.. وكانت الشمس تنفذ من خلال النافذة ، وصلاح يتناول القدح ويقدمه لى ، ثم يقذف نحوى بعلبة سجائره . وكان على أن أرضيه فأطيع ، فأنا اليوم فى حاجة حقيقية اليه ، وهو وحده الذى يمكن أن يكون واسطة بينى وبين صاحب البيت الذى نقصده . وحدثنى عن عملى ، وحدثته عن طفله ، وشرب قدحه من الشاى وشربت قدحى من الشاى ، وتناول قدحا آخر ودخنت سيجارة اخرى ، وقام يتحرك وشعاع الشمس يزداد اقترابا منى ، وهو يغسل وجهه ، وهو لا يختفى عنى ، وأنا وحدى فى الردهة ، وزوجه تعبر أمام وجهى ، وأنا أشتهى النساء واشتهى حبيبتى ، عارية بضة ، وغرفة النوم ، وغرفة الاستقبال ، والمطبخ والمرحاض ، وصديقى قد ارتدى بذلته ، وأنا أود لو استعجله ، وهو يختفى عنى قليلا ليداعب طفله ويودع زوجه ، وأنا فى حاجة حقيقية اليه ، حتى جرؤت أخيرا أن أصيح فيه قائلا :

ــ لقد آن لنا أن نخرج !

ـ وفيم العجلة يا صديقي وامامنا نهار كامل ؟

ـ ولكني لا أريد أن تضيع منا عبثا دقيقة من دقائق هذا النهار .

ـ لا تخف ، لا تخف ، فان زوجي تعد لنا القهوة ، فاذا شربناها خرجنا توا . . . .

ـ لكننا شربنا الشاي ؟

ـ ما رأيك في سيجارة أخرى ؟

فلما تناولا القهوة ، خرجا الى الطريق ، فالى طريق آخر فثالث . طريق بعد طريق . طرق بعضها متسع وطرق بعضها موحل . وكان عليهما أن يخوضا ، وكان عليهما أن ينفضا الوحل وأن يستنشقا الوحل ، ومؤمن يتكيء على ذراع صديقه بين حين وآخر ، يتأمل راسه أحيانا وعينيه أحيانا .

كانت بينهما صداقة طويلة عنيفة ، فهو يكرهه وهو يحبه ، وكانا يحسان في هذه اللحظة انهما قد استنفدا كل شيء بينهما : تحدثا في كل موضوع ، وعاشا كل انفعال ، وما يزال كل منهما في حاجة الى الآخر . وسارا صامتين ، يعبران بقايا الوحل ، ويتفاديان دوائر الماء الضحلة ، ومؤمن يبحث عن معنى يتألق في نفسه أو خبر يثير من اهتمامهما أو امل يصنعانه معا ، فقد كان صمتهما الان محرجا للغاية ، كانما فيه حكم على ما يشوب علاقتهما من شيخوخة تحتاج الى التجديد . وكان مشروعهما الذي يهدفان اليه الآن قد أدخل شيئا من الجدة على علاقتهما ، وأحيا الرابطة التي بينهما . ولمحه مؤمن يتفرس فيه كأنما ليؤنبه على صمته، وأدرك أن صديقه ينوي ويمهد للحديث ، وكان يود لو يحادثه ، فعاونه على محاولته بأن تهيأ بوجهه لما عساه أن يقول ، وقد صدق توقعه حين رآه يهمس :

ـ فيم تفكر ؟

ـ لا شيء . .

ـ بل تفكر في شيء . .

افكر في شيء ، بل انا افكر في اشياء كثيرة ، غير مجد العلاقة التي بيننا، وانا أعلم أنه يصر أن أحدثه ، وكان علي ـ وانا اعبر بقايا الوحل ـ أن اختار له موضوعاما ، فأجبته :

ـ في البيت الذي نحن ذاهبون لرؤيته . .

ـ بل تفكر في شيء آخر .

ـ بل هذا ما كنت افكر فيه .

ـ بل فى شىء آخر ..

وهكذا حدث ما كان يخشاه ، فها هو ذا يحاول ان ينتزع شيئا منه شيئا من اعمق اعماقه ، يخفيه هو عن نفسه ، شيئا غامضا لا يعرفه وربما لا يريد أن يعرفه ، وهو يعتبر موضوع المسكن تافهـا لا يرضيه ، وعليه أن يختار له موضوعا يقنعه أنه محور تفكيره . وكان قـد قرر الا يذكر له كثيرا عما بينه وبين خطيبته عنايات ، فيكفيه أن يعرف أمر العلاقة العامة ، اما التفاصيل فهى شىء خاص به ، وكان يعلم أنه كثيرا ما أغراه بالحديث عنها ، ولكن فى كل مرة يعود من عنده وهو يحس انه قد امتلكه فلم يعد له سر خاص ، وقد سلبه ، سلبه بطريقة تهلكه تماما ، فلما لاحظ صمته همس فى رقة : وكيف حال عناياتك ؟

وابتسم مؤمن ، وتملكه اغراء أن يحدثه عنها طويلا طويلا ، لكنه كان يقاوم وهو يواصل هجومه :

ـ هل قابلتها بالامس ؟

ـ نعم ، وهى على خير حال وتبلغك تحياتها ..

نعم هى تبلغك تحياتها ، وهو خبر ليس مختلقا ، الا أننى ما ذكرته لك يا صلاح آلا عساه أن يرضى غرورك ، راجيا أن تعدل عن مواصلةالحديث فى هذا الموضوع ، لكن هذه الوسائل ما كانت لتجدى معك ، فعلى اذن ان اندفع فى الحديث ، وأن اذيع آخر الاخبار ، التى كنت قد قررت ـ كمـا قررت فى مرار كثيرة سابقة ـ أن تظل ملكى انا وحدى .

***

وفى النهاية وصلا الى زقاق ، والزقاق ينتهى ببناء ، والبناء ضخمجديد لا يتفق والزقاق . وحين راى مؤمن صديقه يتجه نحوه ، لم يصدقذلك أول الامر ، ثم قال لعله ذاهب يستفسر عن شىء . فلما اصبحا وجهـا لوجه امامه بوابة النوبى الضخم ، احس شيئا من الاشـفاق والتهيب وهمس فى اذن صاحبه :

ـ هل المسكن الذى نبحث عنه موجود فى مثل هذا البناء ؟

ـ بلا شك ، والا فما معنى هذه الرحلة الطويلة كلها ؟

ـ لكن مساكن هذا البناء من النوع الذى يعلنون عنه فى الصحف .

ـ لكن هناك مكان اعتقد انه يلائمك .. الا ترى هذا الطابقالارضى؟

ـ بل هو تحت الارض.

ـ بل هو خير من مسكني الذي أوشك أن يتداعى .

لكن هذا المسكن تحت الارض ، ومسكنك يوشك أن يتداعى ، والبواب يقبل نحونا ، وصديقي يحدثه وانا اتفرس في سمرته ، وفي النقوش المحفورة على خديه ، فعلى كل وجنة أرى شكلا هندسيا لخطين متوازيين ، وهو ذو ثقة عظيمة في نفسه ، انه يحس بأهميته واننا الآن نعتمد عليه وعلى كل حركة وكلمة منه . وغاب لحظة ، ثم عاد وبيده مفتاح من النحاس الاصفر مربوط الى قطعة من الدوبار مع كمية هائلة أخرى من المفاتيح المختلفة الالوان والاحجام . وتقدمنا ونحن ننخفض خلفه بضع درجات . ثم وقف وتنحنح وبصق . وأدار المفتاح في الباب . وكان علينا أن ننحني قليلا جدا ونحن نعبر الباب حتى لا نصطدم بأعلاه . وكانت رائحة الطلاء لاتزال تفوح من جنبات الجدران ، كانت الغرف ضيقة ومنخفضة ومعتمة ورطبة ولكنها نظيفة جدا ، مهيأة أكثر مما أرجو ، فها هي ذي غرفة الاستقبال، وها هي ذي غرفة النوم، ومطبخ ومرحاض ، وهنالك أيضا ردهة وحمام كانت فيه الكهرباء وكانت تمتد خلاله انابيب المياه وكان يكسو أرضه البلاط ، وبنوافذه زجاج عليه طلاء ابيض كثيف يحول بيننا وبين أقدام العابرين في الطريق وبين نظراتهم اذا شاءوا الانحناء ، وهناك أسلاك دقيقة الفسحات وقضبان حديدية بين الزجاج والاسلاك . وكان البلاط في بعض الغرف مزخرفا ، وكانت الجدران في بعض الغرف مزركشة ، وثمة صدى لوقع أقدامنا على بقايا الرمل هنا وهناك . وصديقي يتمتم : رائع رائع، ما رأيك ، رائع ، وأنا أفكر في ضيق الغرف ، في عدد النوافذ ، في زواجي القريب ،في صديقي ، في المطر، في الحاحه ، في خطيبتي ، في صاحب هذا البناء ، في مصنع الدخان ، في الاجر الذي عساه يطلبه ، وصديقي يتمتم : رائع رائع . . فلما رأى صمتي ، اغتنم فرصة ابتعاد البواب ـ واحسبه قد ذهب يبول في مرحاض بيتي الجديد ـ وصاح :

ـ الامر يحتاج الى تردد .

ـ انتظر حتى نرى كم يطلب أجرا .

ـ دائما تعلق أمورك على شرط ، هل أعجبك البيت ؟

وظهر البواب من جديد ، فصمتنا وكأنهما منشغلان بشيء آخر . . ووقف البواب وقد عقد يديه كأنما ينتظر أمرا ، وكأنما لمح ما على وجهيهما من اشفاق وتهيب . وكان احساسه بأهميته في هذه اللحظة قد ازداد، فتفرس فيهما لحظة واحدة لكنها ما كانت لتغيب عن انظارهما ، وكأنما شاب نظرته شيء من الريبة فيهما ، فمال عليهما كأنما يوشك أن يدلي بسر خطير وهمس :

ـ هل تنويان ان تؤجرا هذا المكان ؟

ـ نعـــم نحـــن نفكر فى ذلك .

ـ وهل ستؤجرانه معا ؟

ـ بل سيؤجره واحد منا ، صديقى هذا .

ـ وكم يستطيع أن يدفع ؟

ـ بل كم يطلب صاحب هذا المسكن المعتم الرطب .

ـ اذا كان منخفضا معتما رطبا ، فاتركاه وعودا بعد يومين لن تجـدا غرفة واحدة خالية فى هذا البناء كله .

ـ قلت لك كم يطلب ؟

ـ لست أعرف على وجه التحديد ، لكنكما تجدانه الآن جالســـا بمقهى الازهار بميدان الحرية ، ويحسن الا تقابلاه مباشرة .

فقالا فى صوت واحد : ولماذا ؟

ـ لانه من الخير ان يكون بينكما وبينه وسيط فيؤجر لكما المســـكن باجر معتدل .

ـ لكننا لا نعرف أحدا من أصدقائه .

وجلس البواب على مقعده الخشبى ، خارج البوابة العظيمة ، تجـاه السلم الرخامى . والساكنون الجدد يصعدون ، والســاكنون الجـدد يهبطون ، وهو يرفع عينيه من حين لآخر ليتم حديثه ، وهما يصدقان كل كلمة مما يقول .

***

وكان المقهى يحتل زاوية عند التقاء الميدان بأحد الطرق المتفرعة عنه . ومساحو الاحذية منتشرون على طول الرصيف يلتقطون الداخلين كلمـا لمحوا حذاء موحلا أو شبه موحل . وكانت أبواب المقهى زجاجية ، قد طليت عوارضها الخشبية بطلاء حديث أصفر ، وعليها لافتات تحـــذر الداخلين من التلوث . فاقتربا من أحد هذه الابواب يرقبان الجالسين .

كان رواد المقهى من سن واحدة تقريبا ، يكادون يرتدون زيا متماثلا كأنهم تلاميذ فى مدرسة ، وكان اكثرهم لا يسير باعتدال ، بعضهم يسـير كأنما قدماه صناعيتان ، وبعضهم يخب كأنما له قدم اطول من الاخرى ،

وبعضهم يفسح ما بين رجليه كانما به شيء من كساح او كأنما هنـــالك مسامير داخل حذائه . ورغم اختلاف السن واختلاف الزى بينهما وبينهم الا انهما شعرا انه من الواجب عليهما ان يعرجا قليلا فى مشيتهما حتى لا يلفتا الانظار . اما القائمون بالخدمة فكانوا يملكون أقداما سليمة صحيحة، وكان الرواد جميعهم ــ بلا استثناء ــ يلعبون الشطرنج ويحتسون القهوة ويدخنون ، وكأنما قد قسموا انفسهم الى فرق واعلنوا السباق ، كـــل يريد أن يصرع اخاه . . كانوا منهمكين فى اللعب ، وثمة صمت منتشر فى المكان كأنما هو رواسب حوار عميق وعظيم وغريب قائم بين كل اثنين قد اشتد التنافس بينهما . والخدم يجيئون ، وهما يتفرسان فيهم عساهما يختاران الشخص الذى يتوسمان حاجتهما فيه .

وكانا قد تسللا داخل المقهى ، ودنا من ناحيتهما خادم اسمر بيده كوب ماء ، فلما وضعه امام أحد الجالسين وقفل راجعا اقتربا منـــــه ليستوقفاه ، وتفرس مؤمن فى وجهه فاذا به نوبى أيضا وعلى وجهه نفس الشكل الهندسى . . خطان متوازيان غائران فى وجنتيه . ورغم أنهمـا كانا يعرجان قليلا فى مشيتهما الا أنه أدرك على الفور أنهما غريبان ،وحين اخذ صلاح يسأله لمح مؤمن فى عينى الرجل نفس البريق ، بريق الاحساس بالاهمية كأنما هو ليس مجرد خادم بينهما وبين الرجل الذى يطلبانه . . ولقد أخبرهما أن «البك» ليس موجودا ولو أنه كان هنالك منذ لحظـات الا أن صديقه يونس بك لا يزال يجلس ويعرف أين يمكن أن يكون .

اذن فالرجل ليس هنا ، ويونس بك هنا ، ونهار كامل ، بل أسبوع آخر يوشك أن يضيع عبثا ، وخطيبتى عنايات تدفعنى وصديقى صـلاح يدفعنى ، والفندق ذو الارانب يدفعنى ،ورحلتى هذا النهار ووجودى فى هذا المكان وخطواتى التالية ، كل ذلك لا يدع لى مجالا للاختيار ، فعـلى اذن أو أواصل كفاحى بقية النهار .

ودلهما الخادم على رجل فى نحو الاربعين ، رأسه تلمع وعويناته تلمع وبذلته السوداء تلمع وحذاؤه يلمع ، من رأسه الى قدميه . . كان ينبعث منه بريق كأنما يبدو من خلال مرآة ، وكان مهذبا للغاية ، فقد كان يضع ساقا على ساق فلما رآهما انزل ساقه الى جانب الاخرى ، وأذن لهمـا بالجلوس ، وسارع ينادى الخادم كى يقدم لهما شيئا ، ولاحظا رقعـــة الشطرنج أمامه ، وكانت القطع السوداء فى جانبه بينما اصطفت القطـع البيضاء فى الجانب الآخر ، وكان يبدو من وضع القطع أن اللعب قد بدأ حديثا . وقد أدرك مؤمن فى الحال ما طرأ على فكر صديقه ، فصلاح يود لو يجلس أمام يونس بك ويلاعبه الآن ، ولا بأس أن يستمر اللعب ســاعة وساعات الى آخر النهار ، عساهما يستطيعان أن يكسباه الى جانبهما . فلماذا لا يكون يونس بك واسطة بينهما وبين صاحب المسكن ، وكان صلاح

يجيد لعبة الشطرنج ، اما مؤمن فهو لا يزال يتعلم المشاركة فى هذا اللون من الصراع . وقد حدث ما توقعه مؤمن ، فان صديقه صلاح لن يفاتح يونس بك فى المهمة التى اقبلا من اجلها ، بل كأنما سعى اليه خصيصا لكى يلاعبه الشطرنج ، ومضى يكشف له عن سعة معلوماته ولكى يوضح له أنه رغم عدم اصابته بالعرج كأكثرية الباقين ، الا انه لا يقل عنهم فى اللعب مهارة ، وكأنما كانت كلمة الشطرنج هى كلمة السر بينهما ، فما لبث أن صاح فيه يونس بك قائلا :

لقد جئت اذن فى وقتك المناسب ايها الرجل ، فلقد غادرنى صديقى منذ لحظات ، وكنت حائرا فيما يمكن أن افعله الآن .

وجلسا وجها لوجه ، وبدأ التحمس على وجه صلاح ، واصر على ان يبدأ صف القطع من جديد بعكس يونس بك الذى كان يود لو يبدأ اللعب من حيث توقف . وكان من المحتمل أن يطرأ على ذهن صلاح فكرة خبيثة ذلك الا يتحمس للعب كل هذا التحمس والا يخلص له كل هذا الاخلاص ، بل يقدم هزيمته للرجل على سبيل الرشوة ، لكنه فى الواقع قد اندفع لا يتنبه لشىء من ذلك بينما كان مؤمن يرقب عقربى الساعة المثبتة فى أعلا الحائط أمامه .

وفى الساعة الحادية عشرة كان قد مات أول بيدق أبيض ، وفى الحادية عشرة وثلاث دقائق مات أول بيدق أسود ، ولا بد أن كلا منهما قد ضحى ببيدق من عنده ليستر وراء ذلك هجوما بعيدا . وفى الساعة الثانية عشرة الا خمس دقائق كان قد مات ثلاثة بيادق أخرى سوداء وثلاثة أخرى بيضاء ، وفى الساعة الواحدة مات رخ الملك الابيض وحصان الملك الاسود وفى الساعة الثانية تذكر مؤمن أنه لم يتناول طعاما من الصباح حتى تلك اللحظة . وفى الساعة الثالثة والنصف كان رواد المقهى قد اخذوا ينصرفون وفى الرابعة كان الرذاذ يطرق زجاج المقهى فى الخارج ثم انقطع ، وفى الخامسة كان فيل اسود قد مات ، وفى السادسة الا عشر دقائق قال يونس بك «كش الملك» وفى السادسة تماما كانت المعركة قد وصلت لحظتها الحاسمة وكأنما لم يعد الصراع أمام مؤمن بك مجرد قطع سوداء وقطع بيضاء ، وفى السادسة وعشر دقائق مات رخ اسود ، وفى السابعة الا ربع كان مؤمن يجتر اشياء كثيرة عجيبة حول حياته وطفولته ورئيسه ومستقبله وفتاته ومسكنه ، افكار يعيدها مرة بعد أخرى بلا نهاية فى دائرة مغلقة على نفسها كأنما يقضم اظافره ، وفى السابعة الا خمس دقائق كان المقهى قد ازدحم بالرواد من جديد ، وفى السابعة تماما قال صلاح «كش الملك» وفى السابعة والربع كان مؤمن يشرب فنجان القهوة السابع ويدخن السيجارة العشرين ، وفى السابعة والنصف الا سبع دقائق مات الوزير الابيض وبعدها بخمس دقائق مات الوزير الاسود مما بين انهما موشكان على نهاية هذا الضياع .

وفى السابعة والنصف تماما لم يبقَ من القطع السوداء الا الملكواربعة بيادق بينما تبقى من القطع البيضاء بيدقان وحصانان ورخ والملك ،وبهذا أصبحت نهاية الملك الاسود معروفة ومحتومة ، فبعد ثلاث نقلات سيموت لا محالة ، وبهذا اصبح صراع الاسود مع الابيض صراعا لا جـــدوى من ورائه .

وبدا على الرجل انه لا يقبل الهزيمة ، وانه يود لو يبدأ من جـديد ، وهما يحاولان ايجاد طريقة للخلاص ، حين شاهد يونس بك يرفع بصره نحو رجل مقبل ضخم الجثة يسير على مسندين ، فلا بد أن ساقيـــه صناعينان ، ولما اصبح أكثر اقترابا وقف يونس بك باحترام شديد ، مما اضطرهما أن يقفا معه ــ وبنفس الاحترام ــ بدورهما ، واقبل الرجــل الضخم محييا يونس بك ، وقدمهما اليه يونس بك بغير أن يقدمه لهماولا أن يذكر اسمه ، فيبدو أن الرجل كان من الشهرة بحيث افترض فيهما يونس بك انهما لا بد يعرفانه من قبل ، وقدلمحا ساعته الذهبيةوسلسلتها التى تهبط من جيب داخلى ، وعرفا فيه صاحب المسكن الـذى جـاءا يطلبانه ، وظلَ الرجل واقفا بضع دقائقَ فظلوا واقفين معه ، فلما جلس ومرت نحو نصف دقيقة اذن يونس بك لنفسه أن يجلس وأن يجلس معه مؤمن وصلاح ، وسمعاهما ينهمكان فى الحديث .

ــ وماذا قال محاميك ؟

ــ ليس امامه الا أن يرفع الامر الى القضاء .

ــ اذن فلم يترك الرجل المسكن ولا يريد مغادرة المكان .

ــ بل لا يزال يصر ويرجو .

ــ آه قصة زوجته واطفاله ، والرصيف والسماء .

ــ وقصة المال الذى سيأتيه ولا يأتيه !

ــ والوسطاء الذين يرسلهم وراءك فى كل زمان ومكان !

وهنا انحنى الرجل الضخم وهمس فى اذن يونس بك .

ــ اظنهما وسيطين .

ــ بل يريداننى وسيطا بينك وبينهما .

قالها يونس بك ضاحكا ، لكنه ما لبث ان دهش حين اخذنا نوضـــح الامر ، وكنا متحمسين للغاية ، فليس هناك مجال للخوف أو الخجل . حدثه صديقى عن وظيفتى وحدثته عن مرتبى ، حدثه عن اسمى وحدثته عن اسم خطيبتى ، حدثه عن حبى وحدثته عن زواجى ، حدثه عن الفندق

الذى ترعى به الارانب وحدثته عن أصدقائى واحلامى ، والرجل يستمع الينا ، وانا مدرك أنه قد يطردنى ذات يوم من مسكنى الذى لن أملكه ،حين يكون لى زوجة واطفال ولا مأوى لهم بعد ذلك الا الرصيف والسماء .

ـ وكم تريد أن تدفع ؟

ـ خمسة جنيهات .

ـ بل سبعة جنيهات .

ـ ولكن هذا نصف مرتبى .

ـ ولكن المسكن سيظل خاليا ولن يؤجر لك بهذا الاجر .

وفى الساعة الثامنة وخمس دقائق أعلن يونس بك أنه يريد نفس هذا المكان مخزنا لبعض بضائعه . وعند ذلك فقط أدرك صلاح أنه كأنما أخطأ بانتصاره ، وانه سلك الى نفسية هذا الرجل طريقا عكسيا فأبعده عنه بقدر ما كان يريد أن يقربه اليه .

وبينما هما خارجان ، التفت صلاح نحو مؤمن وقال هازئا :

ـ لقد بدا عليه الغضب كأنما اخطأت بانتصارى ، كأنما ليس من حقى أن انتصر .

***

ولقد هبط المساء الآن والسماء توشك أن تمطر من جديد ، وعليك أن تعود يا مؤمن الى الفندق ، حيث تحس كأنما انت قادم من سفر وكأنما انت على اهبة سفر جديد ، ستجد زجاجة الكازوزة المقلوبة، وترى صاحب الفندق وهو ما يزال يبصق ومن حوله الارانب تقفز . . وستدخل غرفتك وتضىء النور لتشم بقايا رائحة الدجاج وترى من عساه يشاركك غرفتك هذه الليلة ، ثم تجمعكما الغربة الموحشة والظلمة المغرية الخبيثة ، وتحصل على اعتراف جديد .

بل ستعترف أنت الليلة لزميلك الجديد ، سنروى له كيف كافحت حتى أصبحت كاتبا بمصنع الدخان ، وكيف كافحت حتى تعرفت على عنايات وخطبتها الى نفسك ، ثم تخبره انه لا بيت لك ، قل له أن بيتك فى المقهى ،وفى الطرقات ، وفى سينما المدينة حيث يعرضون عليك منازل فخمة ، وبيوتا رحبة واسعة ، ذات حدائق وذات أثاث بلورى ، لها غرف كثيرة ، وأبواب ونوافذ ، وفيها أطفال وفيها حفلات ، قل لهم انهم يهدمون فى المدينة كل منزل منخفض ، ويخططون كل ارض فضاء ، ثم ترتفع منازل

ضخمة عالية رائعة الهندسة متعددة الحجرات كقصــور التيه ، ذات نوافذ كثيرة وشرفات كثيرة وأبواب مغلقة كلها فى وجهك .

فاذا صحا الصباح ستذهب الى عملك حيث تلتقى بصديقك صلاح، ثم تنحنى ظهراً على منزل خطيبتك حيث دعتك لتناول الغداء ، لا تنتظر هذه المرة للاسبوع المقبل ، فلتواصل بحثك غداً وبعد غد وبعد بعد غد . اغتنم كل فرصة وكل دقيقة ، اقرأ اعلانات الجرائد جميعها وسر بطرقات المدينة جميعها واسأل من تعرفه وتعرف على من لا تعرفه ، واجمع حولك كل من لا بيت له . فأنت بطل من أبطال هذا القرن ، لانك اســتطعت الحصول على وظيفة ، والحصول على حب ، ولابد لك ــ وللاخرين ــمن الحصول على بيت .





هذيان

نجوى هو ابسم الفتاة التى احبها ، وديعة وجبانة ، مثقفة ولا لباقة فى تصرفها ، وذات جسد جميل . وانا أعرف انني انسان ملعون ، فقد شاهدت أهلها ذات يوم وقد صبغوا وجوههم بالنيلة وهم يلطمون . وانا فى حاجة الى خمسة مناديل وجوربين ومجموعة محاورات افلاطـون .
وهذه موسيقى شهر زاد لريمسكى كورساكوف لاتزال فى نفسي اصداؤها فقد كان يحكى أن ملكا اسمه شهريار وجد امراته تخونه مع عبد اسود فقتلها ، وجعل يتزوج كل ليلة بامراة وفى الصباح يقتلها .

ووضعت أمه الضمادات المثلجة فوق جبهته ، وبذل جهدا هائلا كى يعود الى الواقع ، كى يتشبث باطراف الصور الموضوعة على الجـدران وفوق الرفوف فلا تعود الوانها تتمايل . وحاول ان يحتفظ اكبر وقت ممكن بالمعالم الدقيقة لوجه امه .. حتى استطاع لحظة ان يعى بشعرها الابيض المحلول وبالدموع التى اغرورقت بهاعيناهاوبالضوء ،ثم احس اشياء هائلة تتحطم فوق ظهره ، واضواء تبرق وتتلاشى فى الظلمة المفزعة ، وهذا الضجيج العربيد يرتفع من أسفل حيث أصـوات المدينة الصـاخبة تستحيل الى عواء . وعاودته النوبة من جديد ، وسرت فى جسده موجة من الحرارة والقشعريرة ، فأحس بحاجته الى التقيؤ بغـير أن يتقيأ ، وكأنما هنا لك قوى شيطانية تنبعث من أعماق الجحيم تجذبه من العالم الخارجى حيث المدركات ثابتة وواضحة ومنظمة الى ضجيج داخلى فظيع لايمكن تحديد مصدره فى دقة .

وامتلأت الغرفة أمامه بالبطيخ ، من الارض حتى السـقف ، حتى كادت انفاسه تختنق وكان البطيخ يزدحم فى الركن الشمالى من الغرفة ثم يتفرق فى خطوط مستقيمة واخرى منحنية ، ثم اخذ البطيخ يتدحرج فى سرعة جنونية واشتبك فى معركة مخيفة . ووقف مذعورا يركل غطاءه ويرتعش . واقتربت منه أمه العجوز واحتضـنته قائلة : مم تخاف يا ابنى ؟ أنا أمك بجانبك . وظل متشبثا بها وهو يحدق فى البطيخ الذى يملأ كل مكان ويتدحرج الآن فى تباطؤ وتلكؤ .. حتى خارت قواه ، فعاد من جديد الى الظلمة والدوى العربيد .

وكان راسه يكاد ينفجر ، وخشى لحظة أن يصبح مجنـونا ، ان يدخل هذا العالم المزدحم بالبطيخ المتدحرج فلا يعود ... وصرخ ، وقام من جديد يركل غطاءه وهو يتوجه نحو النافذة صائحا : اضيئوا الانوار .

ومن قبل قد راقب بنيلوب وقتا طويلا وهى تتعـلل بمغزلها الذى لا ينتهى لانها كانت تنقض فى الليل ما تفعله فى النهار ، وشـاهد بياتريس وهى تستقبل دانتى صاعدا من جحيمه بعدما عبر المطهر مـع فرجيل ، ثم تقوده خلال السموات التسع حيث اعشى بصره نور الله

فعجز أن ينظر الا فى عينيها ، وعرف جان ديفال وهى تعــذب بودلير عذابات سوداء لا نهاية لها .. وكان قد جاء دوره هو ، بطل مجهـول بين ملايين الابطـال الذين يتعـذبون فى صمت ، وليس لديه شـاعر يذيع بطولته فى أنحاء الارض .

وكان قد جاب أنحاء الارض ، زار أيطاليا حيث تعرف بجرازيلا وقضى معها وقتا طيبا ، ثم مر بروما وشهد لوحة العشاء الاخـير وزار المانيا حيث نزل ضيفا على هنرى ومعشـوقته مرجريت ووقف وجها لوجه أمام نفرتيتى ، وبعد الحرب الاخيرة زار باريس وشـاهد لوحات سيزان ولوحات بيكاسو الاخيرة وفى دار الاوبرا رأى كاليجولا يتصارع مع حريته ، ثم زار موسكو حيث شهد تمثال لينين والنظـام الحضارى الجديد ، وعرج على جنوب السحاب وجاب الاحياء الخلفية الرطبة . ثم صاح مرة أخرى :

أضيئوا الانوار .

ذلك ان الغرفة فى ذلك الوقت كانت قد ازدحمت بنساء متكورات كالبطيخ ، وكانت النساء البطيخ متلفعات بالسواد يجلسن طبقـات بعضهن فوق بعض ، من الارض حتى السقف ، وهن يتثاءبن ويتنهدن كأنما انتهين لتوهن من مناحة كن يعددن ويولولن فيها ، وزعق فيهن عسى أن يجفلن أو يختفين فلم يزددن آلا تعبا وتراخيا . وود لو يهرب منهن ، فقام يحاول أن يشق طريقه نحو الباب .

وكان الباب مغلقا ، ورأى الطبيب يدخل من خلاله ، ثم جسـه وخرج ، واختفت فى أثره النساء البطيخ . ورأى من النافذة قبـة السماء الداكنة الزرقاء تلتمع فيها النجوم ، فأدرك أن الليل هبـط وسمعهم فى الخارج يتهامسون ، وحدس أنهم يعدون له نعشا، صندوقا طويلا له أحرف مذهبة وفوقه زهور صناعية بيضـاء .. هنـاك حيث تربض نهاية العالم . وشيئا فشـيئا أخـذت تستيقظ أمامه معالم الغرفة ، رأى أولا زجاجات الدواء القاتمة موضوعة على أسـفل الرفوف من الجهة الشمالية ، ثم شاهد بلاط الغرفة وفى وسـطه بقعة كبيرة حمراء كالدم ، ولمح مقعدا خاليا ، وبقعا سوداء فى أعـلا الجدار أمامه ، ومنشفة بيضاء ملقاة على الارض ، وطنين حشرة لايعرف مصدره .. ثم اهتزت الصور والجدران ، والمقعد والرفوف ،والنافذة والباب ، والارض والسقف ، وأحس آلاما جبارة كأنه امرأة تعـانى المخاض ، ثم نضح العرق غزيرا من جبهته ومن كل جسده ، وعاد كـل شيء يسـتقر .

وكان قد قرأ عن الراقصات المقدسات فى معبد انياتيس وفى معبد

افروديت يشبه جزيرة كورنث حيث يهبن انفسهن فى الاعياد نيــــابة عن بنات جنسهن . وكان ينشد بنية مضت تحرر جنسها وتحمل لهن الخلاص من الموت الذى يتربص فى كل لحظة بهن ، مثلما فعلت شهر زاد لبنات جنسها فأصبحت بحق بنية الاساطير فى الشرق . وفى ســــن التاسعة عشرة عثر فى زاوية صغيرة على امراة صغيرة .

وكانت نجوى تجوب طرقات القاهرة تبحث عن نبى بين الرجال ، عن الفارس الذى سيهدىء من ثورة العالم مستلهما من صــــدرها الحنون . ففى ذلك الوقت ـ كما فى أيامنا ـ كان الحب والكرة يتقاتلان فى صدور الرجال والنساء وفى المصانع والميادين وفى كل أنحاء العــالم . فاقترب منها وسألها عمن تبحث ورأت فى وجهه ما يشبه شفتى نبى ، وحدثها عما اذا كانت تعرف الطريق الى الراقصة المقدسة فى هــــذا المكان من الارض ، وجعل يصفها لها كأنما رآها من قبل ، حتى تبلورت الفكرة فى جسدها فسألته عما اذا كانت هى لا تشبهها فى شىء . أمــا هو فكان قد قتل روح النبوة فى نفسه ، فقد روح النبوة التى استلهمها ذات يوم من هاملت ودون كيشوت ، ومات من أذنيه تصفيق الجماهير وضرب على نفسه حصارا حتى لم يعد يستطيع الوقوف على قدميــه ولا الجلوس .. ورقصت أمامه نجوى ، أحيانا فى الظلام وأحيـــانا على ضوء أحمر بوهيمى ، حتى أخذت تسرى اليها عدواه .

ولقد تكشفت نفسه شيئا فشيئا أمام نجوى ، وتركته يكشــف عنها شيئا فشيئا ، وارتعش وارتعشت ، واستاءت منه فاستاء منها ، ثم ضمتهما قبلة طبعتها الشفاه القرمزية ورأتها العيون النجل فى الليالى السود ، وأمسى الجسد الانسانى البكر وسيلة عظمى من وســـائل المعرفة ، وفاحت رائحة العسل ، وتقطر الندى من السماوات المزدحمة بالنساء الشــــجر .

وكأنما كان جسده يحترق فى أتون . وارتفع ضجيج المدينـــــة وصوت مصانعها الحية النابضة . ولمح وجها ميتا ورأى أسنانها بيضاء بارزة بين شفتيها الصفراوين ، وتكشفت له جبال الالب عن ثلوجها ، ورأى الجن تعقد عيدها السنوى فوق قمة جبـــل بروكن ، وتدحرج البطيخ من جديد ، وفتح عينيه يحملق باحثا عن المرئيات الواضـــحة المتميزة حيث للاشياء حدود ولا تتعداها ، وهاربا من الماضى والعـــالم الداخلى المتضخم فى حرية خطرة .

ومنذ ثلاثة أيام ، وفى الحديقة المظلمة الخلفية ، وراء شــــجرة الجميز الكبيرة ، غمس خنجره فى دمها ثم فى دمه ، وكان يمكنـــه أن يستخدم وسيلة أخرى ، غيرأنه أحب أن يرى قطرات الدم تقطر منهــا ومنه كأنما انبعثت فيه همجية العصور جميعها وقداساتها .

وعندما اقبل القوم فى الصباح غمغموا قائلين : حبيبان منتحران. وكانت هى قد ماتت وتركته طريحا على الحشائش يشاهد أهلها وقد صبغوا وجوههن بالنيلة وهن يلطمن ، ثم غاب فى فراغ لا يسمع فيه وطء قدميه .

ذلك انه ذات يوم فى الخريف ، حين بلغ الحادية والعشرين ، تشاجرا واهانها وقبلته ثم هربت منه . ومنذ أسبوع واحد شاهدها تعود . فانتابه فرح شيطانى لانها لا شك الآن قد عرفت كل موطن فى جسد الرجل ، وخبرت كل احساس نسائى ، واعطت للرجل كل ضرب من ضروب اللذة وما يشتهيه ، واعدت نفسها للرسالة التى حدثها عنها ذات يوم . فلما اقبلت قصت عليه كيف حملت منه ، ولم تستطع أن تجابه الناس بعارها فهربت والقت بولدها فى اليم ، مما ذكره بما فعلته مرجريت معشوقة هنرى ذات يوم .

اذ ذاك ادرك انها لم تستطع أن تجعل منه تلميذا ، فليست لديها اصالة النبوة ، ولا تزال تحلم بنبى بين الرجال ، وهذا أمر قد أصبح مستبعدا ولا ضرورة منه ، فالنساء كن الجنس المستبعد فى تلك الايام ومنهن ستنبثق روح الثورة والالهام . فأحس خيبة هائلة وتقاتل الحب والكره فى أعصابه ودمه وقرر أن يرضيهما معا ، فعاقبها ، ثم عاقب نفسه على ما فعل .

ولقد مر عليه ثلاثة عند الفجر ، وكان هؤلاء هم أصدقاؤه ، أحدهم طالب طب والآخر بائع اللبن ، وربما كان ميفوستوفيلوس ثالثهم . فوجدوا أمه تقول — والدموع تنهمر من عينيها — انه فقد صلته بالعالم الخارجى منذ الليل .

وكان يهدد المدينة فى ذلك الوقت فيضان كبير من ناحيتها الغربية، فظل العمال ساهرين يقيمون الجسور على طول الشاطىء ويراقبون مواطن الضعف لئلا تتدفق منها المياه ، وكانت الجزيرة المقابلة فى النيل قد غرقت فنزل فلاحوها يخوضون ويجمعون بقايا حصادهم الاخير ، قرب الماء الى احدى القرى الجنوبية فتزاحم عليها البعوض والهوام .

ولمح الباب المغلق ، حيث يعتقد ان طريقه الى الحرية هناك فود لو يختم حياته بعمل عظيم : ان يتخلص من هذه الجدران الاربعة ومن رائحة العرق وينطلق الى الخارج باحثا عن خطر جديد .. حين لمح المقعد الخالى ، فحدس انها ستقبل هنا بعد دقائق ، وتجلس على هذا المقعد فى ثوب عرسها الابيض الشفاف ثم تقوده خلال السموات التسع . وكان يحسب انه قد نسى ، غير أنه أدرك اخيرا أن الملك شهريار كان يذكر زوجه الاولى الخائنة فى كل مرة يقتل فيها امرأة جديدة .

وشم رائحة نتنة ، وخيل اليه أن الجرح الذى فى جسده ولا يراه قد ازدحم الآن بالدود ، فقد احس به يرعى فى طمأنينة وبلا عجلة . وانزعج أن يرى نفسه يتعفن ولما يزل به رمق من الحياة . ومد يده فى خفة وحذر يتلمس موضع الجرح ، لكن يده ضلت طريقها ولم تستطع العثور أبدا عليه ، غير انه كان واثقا أن النار والدود يرعيان الآن فيه ، وانه يمتد شيئا فشيئا ويزحف على بقية الجسد . وتعالى من حوله ضجيج حاول أن يعرف أين هو منه ، فرأى آلهة الاولمب يقيمون حفلا صاخبا فوق قمة جبل البرناس ، وكانت هناك هيلانة وباريس وبرسيفون ومانتو ابنة اسكيلاب اله الطب وهى تطمئنه قائلة : اننى احب من يطلب المستحيل .

وكانت انفاسه الآن تحترق ، واحس أن الدم ينزف منه بغزارة ومن قبل كان قد صارع كل لذة وكل ألم ، وعرف دفء المرأة وشراستها ، وضعفه هو وقوته . وبلغ اليوم سن الرجولة والنضج بعدما تزود بتراث العالم وحضارته ، وخبر الناس ومعاملتهم ، وتجاذبه الحلم الواقع . . . وكانت الظلمة التى تحجب كل شىء أمام عينيه ما تزال تفزعه ، فغمغم فى صوت خفيض متعب . أين الانوار ؟ .

ورأى طفلا ـ ربما كان طفله الذى لم يره ولن يراه ـ ذهبى الشعر أزرق العينين قاتم الاهداب كأنه حلم عذراء شرقية ليلة زفافها ، يقف وسط الغرفة وفوق بقعة الدم العظيمة ويمسك بوقا فضيا كبيرا بين يديه ولا صوت يخرج ، غير أن الغرفة تمتلىء بالهواء ، وتمتلىء حتى لا تقوى حيطانها على الصمود ، فتتأثر أجزاؤها وتهوى فى الفراغ .

فى هذه اللحظة اقبلت أمه تداعب شعره وتقول : لا شك انك تحسنت الآن ، ففتح عينيه ورآها وهز رأسه وابتسم ، ثم أغلقهما وربما الى الابد .


جسد
من... طين



كانت ليزا قد بدأ يضعف أملها فى الزواج ، فقد رأت صديقاتها يتزوجن الواحدة تلو الاخرى وهى تعبر ربيعها الواحد تلو الآخر حتى هذا الربيع الثامن والعشرين بغير أن يتقدم أحد لخطبتها .

وكانت ليزا تعلم ان وجهها ليس جميلا ، لا سيما منذ أصابها ذلك « الجدرى اللعين » فترك على وجهها ندوبا شوهت منه كثيرا ، لكنها كانت تؤمن ايمانا راسخا بجسدها ، وكثيرا ماتحس الاحتقار نحو صديقاتها لانهن لا يملكن ما تملكه هى من الجسد ، وترمى الشباب بالبله والغفلة لانهم لا ينتبهون الى جسدها الذى تحسه لدنا دافئا كلما احتواها فراشها فى ليلة باردة ، فتتمتم : ما أسعد الرجل الذى سيضمنى اليه .

ولم تكن ليزا قد عرفت الحب ، ومع ذلك فانها كانت قد تعودت ان تحلم بأشياء عجيبة مرهقة لا يستطيع أن يتخيلها أحد غيرها ، فكانت تستطيع أن تحلق بجسدها الفض الرائع الى قصور ذهبية او الى جنات سحرية حيث تجول دائما وفى اهتمام كأنما تبحث عن كنز ، حتى تبهر انفاسهاويضطرب جسدها .. جسدها كله وهو يحلم معها فى وعى عنيف وتستيقظ ثائرة من حلمها لان هذه الافكار المخيفة تملأ قلبها ، وتستطيع ان تزورها من حين لاخر ، فتقرأ من كتابها الدينى ما هو كفيل بأن يطرد الشيطان .

لكن شابا صغيرا كان قد بدأ يصاحبها فى هذه الرحلات البعيدة المرهقة ، طالب من طلبة الطب ، سكن حديثا غرفة تطل على غرفة نومها، كانت تلمحه يسارقها النظر وهى مستلقية فى استرخاء على فراشها نصف عارية . اترى جسدها الرائع قد اثار اهتمامه وخلق فى نفسه احلاما عجيبة سحرية كالتى يخلقها لها ؟ ومنذ ايقنت ان الطالب متنبه لوجودها بدات تحس أن جسدها يزداد جمالا يوما بعد يوم ، وأن ثدييها لم تكونا من قبل فى مثل هذا النضوج والتكور . وقد كانت ليزا فتاة متدينة جدا ويؤلمها اشد الالم أن تجول برأسها مثل هذه الخواطر . وكانت تطمئن نفسها أن المسألة لا تعدو مجرد فكرة فى لحظة ضعف — لكن جسد ليزا كان جميلا حقا وقويا حقا ، وكانت له مطالب حرمها بسبب وجهها .

وقد جاء محيى الى العاصمة حديثا ، فر من هذا الجحيم الذى كان يحياه فى سوهاج ، وكانوا يحدثونه دائما بأنه واجد فى القاهرة مرتعا للذاته وتحريرا من كل ضغط أو قيد .

وقد أقبل الى القاهرة ، غريبا وحيدا ، وهو يخجل أن يقول لاحد أن الاسباب القوية التى دعته ان يلتحق بالطب هى أن يتمتع برؤية أجساد الفتيات عاريات ، فقد حدث انه بلغ العشرين ولم ير فتاة

عارية أبدا ، ولا يزال يذكر ابنة عمه الحسناء وكيف اســـتطاع طبيب المركز أن يفوز فى لحظة برؤية جسدها البض الطرى الذى يشتهيه ،وهو ما ظل يحلم به عبثا أعواما طوالا فجاء العاصمة كالذئب النهم ، يبحث له عن فريسة فى أى مكان ، وكان قد اقنع نفسه منذ زمن طويل أنه بهذا يريد أن يعبر مرحلة الطفولةالى مرحلة الرجولة ،كما كان يؤلمه احساسه أن حياته حلم طويل ، طويل لا فعل فيها .

وقد كانت أول رؤيته لليزا على سبيل المصادفة . لا بل نتيجة طبيعية حتمية بعد هذه المهدات التى تجعل من رؤيته لها عملا مقصودا ومطلبا له من ورائه غاية . كان قد جاء غرفته الحديثة ذات ليلة فوجد الهواء خافتا غير نقى ، ففتح النافذة على مصراعيها ..

واندفع نسيم بليل ملأ به رئتيه . لكن ضوء القمر النـاعم النـدى لم يكن يستطيع أن ينفذ داخل الغرفة ، واشتاق محيى أن يراه فأخرج رأسه يتقبله .. ولفتت نظره هذه الغرفة التى تطل عليها نافذته ، فقد كان ثمة شبح لامراة تتقلب على سرير فيها ، وكان ضوء القمر الباهت يغمر جسدها وهى ترتدى غلالة شفافة ، وكان هذا حدثا خطيرا فىحياة محيى ، فتلك أول مرة يرى فيها امراة نصف عارية ، وكان الضوء ناعسا لاتكاد تتبين فيه المعـالم ، فحاول جاهدا أن يكمـل الصورة من خيـاله الخصب ، حتى أحس غرائزه تثور ، وقد تكررت بعـد ذلك هـذه « المصادفات » بينما كانت ثمة معركة ترهق ليزا وأحلامها ، فقد بدأت تحس بوضوح وجود ذلك التناقض بين مطالب جسد من الطين ومـا يتطلبه خلاص روحها واستمرارها نقية طاهرة ، وكان جسدها دائمـا ينتصر ، لكن ثمة فكرة ، كانت صغيرة تافهة أولأمرها : ذلك أن الشيطان قد اختار هذا الشاب لاغوائها . هذه الفكرة بدأت تتضخم وتتضـخم حتى أصبحت كالحقيقة فى نفس ليزا . ومع ذلك فان ليزا كانت تشتاق أكثر وأكثر الى أن تهب هذا الشيطان جسـدها ، حتى أصبح هـذا الاشتياق مزمجرا عاليا لدرجة أنها كانت تفزع منه الى آياتها المقدسات تلتمس الخـلاص .

ورغم ان محيى تبين وجهها المجدور واسف لهذا بعض الشىء ، الا أنه رأى فى ذلك ما يجعل الجو أمامه خياليا يعينه على أن يحققالفكرة التى بات يحلم بها ويأمل فيها حتى أصبحت ملحة مرهقة تدفعه دفعـا كى يحيلها الى فعل .

ولقد حدث أن فاز بها ، قاومته أولا ، ثم حدثته عن الحياة وكيف أنها واد للشقاء والدموع ، وكيف أن للجسد مطالب وللروح مطـالب تناقضها ، واننا يجب أن ننتصر فى هذه المعـركة مهما تألمنا ، أن نقضى على شهوات البدن ورغائبه ونسمو بالروح ونطهرها . ورأت الدهشة

فى عينى الطالب ، وخافت أن يقتنع بما كانت تقول ، ثم راته يسخر منها وهو يحاول أن يلمس جسدها ، جسدها الجميل الذى اخذ يقشعر الآن ، واحست انفاسه الحارة تلفح وجهها المجدور ، لكن يده كانت تقترب من جسدها .. اللدن .. الشهى .. وراودتها الفكرة المزعجة ، انها أمام شيطان متجسد ، فخافت لحظة ، ثم سألته وهى تريه أنها تبتعد :

لماذا لا تعانى أنت الاخر؟ قال : لقد كانت ثمة معركة صغيرة قضيت عليها ، لكنها لم تكن بين مطالب جسد ومطالب روح ، بل بين مطالبى أنا ومطالب المجتمع ، ولقد رأيت مطالب المجتمع قاسية ظالمة ومطالبى أنا عادلة لذيذة ! فانتهت المعركة ، واقتربت منه ليزا ، وهى تحس أن رغباتها الهائلة العنيفة التى يخفيها المجتمع فى قسوة مع جسدها الجميل خلف ذلك الوجه المجدور قد آن لها الآن أن تنفجر من عقالها .

لكن ليزا لم تستمتع فى هذه الامسية كما استمتعت فى الامسيات السابقات ، أحست كأنما صدمت رأسها الصغير بحائط هائل ، وأن عليها أن تترنح الآن . وشعرت أن الشاب الصغير اذلها ، وحاولت فى عبث أن تفهم لماذا لا تكون هى التى انتصرت ؟ أما حققت ما كانت تبغى ؟ ثم ضميرها ، ضميرها الذى أرقدته حين ثار جسدها قد عاد الآن من جديد يسحقها ولا يكاد يرحمها . ثم المجتمع ــ ماذا لو حملت جنينا ؟ ماذا لو عرف أهلها وصديقاتها ، ووجدت نفسها تتحطم ، وما عاد لها القدرة على أن تحلق من جديد أو ترحل نحو هذه الاراضى السحرية البعيدة بل أصبحت كطائر قص جناحاه كلما حاول أن يطير عاد الى الارض من جديد .وأزعجتها هذه الفكرة المخيفة وأن الشيطان قد أفلح فى اغرائها فتلوثت روحها الطاهرة كما تلوث جسدها البض الدافىء.

وفتحت ليزا نافذتها فى جنون تنادى على محيى بصوت مبحوح وعيناها واسعتان من الخوف .فقد كانت تريد أن تتأكد من شىء يزعجها الآن ، بل يجنها ، لكن نافذة محيى كانت مغلقة والسكون الرهيب لايريم عنها . وجحظت عينا ليزا وافزعتها الفكرة أكثر واكثر مما افزعتها فى أى وقت آخر . وبدات تتيقن أن الذى ضم جسدها الرائع هذه الليلة لم يكن انسانا ، بل روحا خبيثة مضت الى عالمها بعدما أغوتها . وأخذت تنبعث فى نفسها كل ما سمعته فى طفولتها من أساطير وقصص عن شياطين افلحوا فى اغراء عذارى أمثالها . فمضت تبكى وقد أمست على يقين أن الشيطان أصبح له الآن حق فى أن يشاركها غرفتها .

وفتحت ليزا نافذتها مرة أخرى ونادت على محيى للمرة الاخيرة لكن النافذة كانت لا تزال مغلقة .وعندما بحثت عن كتابها الدينى

لم تستطع أن تهتدى اليه . أما الآيات التى استطاعت أن تذكرها فما كانت الا لتزيدها احساسا بثقل الخطيئة التى ترزخ الآن تحتها . ولقد حدث قبيل الفجر أن ألقت ليزا بنفسها من النافذة .

أما محيى فقد امضى ليلته محتفلا بنشوة هذه الامسية ، وعاد الى غرفته قبيل الفجر . وفى الصباح علم بما فعلته ليزا ، فأسف لهذا بعض الشىء ، ولكنه كان واثقا أن التهمة التى طالما وجهها الى نفسه وهى أنه دائما يحلم ولا يستطيع أن يفعل ، قد انتهت منذ تلك الليلة الرائعة .

كل ما قاله وهو يحزم أمتعته لينتقل الى غرفة أخرى : ما أسخف المعركة التى تنتهى فى نفس انسان بمثل تلك النهاية . ثم مضى يحزم أمتعته آسفا لانه لن تتاح له فرصة أخرى كى يضم اليه جسد ليزا . لكنه كان واثقا انه انتقل أخيرا من حياة الحلم الى حياة الفعل .



٥ من ابريل .

كنت اسير بالامس مع زوجي ، حين قابلت زينات . ولم أكن قد رايتها منذ خمسة شهور ـ اىمنذ زواجيـ فاستأذنت زوجي، ووقفت معها بضع دقائق اسألها عن حالها وصحتها ، فعلمت منها انها لا تزال تشتغل بالتدريس ، وانها كانت قد خطبت ثم فسخت خطبتها . وطلبت منها زيارتي فاعتذرت بكثرة مشاغلها . والواقع أنني لم أكن جادة فى دعوتها ، فلم تكن لى بزينات علاقة وثيقة فى يوم من الايام . ولست اذكر انني ذكرتها فى هذه الاشهر الخمسة يوما ما .

ولكن عندما عدت أسير الى جانب زوجي ، رأيت على وجهه بعض الشحوب ، وهو يسألنى فى استياء : هل تعرفين هذه الفتاة منذ زمن طويل ؟ فأجبته بأنها كانت زميلتى فى الدراسة يوما ما . فقال فى حدة لم أعهدها فيه : ارجو الاتطيلى الوقوف معمنتقابلينهن فى الطريق وأنا سائر معك . فسألته ، لمجرد الحديثولتخفيف حدة هذا «الرجاء» : يبدو أنك تعرفها ؟ فأجاب لدهشتي : نعم لقد كنت اعرفها ذات يوم .

وحاول بهذا أن ينهى الحديث ، ثم صار صامتا على غير عادته حتى وصلنا الى المنزل .

وفى الفراش تذكرت ما حدث فجأة ، وذكرت تفاصيل وجهه ونبرات صوته . وتبادر الى ذهنى ـ لسبب يبدو غير منطقى ـ ان ثمة علاقة كانت بين زوجي وبين زينات انتهت نهاية غير سارة ، على أن هذا كان مجرد خاطر قديكون تخمينا لا معنى له لشيء تافه ربما حدث عرضا خاصة وأن أكثر ما يتبادر الى اذهاننا فى مثل هذه الاحوال هو عادة ابعد ما يكون عن الواقع . على أية حال فانني أعرف كيف اكشف سر الامر .

١٠ من ابريل .

عندما جلسنا الليلة للعشاء ، تعمدت ان أذكر اسم زينات أمامه ، فقلت له : انني سأسمى مولودنا الاول اسم « زينات » ان جاء أنثى . وقد حدث ما توقعته ، فانه حدق فى استياء نحوى ، ثم صمت ،فمضيت فى الحديث قائلة : هل تعرف انني دعوت صديقتي زينات الى زيارتنا ؟ فبدأ عليه الاهتمام وقال : ماذا ؟ وهل ستأتى ؟ ثم عاد يقول : زينات لن تدخل هذا المنزل ، لاشك انك تعرفين القصة منها أو من زميلة لها ، فاجبت ، وقد علمت انني على وشك الحصول على ما أريد : اية قصة تعني ؟فأجاب : يجب أن أوضح لك الامور يا هدى ، ان هذه الفتاة خدعتني ، انها فتاة كاذبة جبانة ، انها الفتاة التى ذكرت لك من قبل أنها وافقت على زواجي بها ، حتى اذا ما تهيأ كل شيء فضلت على

شخصا آخر لان مرتبه يزيد على مرتبى بضعة جنيهات . ولكنه ما لبث أن تركها ، فانتقمت لى الاقدار . انها فتاة مادية حقيرة ، كيف كنت احبها ؟ هذا هو ما يزعجنى يا هدى .. لكن مالى اذكرها الآن ؟ لقد انتهى كل شيء ..

مع ذلك فانه ظل يتحدث عنها نصف ساعة ؟ وكان يعتذر قائلا انه كان يريد ألا يذكر لى شيئا اول الامر ، لكن يبدو له الآن ان اخبارى بقصته معها معناه أن علاقته بى قد استوعبت علاقته بزينات ، وهذا معناه ان حاضره معى قد شمل ماضيه ، وهذا هو طريق الخلاص الوحيد من ماضيه .

من الغريب أن ما تبادر الى ذهنى منذ أيام كان صحيحا ، ولست افرق كثيرا بين الكره والحب ، فالكره ـ مثل الحب ـ ليس سوى درجة من درجات الاهتمام بالآخر . واننى لاكره ان يهتم زوجى باخرى

١٣ من ابريل ..

ليس نقيض الحب هو الكره ، بل هو عدم الاكتراث . ان زوجى لا يزال يعيش ـ بفضل كرهه ـ معزينات هذه . وكانما يجد فى «كرهه» هذا ما يبرر له ان يجتر أيامه معها . لقد حدثنى عنها اليوم ما يقرب من الساعة الكاملة ، مبررا ذلك بانه يريد الخلاص من ماضيه ، وأن يستوعب حاضره ـ يعنى انا ـ كل علاقاته السابقة . وحين ذكرت له انها لا تستحق كل هذا الكره والاهتمام ، قال : وهل تظنيننى اكرهها ؟ كلا ، بل اننى احتقرها . تصورى اننا كنا نسير على شاطىء النيل فى ضوء القمر وهى تقول لى : لن اعرف حبا غير حبك . ثم تدع يدى تضغط على يدها برفق . وبعد ذلك بشهر واحد ، شهر واحد يا هدى، اراها تهيننى !؟

ورايته يتحول امامى الى طفل فى حاجة الى الرعاية والحنان ، واننى لاخشى أن يكون زواجه بى مجرد محاولة للانتقام من زينات . فلا شك اننى أجمل منها . واننى لاكره أن أكون مجرد اداة لانتقام عاطفى .

٢ من مايو ...

يا الهى ! اننى لم اشغل بزوجى من قبل مثلما شغلت به هذه الايام ! لقد دخلت انا وزوجى مطعما مساء الامس ، وفجأة وجدنا زينات امامنا . فبادرت بتحيتها وتقديم زوجى اليها . لقد حاولا أن يجيدا التمثيل باعتبار انهما لم يعرفا بعضهما من قبل أمام ثالث يعرف امرهما ! لكن زوجى اخطأ فى التمثيل ، فقد حياها تحية رقيقة جدا لم اسمعها منه لاحد من قبل ، ولا حتى لى !

وقلت في نفسي أن مجرد ابتعاده عنها يضخم كرهه لها ويشغله بها دائما ، اما الآن عندما يتقابلان ويتعاتبان بالنظرات ، فان كل شيء انتهى . أليس هذا ما كان من شأن محسن معي ؟ لقد ظللت اكرهه عامين ، ومع ذلك فبمجرد أن تقابلنا وتعاتبنا لم أعد أذكره الا لماما وهذا ما كنت اريده تماما .

وجلس ثلاثتنا في المطعم ، وتناولنا الطعام معا . وتحدثنا عن الجو وعن الاخبار السياسية وعن الوان الطعام . ويبدو ان كره زوجي قد تبخر تماما ، كان لطيفا وانيقا ورقيقا جدا ، حتى لقد اندفع في حماسة عاطفية يدعوها الى زيارتنا ، ويذكر لها انني اقترحت أن تكون اسم مولودتنا « زينات » .

وقد عاد الى المنزل ، وعليه آثار الارتياح ، كأنما انتصر اخيرا في معركة كان قلقا على نهايتها .

٢٠ من مايو ...

لقد صح ما توقعته ، فلم يعد يذكر زينات بالخير أو بالشر . لقد قضيت على وسيلة الاهتمام بها .

٧ من يونيو ...

زارتنا زينات بالامس . ولم يكن زوجي موجودا بالمنزل . وقد كنت اتأمل طيلة الوقت فيما يمكن أن يجذب قلوب الرجال نحو هذه المرأة . هل هي رقتها حين تضحك ام وحشيتها حين تغضب ؟ على اية حال ظللنا ننتظر مجيء زوجي عبثا ونحن نستعيد ذكريات الدراسة وصديقاتنا وما انتهين اليه اليوم . لكنها ما كادت تخرج حتى أقبل زوجي . فلما اخبرته بمجيئها بدا عليه هذا الاهتمام ، وقذف بما كان في يديه على المائدة ، ثم عاد بعد دقائق يخبرني أنه لم يتمكن من اللحاق بها !

٢٩ من يونيو ...

لقد فوجئت بالامس حين رايت زوجي مقبلا مع زينات ! وظلا يتضاحكان أمامي بدون اكتراث لعواطفي . ان هذه المرأة اهانتني في انوثتي . لماذا مهدت لزوجي سبيل الاتصال بها ؟ انني انا التي اطالب اليوم الا تدخل منزلي ، ولن تدخل .

من قال ان الكره يمكن أن يتحول الى عدم اكتراث ؟ ومن قال أن ما حدث بيني وبين محسن يمكن أن يحدث هو بنفسه بين زوجي وهذه الفتاة زينات ؟ أن الكره قد يتحول الى حب كما أن الحب قد يتحول الى كره !

١٥ من اغسطس .

أحس صداعا شديدا فى راسى . لست أذكر سوى اننى تذكرت ذات لحظة اننى شغلت بزوجى عندما رايته يشغل بأخرى فاردت أن احمله على أن يشغل بى بالطريقة نفسها . فاخبرته بقصتى مع محسن وادعيت اننى لا أزال أحبه . ولدهشتى وخيبة أملى حدث عكس ما توقعت ، فقد قال لى جادا : ولماذا لا ننفصل ، وتتزوجين انت محسنا هذا ، واتزوج أنا زينات ، واحسست الجنين يتحرك فى احشائى ،والدم يغلى فى عروقى .

لن يحدث هذا أبدا ، فليكره زينات من جديد ما دام اهتمامه بها ضرورة له . ان كرهه لها كان يعطيه القوة لكى لا يقترب منها لانه يعرف انه اذا اقترب منها فسيعود الى حبها ، لقد كان محقا فى اعتراضه على دخولها منزلنا ، ولن تعود الى دخوله .

٣ من سبتمبر ...

كنا نحتفل الليلة بمضى أسبوع على ولادة ابنى الاول . وبعد ما انفض الاصدقاء والاقرباء ، وبقينا وحدنا ، أحسست لاول مرة أننا لم نعد اثنين .

نظر الى طفلنا وقال : كلا ، لم يكن حبا لها من جديد . ان الحب ليس سلعة يمكن أن نفقدها ثم نعود نستردها . ان من شوهت الاحقاد حبه لا يمكنه أبدا أن يستعيده من جديد . بل الارجح انها كانت محاولة لاسترداد كرامتى ، وكانت هذه المحاولة تحمل فى طياتها رغبة فى الانتقام فافعل معها ما فعلته هى من قبل معى . وزينات لم تكن قد دخلت المعركة لكى تهزم ، والا لظلت بعيدا ، كانت تريد أن تظفر هى ايضا بانتصار جديد . لكنها لم تكن شريرة بالدرجة التى تصورتها يا هدى . كانت تريد أن تتمتع باشفاقها على ، وبهذا تمحو من نفسها ومن نفسى ما كنت أتهمها به من قبل . ولم يستسلم احدنا للاخر ، وعرفنا أننا نعذب بعضنا . وتنبهت فجأة الى أن الانتقام عاطفة الرجل البدائى، وأن الكرامة أيضا لا تفقد ، ثم تسترد بل هى شىء ننمو به فى كل مجال جديد يبدو امامنا . وخفت أن تكون هذه جميعها وسائل أبرر بها رغبة لاشعورية فى الاقتراب منها ، من الانسان الذى سبب لى ألما ذات يوم كالمجرم الذى يدور حول مكان جريمته . وكنت أعلم أن محسن وهم خلقته انت لكى تبرز أمامى معركة عليها تصرفنى عن معركتى التى كنت جد مشغولا بها ، وكان ثمة طفل ينتظرنى ..أن زينات لم تكن سوى الجانب المؤلم فى حياتى اما انت .. ثم ضمنى اليه يقبلنى .

عند ذاك انحدرت من عينى دمعتان ، وسمعته يقول : لماذا لا نكاد نعبأ بجانب النور فى حياتنا ،يجب أن نمرن عواطفنا على ذلك، وسنساعد بعضنا يا هدى .. وغاب عنى صوته حين ارتفع صوت طفلنا العزيز وانا اغمغم قائلة : انت زوجى الآن !

طبع بمطابع
الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد بروض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٢١٦٢٥



١٥٧ شارع عبيد — روض الفرج

تليفون : ٤٥٣٤٦ — ٤٥٤٠٥ — ٣١٦٢٥

العدد ١١

١٥ قرشا